

من
تراب الطريق
(٤)

رجائي عطية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

عطية ، رجائي .

من تراب الطريق / رجائي عطية . - ط ١ - القاهرة

: المكتب المصري الحديث، ٢٠١٠. مج ٤ : ٢٠ سم .

تدمك ٨ ٢٠١ ٢٠٩ ٩٧٧

١- المقالات العربية

أ - العنوان

٨١٤,٩

رقم الايداع ٢٠٠٢٤ / ٢٠١٠

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدمًا

• تصميم الغلاف : نادية شريف - كمال بهنساوي

المكتبة المصرية الحديث

www.almaktabalmasry.com

ت: ٢٣٩٣٤١٢٧

ت: ٤٨٤٦٦٠٢

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء

الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية

تقديم

هذه خواطر من القلب ، مجدولة بحب الوطن ، معنية
بهموم الناس فى بلادنا .
رجائى عطيه

من تراب (٤٠١) الطريق
ان تكونوا تالمون فانهم (*)
يالمون كما تالمون
وترجون من الله ما لا يرجون .

حين تلم النوازل وتجتمع الآلام ، من غدر وخيانة وجحود ونكران الأصدقاء ، كثيرًا ما يأتيني بغير استدعاء هتاف صامت منه لهذه الآية الكريمة : ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء ١٠٤] .. الصادق الأمين النزيه الكريم محتحن في هذه النوازل في شيمه وسجاياه ، وفي احتسابه وصبره ، ولكنه في رحلة معاناته لا يقطع رجاؤه في كفكفة الزمن وتطبيب الأيام وعناية الله التي تحيطه وترعاه . بينما الغادر الخائن لا يتذرع بصبر لأنه لا شيء يصبر عليه ، ولا يأمل في رجاء ، فقد فعل ما أراد ، وأتى ما أساغه لنفسه متسلحًا بحيل تبريرية وصفها علماء النفس بأنها حيل آلية دفاعية قوامها الكذب على النفس وافتعال الأسباب بهذا الكذب لتبرير ما تأباه النفوس السوية ! .. فإذا كان الغدر وكانت الخيانة والجحود والنكران ليست من السواء ، إلا أنه عزيز على الجانح أن يعترف على نفسه بهذا الانحراف ، فيختلق لجنوحها المعاذير والأسباب والتعللات ويدفع نفسه لتصديقها حتى يبعد شبح ما قارفه ، ويطمئن إلى ما هو فيه ، ويعطى ظهره لهاتف الأخلاق ونداء الضمير ، ويهضم ما هو فيه من قبح ودماة الغدر والخيانة ، ويستسيغ القبح ويستطعمه ، ويعود فيفرزه ؛ لأنه

يملاً كوامن نفسه ومجدول في سلوكه ، فلا يرى في عماء الضرير ما يراه الناس فيه ، ولا ما تنكره الأخلاق عليه ، ولكنه مهما غرق في التبريرات والتعلّات - لا يهنأ له بال ، ويشعر بينه وبين نفسه بالحزي الذي يسعى إلى مواراته بالتظاهر ، وبالعار الذي يمارى فيه ممارسة اليائس الذي يحس مهما أنكر ومارى وجادل نفسه أو غيره ، أنه ملتصق به لا يستطيع أن يتزع ثوبه عنه .. لا أمام نفسه ولا أمام الآخرين !

لا يمكن لمثل هذا أن يلجأ إلى شميلة أو سجية الصبر، فهي بعيدة عن تناول ما هو فيه ، ولا أن يأمل في رجاء لأنه غارق في حالة أطبقت عليه وقطعت بينه وبين الله ، وبين قيم الحق والجمال ، فلا يجد لنفسه أملاً ولا رجاءً يخرج به مما اختار بغدوره أن يهبط إليه !

هذه الصورة مشهودة متكررة في حياة الناس ، فمع وجود القيم والأخلاق وشيم الصدق والأمانة والوفاء ، وجدت وستظل توجد خصال الغدر والجحود والخيانة والنكران ، وهذا الواقع مهما كان فيه من مرارة إلا أنه واقع ماثل ، لا انتصر به غادر خائن جاحد ، ولا انسحق به مغدور به ، فألمه يتناقص ولا يزيد ، أو كما قيل : يولد كل شيء صغيراً ثم يكبر ، إلا النوازل فهي تولد كبيرة ثم تصغر وتتضاءل بمرور الزمن حتى تتلاشى .. بينما في المقابل ، لا تلاشى لأنه مناقض للحالة الغارقة في بئر الخيانة ، المستسيغة للقبح والدمامة ، المتوارية أو الراغبة في التوارى بسوء صنيعها عن عيون وسهام انتقادات الناس التي ترى ما يحاول مواراته ، وتدرك حقيقة ما يحاول الخداع فيه !! من شهور كتبت تلميحا لا تصريحاً ، عن خيانة وغدر زميل قابل ما قدم إليه بالجحود والنكران ، وقابل الوفاء والإخلاص ، بالغدر والخيانة .. ولكنه لم

ينعم في النهاية بغدرة ، ولا فاز بخيائته ، وخسر كل شيء وخسر معه احترام الناس ! لم يكن غريباً وهو غارق في الحالة ألا يرى ما فيها من قُبْح ، وأن يختلق لفعلته المعاذير والتعلّات ، ولكنه لا بد يدرك فيها بينه وبين نفسه أنه يراوغها ويكذب عليها ليتجمل أمام نفسه وأمام الناس !

حتى الندم ، هو الآخر نقطة فارقة ، لا يعرفها الغارق في بثر الغدر والخيانة ، فهو في سعيه لإساعة ما هو فيه ، يقاوم - بالتبرير الكاذب - الإقرار بالخطأ ، ويصادر الشعور بالندم ، مع أنه هو الذى يسمح جراح الخطيئة ، ويعيد النفس الجانحة إلى رشدها ، ويردها إلى الحق الذى هجرته وأنكرته ، فتغدو من ثم حالته حالة مستعصية لا شفاء منها !

يقال في الأمثال العامة : «يا بخت من بات مظلوم ولا بات ظالم» !! ظنى أن هذا التعبير هو استلهام بالسليقة والفطرة البسيطة للآية القرآنية الكريمة : ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء ١٠٤] .. وهو استلهام ينطوى بالفطرة على رؤية صادقة لواقع الحياة الذى يعطى الرجاء ولا يقطع الأمل فى انبلاج الصبح ووأد الباطل ودمغ الخطيئة بما تستحقه !

لا يوجد فى الدنيا بكل مغرياتها ما يقابل قيمة تصالح الإنسان مع نفسه .. لقد قال المسيح عليه السلام : «لن تربح شيئاً إذا كسبت كل شيء وخسرت نفسك» .. احترام النفس قيمة لا تعادلها كل المغام ، ولا يعوضها انطلاء حيل الخديعة على الناس ، فكل إنسان أدرى بنفسه ؛ لذلك قال العقاد : «إننى أحرص على احترامى لنفسى قبل أن أحرص على احترام الناس لى» .. هذه مقولة بالغة الحكمة ، لأن الناس قد تنخدع عن الواقع فينطلى عليها الكذب أو تتوهم

الصدق والنظافة ، بينما الواقع غير ما توهمته أو انطلى عليها .. هذا الواقع هو
الغناء الحقيقى الذى جعل العقاد يقول : « قيمتك فى نفسك » .. ولأن يقول
فى إحدى أثيراته : إذا أحبك الناس مخدوعين فلا تفرح ، وإذا كرهك الناس
مخدوعين فلا تحزن ، بعض الكرايات خير لك من بعض المحبات !!!

من تراب الطريق

هل بات الفقر وحده !^(*)

(٤٠٢)

هو السبب !!؟

ربما لو رجعنا للوراء إلى مائة عام مضت ، لوجدنا أن معظم حالات الانحراف والسقوط مرجعها إلى الفقر الذى عض البعض ودفعهم دفعا إلى «بيع الجسد» ونسيان الشرف أو تجاوزه ، وأن هذا الفقر الملعون لم تكن كل الإناث في مقاومته سواء ، فلم يستطعن التزام حكمة المثل : «تجوع الحرة ولا تأكل به...» .. ولا شك أن حواء كانت في هذا الزمان أسوأ حالا من الرجل في التعرض للفقر وويلاته وانعدام السبل أمامها لمقاومته .. فلم يكن المجتمع في ذلك الوقت قد أباح أو أتاح التعليم للإناث ، فضلا عما تواجهه الفقيرات من انعدام الوسيلة حتى إن وافق ذووها على تعليمها ووجدت المدرسة ، ولا كانت فرص العمل - سوى الضئيل جدًا - متاحة مهياة للإناث ، ناهيك بالأميات اللاتي لا يعرفن كتابة ولا قراءة ، فيما عدا خدمة البيوت التى كانت بابا للمخاطر التى تغتال الضعيفة الفقيرة خضوعا أو خنوعا أو صدوعا لرغبة الأسياد .. ولم يكن الكل يفعل كما فعل عمر الشريف من أوية إلى الحق في الدور الذى أداه في غرام الأسياد !

كان المجتمع أعمى ضريرا لا يرى أى هوان فرضه ويفرضه الفقر والجهل على بنات حواء ، وكيف كان هذا الفقر الملعون - مع انعدام الحيلة للتعلم والعمل - بابا جرف في طريقه كثرات لم يجدن الوسيلة أو القوة للمقاومة فسقطن في بثر لا أقول التجارة بالأجساد ، وإنما الأدق : «اللاقيات» بالأجساد !!

(*) المال ٢٠١٠ / ٢ / ٩

ولكن الزمان دار دورته ، وانعقدت حواء من حصار المجتمع الذى صادر
طويلاً على حقوقها ، وإن لم تنعقد كثيرات من لعنة الفقر ، وإن اتسعت
فرص العمل ، ولكن الغريب أنه اتسعت معها تطلعات لم تكن موجودة ،
وفتحت مجالات للشرة فى تكوين الثروات بذات السبيل الذى اضطرت إليه
فى السالف عضه الفقر والجوع .. وبتنا نرى بضاعة أتلغها الإغراق فى الهوى
وحُب المال ، ورجالاً ينفقون الملايين وعشرات الملايين إشباعاً لنزوات
غير مشروعة ، فانفتحت شهية كثيرات لتكوين ثروات طائلة من مغفلين
استغفلوا المجتمع وسرقوه ، ولكن ربك يمهل ولا يمهل ، فاستغفلتهم إناث
حصلت كل منهن على الملايين ثم طارت من العش الذهبى مثلها طار الهوى
ويأ الجراح !

ليس مرادى هنا أن أتبع حالات السقوط ، فهى متنوعة .. لاهى اقتصرت
على عضه الفقر والجوع ، ولا على النهم الشره للملايين ، بل هناك سقوط
يبدو وكأنه للسقوط ، أو لدفع المالة ، أو طلب المتعة ، أو الانتقام ، أو التعلق
بشباب ولى أو فى طريقه لأن يولى ، أو لتغير القلوب مع تراجع قيم الشرف
والإخلاص والوفاء والفضيلة !

ما استوقفى هو سرف أهل المال الذين جمعوا الملايين فى يسر وسهولة ،
فاستباحوا تبديدها بسهولة وفى غفلة غميط اللثام عن خيبة قوية لهم وللمجتمع
وآلياته .. مدهش حتى النخاع ، جمع الملايين فى لمحة عين ، ومدهش أكثر أن
تكون الملايين قد اجتمعت فى مشهد منظور غير خافٍ على الآليات المعنية
بالمراقبة والتتبع والضبط ، ومدهش أكثر وأكثر أن المجتمع يكاد يصفق
لأمثال هؤلاء طالما بقى لهم المال وبقي نفوذه وأثره وهيلمانه ، لا يعطيهم
المجتمع ظهره إلا إذا سقطوا !

تأملت طويلاً في قصة شغلنا بها صاحبها أو بطلها ، ولم يجد حرجاً في الخروج بها إلى الناس مصحوبة بما تخللها من مشاهد أفضل الفروض بالنسبة لها أنها تنم عن حمق وخيبة قوية لا مثيل لها .. ومع ذلك فهذا شأنه ، والمال الذى بدده بالملايين ماله بغض النظر عن كيف جمعه ، فهذا شأنه أيضاً .. ولكن الغريب الذى لم أفهمه هو تعيينه بقرار - من نحو عامين ، رئيساً لناذ من أكبر أندية الجماهيرية ، في محافظة ملانة برجال لديهم الخبرة والإمكانات والصلاحية والقدرة على تولى هذا الموقع الرفيع لخدمة النادى واللعبة الرياضية التى ملأ الآفاق بالتفوق فيها .. تساءلت ولا أزال ، ولا أقصد التجريح أو الإهانة ، ماهى الحثيات أو الأسباب التى استند إليها مُصدر أو مصدر قرار أو فرمان توليته رئاسة النادى ، والأغرب أنه ما إن رحل عن الموقع الذى فرض فيه ، حتى انتقى «القرار» شخصية أخرى لم تمض شهور على اختيارها وتوليها هذا الموقع الرفيع ، وتجاهل الانتخابات الطبيعية ، والخبرات والقدرات التى تملأ عين الشمس بالمحافظة .. لم تمض إلا شهور حتى قدم إلى نيابة أمن الدولة العليا فى جنائية رشوة لم ينج منها فى حكم المحكمة إلا باعتراف بأنه بالفعل قد قدم الرشوة - وهى جريمة - كما يقول الاتهام الذى أقيم ضده وثبت عليه ، ولم ينجح إلا الاعتراف الذى جعلته المادة ١٠٧ مكرراً عقوبات - مناصباً وسبباً للإعفاء من العقوبة ، وليس منح البراءة !! مرة ثانية ، ليس مرادى هنا أن أتوقف عند المادة ١٠٧ مكرراً عقوبات ، ولها أحياناً ويلاتها التى تطيح إلى غيابة الجب بأبرياء استساغ البعض الاعتراف الكاذب عليهم طلباً للأمان !! وإنما مرادى أن أتوقف عند آليات القرارات المصرية .. هل هى حقاً ، وفى جميع الأحوال ، تدرك قيمة وأهمية ومشروعية

وأمانة القرار ، وأنه لا بد أن يفرق بين «السلطة» وهى مجرد استعمال لما فى اليد والاختصاص ، وبين «الحق» الذى يجب التزامه بما يصدر من قرارات .. لو تتبعنا أحوالنا فى كثير من المواقع التنفيذية والاجتماعية والرياضية والنقابية ، لوجدنا أن القرارات تحولت إلى شبه «فرمانات» لا تلقى بالآ إلى الشرعية ، ولا إلى معايير وضوابط استعمال السلطة ، فى مجتمع صار يعانى من ويلات لا حصر لها ، تدعو كل صاحب قرار إلى مراعاة الله وصالح الوطن فى كل ما يأتيه أو يصدره أو يقعد عنه .. الحصاد المؤسف لهذا كله أن كثيرا من المواقع قد باتت مشغولة باختيارات فقدت البصيرة والفطنة ، وربما فقدت حسن النية ، ولا يدفع ثمنها إلا الشعب الذى أضناه ما يعانى به ، ويتنظر ولو بعض الإنصاف ، فهلا تقدمنا إليه ؟!

من تراب الطريق

هل المادة ٧٠١ مكررا عقوبات (*) هي دعوة للصدق ومساعدة العدالة أم هي باب للافتراء؟!

(١)

تعاقب المادة ١٠٧ مكررا عقوبات ، الراشى والوسيط في الرشوة ،
بالعقوبة المقررة للمرتشى ، ولكنها تعفيه من العقوبة - رغم إدانته ! إذا أخبر
السلطات بالجريمة أو اعترف بها !

ومع أن هدف المادة محاصرة الرشوة ، بتتبع المرتشين ، إلا أنها من حيث
لم تقصد فتحت أبوابا مخيفة لاعترافات كاذبة طلبا للنجاة من أثقال ومخاطر
التحقيق والاثام والمحاكمة .. فنجاة البرىء غير مضمونة في جميع الأحوال !
هذا الحكم الذى جاءت به المادة ، ينقل الراشى والوسيط من موقف
الاثام إلى موقف الشهادة على غيره ، وهى شهادة تعارض المنظومة الإلهية
والتشريعية التى احتاطت للعدالة من جنوح الشهادة وزور الشهود ..
فالدليل القولى هو أخطر ما يمكن أن يمس العدالة أو يدخل عليها الغش
لأن عماده الناس ، والناس قد خلقوا مختلفين فى خلقتهم ومداركهم وملكاتهم
ومشاعرهم وأحاسيسهم ومشاربهم وأغراضهم وآراءهم وضمايرهم وحزمة
ما فى نسيجهم الشخصى من صفات وما فى طباعهم من أخلاق تقترب أو
تبتعد عن الشئائى والخصال الحميدة بقدر ما فطر عليه آدمى وما تلقاه
بالتعليم والمحاكاة من تربية وتهذيب أو ما صادفه من مشاكل أو معضلات
أوقعته فى مطبات أو حفر أو وهاد نحرت من أخلاقه !

(*) المال ١٠ / ٢ / ٢٠١٠ .

والشاهد كما هو عون - إن صدق - للعدالة ، فإنه التحدى الأكبر والخطير لها .. هو همها المقلق لوجدان وضمير القاضى .. وهو هو قبلة أحكام وقواعد ومبادئ عديدة عنيت بها الشرائع السماوية لتضمن لبشهادة الشاهد أكبر - وأحوط - قدر ممكن من المصداقية والاستقامة والأمانة ..

خذ الإسلام مثلاً لعناية الشرائع السماوية بالشاهد والشهادة .. نراه يسلم بل ويلفت النظر إلى اختلاف وتغاير وربما تنافر معادن الشهود بين أقصى الصدق وأدنى الكذب والافتراء .. فالإنسان نفسه مفطور على الخير والشر .. لا هو خير محض ، ولا هو شر محض .. ففى القرآن المجيد : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ ﴾ [الشمس] ، وكما ذكر الإنسان فى القرآن بالثناء وبالحمد والتكريم : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ۖ ﴾ [الإسراء: ٧٠] .. ذكر أيضاً بالهجاء والذم .. ﴿ قُلِ الْإِنْسَانُ أَكْفَرُ ۚ ﴾ [عبس] بل ذكر بغاية الحمد وغاية الذم فى الآية الواحدة ، فقال تعالت حكمته : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۚ ﴾ ثم رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿ ٥ ﴾ [التين] .. الإنسان مفطور على الخير وعلى الشر .. والشهادة فى شريعة الإسلام ليست أى «إخبار» ، وإنما هى إخبار بصدق .. فيخرج من عدادها قول الزور !! لذلك يوصى القرآن المجيد باختيار الشهداء من معادن قويمه نفيسة ، ضماناً لاستقامة ما يلقونه وتتلقاه العدالة منهم .. ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ ۚ ﴾ [الطلاق: ٢] .

وهذه المنظومة الإلهية ، دعوة ربانية للعناية بالشاهد وبالشهادة ، لأنهما المدخل إلى الحق ، وإلى الباطل أيضاً .. لم تطلب الأديان من الشاهد الالتزام بالصدق وترغبه فيه وكفى ، ولا دعت الناس فقط إلى الاختصار فى الاستشهاد على ذوى العدل .. وإنما راعت رشاداً للناس ورشاداً للشاهد

ولشهادته ، أن تقيم ضوابط وشروطا للشاهد وللشهادة ، شروطاً بعضها ينصرف إلى تحمله أو أهليته أو صلاحيته للشهادة ، كشرط العقل والبلوغ والحرية وسلامة الخواس والدين والعدالة ، وبعضها ينصرف إلى أداء الشهادة وكيفيةها .. كحلف اليمين ، وصيغة الشهادة ، وموافقتها للواقع ، ومجلس القضاء وأركانه وتقاليده ضماناً لأمان الشاهد في رحابه حتى لا يشهد بغير الحق والصدق .. فى الحديث النبوى : «إذا ابتلى أحدكم بقضاء فلا يجلس أحد الخصمين مجلساً لا يجلسه صاحبه» .. ولا تسمح هذه القواعد بدخول عالم الشهادة إلا لمن احتاز شروطها ، وإلا فهو ممنوع منعاً صريحاً من أداء الشهادة ، ومنهى نهياً قاطعاً حاسماً عن الاستماع إليه .. الشهادة لا تقبل وإنما ترد بالتهمة ، وجماع أمرها فى حديث النبى ﷺ : «لا تقبل شهادة خائن ولا خائنة ولا زان ولا زانية ولا مجلود فى حد ولا خصم ولا مجرب عليه شهادة زور ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة» .. كان من حرص القضاء على الاحتياط للشهادة وضمان حيده الشاهد ، أن رفض القاضى شريح دعوى أمير المؤمنين على ابن أبى طالب ، وهو من هو ، التى خاصم فيها أعرابيا فى سيف طلحة التى أخذت غلواً يوم البصرة ، ورفض شهادة ابنه الحسن وهو حفيد النبى لأنه ظنين لقربته من على ، وشهادة غلامه قنبر ؛ لأنه ظنين فى ولائه لعلى ! وهذه العناية الإلهية ، كانت قبلة للقوانين الوضعية .. نجد أصداءها فى القانون المصرى ، وفى قضائنا أيضاً .. قدما معا للعدالة منظومة تتغيا العناية بالشاهد وبالشهادة ، والاحتياط فى ذات الوقت منه .. مخافة الكذب والزور والتزييف والانحراف !! الشاهد فى نظر القانون الوضعى هو الأمين العادل الذى يشهد بما رآه وسمعه بعد يمين يؤديها على الوجه الصحيح .. الاختيار

وحرية الإرادة وأمان النفس في أدائها شرط أساسى من شروط قبولها .. ومن شروط هذا القبول وضمانات الشهادة أن يؤدى الشاهد اليمين الذى أوجبه القانون حسب ديانته .. يجب على الشاهد أن يحلف اليمين بأنه يشهد بالحق ولا يقول إلا الحق ، هذا الاستحلاف هو من الضمانات الوضعية التى تعتمد على مكانة الدين في نفوس الناس لضمان أكبر قدر ممكن من أمانة وصدق الشهادة بتذكير الشاهد بالإله القائم في كل نفس وتحذيره من سخطه عليه إن هو قرر غير الحق .. بل وحرّم القانون الوضعى فئات بعينها ارتآها ليست أهلاً للثقة - من أداء الشهادة إلا على سبيل الاستدلال ، الذى لا يرقى إلى مستوى الدليل !



من
 تراب (٤٠٤) هي دعوة للصدق ومساعدة
 الطريق العدالة أم هي باب للاقتراء؟!

(٢)

الاحتياط للشهادة ومن الشاهد ، يكون أوجب وألزم وأحكم - حين يتحدث الشاهد من موقف ظنّي يحوطه بالاشتباه ويريب في دوافعه وأهدافه وأغراضه ومراميه .. لأنه محكوم في هذه الحالة بما يريد ويبغي ، وليس مدفوعاً بقيم الشهادة ولا بمبادئ الحق والإنصاف .. أظهر الأمثلة لهذا الحرج الشديد ، إنما تأتي من المادة ١٠٧ مكرراً من قانون العقوبات المصرى التى أعفت الراشى والوسيط من العقوبة إذا أخبر بالجريمة أو اعترف بها .. لا بأس في هذه الحالة ولا خوف حين يكون المرتشى قد ضبط متلبساً بقبض الرشوة .. فواقعة تلبس المرتشى تطمئن العدالة وتعطيها في الوقت نفسه مكنة الحكم السديد الصائب المتحوط على أقوال أى من الراشى أو الوسيط - إذا اعترف !

بيد أن المحاذير ، والمخاطر .. تأتي حين لا يكون هناك واقعة تلبس ، أو حين يكون الضبط مقصوراً على راش أو وسيط ، لا يجد أمامه سوى إلقاء أحماله ظلماً وعدواناً على آخرين ليفلت بإعفاء لا يستحقه !! هذا شخص متلبس بارتكاب جريمة يعاقب عليها القانون وانحرافه أو انزلاقه إليها دال بذاته على هبوط خامته ومعدنه وانحراف سلوكه ! وذلك يخرج ابتداءً من زمرة «ذوى العدل» الذين حض القرآن المجيد على أن يكون الاستشهاد من بينهم ضماناً للصدق ودرءاً للتزييف والغش والتدليس على العدالة .. الخطر

(*) المال ١١ / ٢ / ٢٠١٠ .

على العدالة من هذا المنحرف المقبوض عليه متلبسًا بعرض رشوة أو بواسطة فيها خطر حقيقى وهائل .. فقد يكون الوسيط «نصاباً» نصب على الراشى وزين له على خلاف الحقيقة والواقع أن ما يحصل عليه منه سوف يعطيه لموظف ما قد يكون بريئاً وخالى الذهن تماماً من «إتجار» هذا الوسيط به للاستيلاء على أموال الآخرين بالنصب والكذب والاحتيال .. وقد تكون رشوة الراشى غير مقبولة إذا تركت لسبيلها وعرضت على الموظف ، فيكون «العارض» عارضاً لرشوة لم تقبل منه ، وهذه جريمة بذاتها ، وليس راشياً قبلت رشوته فاعترف ويستحق الإعفاء !!

إن الموقف الذى ينطلق منه الراشى أو الوسيط المقبوض عليه - موقف ملتبس ، والاحتمالات فيه هائلة ، وأخطرها أن يميل به انحرافه المستفاد من جرمه - إلى الادعاء كذباً بأن المبلغ الذى ضبط به كان سيصل إلى مرتشئ !! فى بيان استيجاب «شرط» عدالة «الشهود» ، المأمور به فى القرآن المجيد ، قال أهل الفقه «إن من يرتكب غير الكذب من المحظورات يرتكب الكذب أيضاً ، ولذلك فإن : العدالة «شرط وجوب العمل بالشهادة» ، وعند أبى يوسف أن «العدالة» شرط للشهادة ، ومن المتفق عليه أنه لا يكتفى بظاهر العدالة بل يجب على القاضى أن يسأل وأن يستقصى حال الشهود ، وفى فتاوى ابن حجر ، والإشارات للمقدسى ، أن القاضى «لا ينفذ الحكم بالشهادة حتى يتبين له» عدالة «الشهود فى الظاهر والباطن» .. فلا عدالة «لصاحب معصية» ؛ لأن «المعصية» مسقطه للعدالة .

الوسيط والراشى ، هما فى أقل القليل من مقارفى المعاصى ، المجترئين على محارم القانون ، الفاقدين للعدل والاستقامة ، المردودة شهادتهم بحكم

الشرع ، يركب على ذلك ما هو قابض مسيطر على نفوسهم الضعيفة من رغبة محمومة فى الإفلات من العقاب الذى اشرأب لهم وصار نكبة محققة ودائية .. فهاذا يمكن أن ننتظر من أمثال هؤلاء ؟! .. هل تستيقظ فجأة المثل والمبادئ التى ماتت فى نفوسهم فيتحولون بغتة عن الإثم والانحراف ، إلى نشدان الحق والعدل ؟!!

هنا ممكن الخطورة البالغة !!

من الغفلة وقلة التبصر وانعدام الفطنة -الاندفاع فى مجارة أى من الوسيط وراشيه المتلبسين .. فقد يكون كاذبًا ، يملى عليه كذبه حرج موقفه والعقوبة المهددة له ، فتدفعه مآربه وأغراضه للإفلات بجريرته ، ولا تحركه قيم الحق والعدل والإنصاف .. هنالك يكون موقف السلطات المعنية بالعدالة موقفًا غاية فى الدقة والحرج .. فلا ينبغى - ولا هو من الحكمة - قبول هذا الاعتراف المشبوه على علاته .. إن حكمة الإعفاء لا تنطلق من مجرد «اعتراف» - أى اعتراف ، وإنما من اعتراف «صادق» يوافق الواقع ويطابقه .. وهذا هو المجال الحقيقى والخطير الذى يتعين الالتفات فيه إلى هذا كله، والتحوط من إغراءاته !!

إن المادة ١٠٧ مكرراً عقوبات ، ليست بابًا لطلب النجاة بالافتراء وتلطيح الأبرياء بغير حق ، وكثيرًا ما تدل الشواهد والأقضية ، على وقوع عدد من ضعاف النفوس فى حماة هذا الجرم البشع ، فتزين لهم أنفسهم ، وقد يزين لهم غيرهم ؟!! أن يعترفوا اعترافًا يسارعون إليه نجاةً لأنفسهم ودون مبالاة بأنه يظلم آخرين بغير حق .. مثل هذه النوعية من الناس ، نوعية هابطة ، قيمها متفككة منحلّة ، وأخلاقياتها معيبة ، وهى تتقيأ ما تتقيأ به متخففة أيضًا من

حلف اليمين لأن القانون يعفيهم بل لا يجيز تحليفهم اليمين ماداموا متهمين سواء بالإرشاء أو بالوساطة .. بينما هذا القَسَم هو آخر «معامل» الاحتياط للشهادة من تغول المتغولين ومفتريات وأكاذيب وادعاءات الكاذبين المدفوعين بمأرب الإفلات من مغبة وعقاب الجرم المتهمين بارتكابه !!

الخطر هنا ليس الناجم فقط من المنحرف ومآربه ومراميه للإفلات من جريرته ، وإنما هو خطر قد يلبس رجل الضبط حين يتصور أنه بهذا الاعتراف يقوى أو يولد الدليل الذى يتيح له الإمساك بمن يتعقبه .

موقف سلطات الضبطية .. أو بعض رجال الضبط ، من المادة ١٠٧ مكرراً عقوبات ، وما تفتحه من إغراءات الحُض أو التشجيع على الاعتراف وربما تزيينه للمتهم أو المتهمين بالإرشاء أو الوساطة بتعلة ملاحقة المرتشى أو من يُظن أنه مرتشٍ .. هذا الموقف يجرد العدالة من «سياج» الاحتياطات التى تحصنت بها لحماية الحقيقة من أكاذيب المتقولين ! أخطر الانزلاقات إنما تأتى من باب حسن النوايا .. الطريق إلى جهنم قد يكون مفروشاً بالورود والمغريات .. علينا أن ندرك أن المادة ١٠٧ كما هى جسر لتعقب المرتشى الحقيقى تبعاً يتيح إقامة الحجة والبرهان والدليل عليه من خلال اعتراف الراشى أو الوسيط ، فإنها تفتح أيضاً باباً مخيفاً لتضليل العدالة والتدليس عليها بكذب هذا أو ذاك بالافتئات - ربما على برىء !! - خلاصاً من وطأة الاتهام وضماناً لنجاة محققة ، فتقع المظالم على الأبرياء !!

من تراب الطريق

الدكتور أبو المجد (*)
(٤٠٥)
لماذا هذا الإقصاء الغريب؟!

كل من الحكم والقرار ، ممارسة لسلطة : سلطة الحكم ، وسلطة القرار .. ولا يتصور القانون لممارسة أى سلطة ، أن تكون بلا ضوابط ، وهو وإن كان قد ألزم بإعلان حيثيات إصدار الأحكام ، وجعلها عنوان ومقياس صحة أو بطلان أو فساد الحكم ، فإنه لم يعتق القرار من الالتزام بأسباب ، هى وإن لم تكن معلنة إلزاما فى كل الأحوال ، إلا أنه لا بد من أن تكون سند وتكئة القرار ، وواجب الإفصاح عنها وبيانها إذا طعن على القرار بعدم المشروعية أو البطلان أو عيب إساءة استعمال السلطة !

هذه خواطر عامة طفت بإلحاح مع التعديلات الأخيرة التى جرت على المجلس القومى لحقوق الإنسان ، والتى فجرت قبلة من العيار الثقيل جدًا بخروج الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبوالمجد ، نائب رئيس المجلس ، والذى حمل عبء رئاسته لغياب رئيسه جل الوقت فى باريس ، وعبء مهامه وإدارته وعمله ، ومثّل على مدار السنوات الماضية ركن الأساس فى هذا المجلس الذى طفق مع الوقت يقوم بدور ملحوظ ، ويبشر بنمو أكبر ، بدا على الساحة أنه كان هو السبب فى إخراج الدكتور أبوالمجد بهذه الطريقة الغريبة والتى بدت صادمة للرأى العام الذى لا يزال يأمل خيرًا فى تحسن الأحوال فى بر مصر!

(*) المال ٢٠١٠/٢/١٥ .

لم تأت هذه الصدمة من كل من صُمِّوا إلى المجلس ، فمنهم صديق العمر ، الكاتب الصحفى القدير ، نقيب الصحفيين : الأستاذ مكرم محمد أحمد ، وهو ولا شك إضافة إلى المجلس ، ومنهم زميل الدفعة بسنوات الدراسة الأربع بحقوق القاهرة ، المستشار مقبل شاكر الرئيس السابق لمحكمة النقض ومجلس القضاء الأعلى .. بيد أن هناك اختيارات محل نظر كبير ، دعت البعض لاستقبال التغييرات بقدر هائل من التشاؤم على مصير المجلس والمراد له ومنه فى الفترة القادمة !

من الصعب جداً هضم إخراج الدكتور أبوالمجد من المجلس ، ناهيك عن إخراجه بهذه الطريقة . لا أخفى أننى كنت أتابع بغير قليل من التوجس مقالات وتعليقات لبعض كتبة الحكومة لا تحتاج لجهد كبير لتبين أنها تتجرش وتتطاول أحيانا على هذه القامة العالية الأصلية ، وأن ما اعتدناه من هذه الأقلام يورى بأنها تقرأ تحولات وراء الكواليس أو لعلها قد تلقت الضوء الأخضر . فبعضها قد تجاوز كل آداب النقد ، وبدأت فى صورة فرق الكاراتيه التى انقضت تنهش فى الأستاذ العالم الجليل لمجرد أنه صاحب رأى ، ولا يجد ضيراً على النظام - وقد أفصح عن هذا فى بعض مقالاته - من أن يكون له هامش من الاختلاف لا ينبغى للنظام أن يضيق به ، بل إن هذا من علامات الصحة فى الأنظمة حين يجرى بداخلها حوار فاعل يحمل رؤى ومنظورات وآراء تثرى فى النهاية رؤية وأداء النظام .. لقد بدا لكل متابع لعمل المجلس القومى لحقوق الإنسان فى السنوات الماضية ، أن عموده هو الدكتور أبوالمجد ، وتردد غير مرة أن النظام بسبيله إلى ترجمة أوضاع المجلس إلى الواقع بتوليته رئاسة المجلس ، الجدير بها ، لسن وغياب الأستاذ الدكتور

بطرس غالى طوال الوقت تقريباً بخارج البلاد، واضطلاع النائب وحده بكل العمل، ومن هنا كان قدر المفاجأة الصادمة التى طوى عليها إخراج هذه القامة القديرة من المجلس الذى نهض على أكتافها وعلمها وخبراتها وصدق أدائها وإخلاص توجهها للصالح العام.

خروج هذا القرار من مجلس الشورى، أو لجنته العامة، لا يعنى أنه بعيد عن رغبة وتوجه وإرادة الحكومة.. وواجب الحكومة يفرض عليها أن تنشر للشعب أسباب أو حيثيات إخراج الدكتور أحمد كمال أبو المجد من موقعه الذى كان فى الواقع على قمة المجلس الذى قدم فى السنوات الماضية تقارير جديرة بكثير من الاحترام، مثلما يفرض عليها أن تفسر بعض الاختيارات التى تباعد ابتعاداً كبيراً عن المعايير المتفق عليها لرعاية حقوق الإنسان. فهى رعاية غير منتظرة وغير متوقعة - بل المتوقع نقيضها - ممن أمضوا أعمارهم السابقة فى مجاهدات مضادة لحقوق الإنسان، الأمر الذى يعطى مؤشراً سلبياً كثرت بشأنه التأويلات والكتابات التى حمل بعضها عنوان: «إكرام الميت دفنه»!

إننى أعرف الأستاذ أبو المجد معرفة شخصية قوية، وشرفت عمراً طويلاً بزمالته فى المحاماة، وفى عضوية مجمع البحوث الإسلامية، فضلاً عن صادق أخوته ومودته، وألمت بأستاذيته المتمكنة، وعلمه الواسع الغزير، وامتلاكه لنواصى كثير من العلوم والمعارف التى يعز امتلاكها، إلا على القلة النادرة المتميزة.. ولا أخفى أننى مصدوم حتى النخاع من إخراجها، ودعك من الأسلوب، من المجلس القومى لحقوق الإنسان. فهل النظام ماضٍ بالفعل - كما يقال! - فى التخلص تباعاً من العقلاء الذين كانوا إضافةً حقيقيةً له؟!!

إن الأستاذ الدكتور أبوالمجد لن يخسر كثيرًا أو قليلًا - فيما عدا الأذى النفسى - من إخراجه بهذا المشهد الصادم ، فلديه عدة عروش مكينة سيملاً فيها وبها حياته وحياة الوطن والناس من حوله ، فهو العالم الأستاذ المخرج لأجيال بكليات الحقوق وعمود ضخمة من أعمدة المعهد الذى نخرجنا فيه : كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وهو المحامى الضليع الذى أضاف إلى المحاماة إضافات مهمة فى مجاله جديرة بالعرفان والتقدير ، ولا تزال المحاماة والقضاء ينتظران منه الكثير ، وهو العالم والمفكر الإسلامى : وأستاذ القانون العام ، صاحب المقالات المتميزة التى إن ضاقت بها صحف ، فستفتح أماء أبواب عشرات الصحف ، وهو متحدث لا يكاد يكون له نظير ، يمتلك الحضور والبلاغة ونواصى الكلم وفنون الإلقاء ، وقد سعدت بزماله الحديث معه غير مرة فى البرنامج الشهير : «على الهواء» - إبان أن كان يقدمه الأستاذ عماد أديب ، فكان كالعهد به دائماً حاضراً متمكناً فياضاً فى سلاسة تعبر عما ينطوى عليه من علم غزير .

الخاسر الحقيقى هو المجلس القومى لحقوق الإنسان ، الذى فقد قامته وعطاء هذه القامة العالية ، والخاسر الأكبر هو النظام الذى بدا على الساحة أنه طارد - بلا أى حساب ! - للعقلاء والقدرات المتميزة التى لا يختلف عليها أحد .. فى سوابق ماضية لم يقبل النظام فطرده من بين جوانحه من ضاق بنسبة اختلاف معه لم تجاوز ١٠ أو ١٥ ٪ ، فانفتحت لهم صحف لم تعد المعارضة فيها محدودة بأى نسبة أو سقف !!!

من تراب الطريق

(٤٠٦) الزواج أو المواطنة (*)

كان ظن الناس ، من كثرة حديث البعض عن المواطنة ، والإلحاح به ، مجدولا لدى البعض بوجوب إلغاء المادة الثانية من الدستور المصرى ، وإسراف البعض لوصف الأمر على أنه مواجهة بين الإسلام والمسيحية .. كان ظن الناس أن الإسلام قد بات هو العقبة ، وأن الحلول وزوال الحساسيات والاحتقانات سوف يجيء بمجرد أن تخلع الدولة المصرية رداءها الإسلامى ، فتلغى خانة الديانة - احتراماً للمواطنة - من بطاقة الرقم القومى .

لم يعرف معظم الناس فى غمرة هذا الحماس المشتعل ، أن قضية الأحوال الشخصية أبعادها أعرض كثيراً عما تصوروا أنه مقصور فقط على الزواج المتبادل بين المسلمين والمسيحيين ، حتى تسبب خبر نُشر بطريق الخطأ عن إباحة الكنيسة الأرثوذكسية زواج أتباعها من الكاثوليك ، ثم نفى الكنيسة الأرثوذكسية لهذا الخبر - تسبب فى لفت انتباه الرأى العام إلى أن مشكلة الزواج غير مقصورة على الزواج المتبادل بين المسلمين والمسيحيين ، وإنما هى ممتدة وبحسابات معقدة لزواج المسيحيين بالمسيحيين عقد اختلاف الملة ! حملت صحف الخميس ١١ / ٢ / ٢٠١٠ - مانشيتات بالصفحة الأولى للنفى والتكذيب الذى بادرت به الكنيسة الأرثوذكسية - لتكذيب سماعها لأتباعها - رجالاً ونساء - بالزواج من أبناء الطائفة الكاثوليكية .

(*) المال ١٦ / ٢ / ٢٠١٠ .

ونشرت أكثر من صحيفة ، نفى البابا شنودة الثالث - بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية - أنه سمح لأول مرة بالزواج بين أتباع الكنيسة الأرثوذكسية وأتباع الكنيسة الكاثوليكية ، حسبما أكد أسقف بارز في المجمع المقدس وأحد المقربين من البابا ، مؤكدا أنه ليس صحيحا أن البابا أصدر قرارا يتعلق بالزواج بالكاثوليك دون إعادة عمادهم أو إعلانهم الانضمام إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، بينما كان النائب الباباوى للكنيسة الكاثوليكية : الأنبا بطرس فهميم - قد بادر بإعلان ترحيبه فور نشر الخبر ، وقبل أن تكذبه الكنيسة الأرثوذكسية ، وتوضح في التكذيب أن ما كان قد أعلنه الأنبا بولا أسقف طنطا رئيس المجلس الإكليريكي للأحوال الشخصية وتم نشره في القناة الرسمية للكنيسة «سى تى فى» - ليس صحيحا ، فهو لم يصرح للقناة بأن البابا وافق على زواج الأرثوذكس من الكاثوليك ، بل كان يتحدث عن الزواج من السريان الأرثوذكس والأرمن الأرثوذكس ، وهو أمر تقليدى ، ولا تغيير من ثم في قواعد الزواج .

وكشف المتحدث الكنسى الذى طلب عدم ذكر اسمه ، أن هناك اتفاقية تبادل اعتراف بالزواج والتناول مع الروم الأرثوذكس عمرها أكثر من ثمانى سنوات ، أما مسألة الزواج من الكاثوليك فهي - فيما أبدى - مسألة معقدة لا يمكن التعامل معها بهذه السهولة ، فى الوقت الذى نشرت صحف الجمعة ٢/١٢ أن البابا شنودة الثالث أكد خلال عظته الأسبوعية رفضه زواج الأرثوذكس بالكاثوليك .. قائلا : «يجب أن يكون الزواج بين شخصين متحدى الملة ، وإن اختلفت الملة فإن القضاء المصرى يطبق عليهما الشريعة الإسلامية» .

وفي ذات الشأن قال القمص صليب متى ساويرس فيما نشرت إحدى الصحف - وهو عضو المجلس الملى وكاهن كنيسة الجيوشى بشبرا - قال إن زواج أتباع الكنيسة الأرثوذكسية من الكاثوليك أو غيرهم خاضع لنفس الشروط المعمول بها منذ سنوات طويلة ، ولم يعقد المجمع المقدس للكنيسة الأرثوذكسية أى اتفاقيات مع أى كنيسة لتنظيم هذا الأمر ، وأن المعمول به حالياً أن من يريد الزواج من الكاثوليك بأحد أتباع الطائفة الأرثوذكسية - عليه أن يتقدم بطلب انضمام إلى الكنيسة الأرثوذكسية حيث تتم مراسم زواج «أرثوذكسية» طبقاً للوضع القائم منذ قديم الأزل ، بينما عاد الأنبا بطرس فهيم النائب البابوى للكنيسة الكاثوليكية فصرح بأنه لم يتم بالفعل اتفاق مع الكنيسة الأرثوذكسية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ، وأن الوضع لا يزال كما هو عليه : إما أن يتحول الرجل أو المرأة الطالب للزواج للطائفة الأرثوذكسية ، أو أن يتحول أى منهما للطائفة الكاثوليكية - ليكون عقد الزواج صحيحاً ، مستطرداً - فيما نشرته روز اليوسف اليومية - إلى أن فكرة «إعادة العمد» فى حال الزواج ، ضد الطقس الكنسى .

إذن فليس الإسلام هو الحائل أو العقبة ، فمن المعلوم أن الإسلام يصرح للمسلم بالزواج من الكتابية - مسيحية كانت أو يهودية ، وأن تبقى على دينها ، وفي القرآن الحكيم : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [المائدة:٥].. ولا يمانع الموثق المسلم فى عقد هذا الزواج بين المسلم وبين

المسيحية أو اليهودية .. وقد قرأت من أيام مقالا للكاتبة المعروفة الأستاذة فريدة الشوباشي ، عرفت منه لأول مرة أنها كانت مسيحية حين تزوجت من صديق التلمذة الراحل المرحوم على الشوباشي ، وظلت لعدة سنوات على مسيحيتها قبل أن تسلم بمطلق اختيارها واقتناعها ، دون أن تبالي - في السنوات الصعبة - أو يبالي المرحوم زوجها الذي تحمل لقبه ، بأصوات المعارضين أو المتحفظين أو الناقمين من هنا أو هناك ، مؤمنة وزوجها ، أنها يستطيعان الزواج رغم اختلاف الديانة ، وقد فعلا دون أن تشيها بيانات البطاقة !

وعلى النقيض قرأت في إحدى صحف ذات الخميس ١١ / ٢ - أن وزير الهجرة الفرنسي اريك بيسون ، الذي يعيش مع طالبة جامعية تونسية ، نفى عزمه اعتناق الإسلام للزواج منها ، ولكنه في نفه انتقى ألفاظه بعناية ، فقال فيما نقلته الصحيفة : «أنا متأسف لأنني أجد نفسي مضطرا لنفي عزمي على اعتناق ديانة أخرى أكن لها الاحترام ، أنا متمسك جدا بالطابع العلماني لجمهوريتنا» .

ومع ذلك فإن هذا الطابع العلماني تراجع في فرنسا في مسألة الحجاب والنقاب ، وفي سويسرا التي حرمت إقامة المآذن على المساجد الإسلامية !

ظنني أن التسامح الديني مسألة ثقافة وتحرر فكري ، لن توقفه بطاقات ، ولا بيانات ، ولا تعصب أو تشنج المتطرفين من هنا أو هناك .. حين تفتح النوافذ ، ويتحرر الناس ، وتستنير العقول ، فإن «المواطنة» - وهي واقع - سوف تصير مستقرة في أخلاق الناس ، مسلمين ومسيحيين ، لن يعوقها قيد ، لتمضي سفينة الحياة بلا قلاقل ، ولا احتقانات ، ولا حساسيات بين جميع بنى الإنسان !

من تراب الطريق

احتفالات السادة المحافظين (٤٠٧) بلاعبي كرة القدم! (*)

انفجرت في أعقاب احتفالات الدولة بالمنتخب المصرى لكرة القدم ،
احتفاليات المحافظات باللاعبين الذين يتمون بأصولهم إلى المحافظة ، أو
يلعبون في أحد النوادي الموجودة بها ..

تسابت المحافظات ، في إقامة الاحتفاليات الضخمة ، مقرونة بصور
الأحضان والقبلات للاعبين في محافظات الغربية والمنوفية والاسماعيلية
والقليوبية وغيرها ، مقرونة بتوزيع الدروع والهدايا وشهادات التقدير ،
وإلقاء الخطب والأشعار ، والأغاني والطلل والزمزم والزغاريد وعروض
فرق الفنون الشعبية ، ومعها الألقاب المسبغة على اللاعبين ، في حضور كافة
القيادات التنفيذية والشعبية والمحلية بالمحافظة ، مع التذكير بالدعم الذى
تلقيه المنتخب من كبار المسئولين فردًا فردًا ، والإشادة بالدور العظيم لهذا
الدعم الذى تضافر مع بطولة المغاوير في تحقيق البطولة !

لا بأس ، وإن كان يوجد بأس ، من استعارة الإدارة المصرية جانباً من
اللحظة للظهور في الكادر والاستفادة سياسياً من البطولة الأفريقية ، ولكن
الذى لم أفهمه أن بعض المحافظين ، ومنهم محافظ الغربية ومحافظ المنوفية ،
قد مدا التكريم إلى الوعد الجازم الناجز بإطلاق أسماء اللاعبين على الشوارع
الرئيسية بالمحافظة ، ووعد محافظ المنوفية وهو يقبل حارس مرمى احتياطياً

لم يلعب مباراة واحدة كاملة ، لمجرد أنه من كفر ربيع مركز تلا ، بأنه سيطلق اسمه على أحد الشوارع الرئيسية بمدينة تلا !!

كتبت ثلاث مرات عن وجوب إطلاق اسم الزعيم الكبير الراحل مصطفى النحاس على شارع قصر النيل بوسط القاهرة ، وهو الآن اسم على غير مسمى .. وبوسط القاهرة شوارع مسماة بأسماء قامات ثقل كثيرا عن قامة مصطفى النحاس ، فلم يتحرك أحد . في الوقت الذي اعترض فيه البعض على إطلاق اسم هذا الزعيم الكبير على ميدان بالسويس صار بلا اسم !!

أعود إلى تلا ؛ لأننى بها خير ، فأنا من أبناء المركز ، ومن خريجي المساعى المشكورة الثانوية بشبين الكوم ، والذى رحمه الله أحد مؤسسيها ضمن باقة من كبار أبناء المحافظة على رأسهم الراحل الكبير عبد العزيز باشا فهمى .. وللآن لم أعر على شارع رئيسى بشبين الكوم باسم هذا العظيم صاحب الفضل الأكبر فى انتشار التعليم فى محافظة المنوفية .. ومركز تلا من المراكز الولادة التى حفلت بأسماء كبيرة وقامات عالية لم نسمع بأن السيد محافظ المنوفية أو سابقه قد التفتوا إلى إطلاق أسمائهم على شوارع رئيسية - أو حتى غير رئيسية - بمدينة تلا : عبد السلام فهمى جمعة باشا رئيس مجلس النواب مرتين (عام ١٩٤٢ ، ثم من مارس ١٩٥٠ إلى مارس ١٩٥٢) وسكرتير حزب الوفد فى عصره الذهبى ، وحامل عدة حقائب وزارية فى وزارات مختلفة ، ونجله المناضل الكبير الدكتور عزيز بك فهمى المحامى ، وصاحب الدور الكبير فى الحركة الوطنية . ومن أبناء مركز قويسنا ، الدكتور محمود فوزى ممثل مصر الدائم لسنوات طويلة فى الأمم المتحدة ، ووزير الخارجية لسنوات طويلة ، قبل أن يتولى رئاسة الوزارة ثم نائبا لرئيس الجمهورية ،

ومع ذلك لم يطلق اسمه على أحد الشوارع الرئيسية أو غير الرئيسية بعاصمة المحافظة التى ينتمى إليها ، ومنهم الأستاذ الدكتور محمد ليبب شقير ابن منوف ورئيس مجلس الأمة لعدة دورات .

أعود إلى مركز تلا ، وإلى بعض باقى حبات العقد الفريد الذى كان منه عبد السلام فهمى جمعة باشا ونجله الدكتور عزيز بك فهمى ، لنجد أحمد باشا عبد الغفار أشهر وزير زراعة فى التاريخ المصرى قبل ١٩٥٢ ، ومحمود بك عبد الغفار ، والأستاذ عطية عبده القطب السعدى الكبير ونقيب محامى المنوفية لربع قرن فى الزمن الجميل ، والأستاذ عبد الرحمن أبو النصر القطب السعدى والمحامى الكبير ، والأستاذ الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى ، ونجد المنزل الذى كان يقيم فيه توفيق الحكيم عام ١٩٢٦ وكتب فيه فصول كتابه الشهير : يوميات نائب فى الأرياف ، وذاكرت لدبلوم الدراسات العليا فى هذه الشقة مع الأستاذ الكبير رشاد الشبشيرى المحامى ابن تلا الذى غادرنا وهو أكثر وأعرض ما يكون عطاءً للمحاماة ، والذى كان فى مقدمة الخريجين بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - وحالت معاناته من لغط فى القلب دون تعيينه بالنيابة العامة طبقاً لأولويته فى التخرج ، ولم يفكر السيد المحافظ ولا أحد من السابقين فى إطلاق اسم توفيق الحكيم على الشارع الذى كان يقيم فيه - بمحاذاة السكة الحديد ، فى مدينة تلا ، ولا اسم أحد من القامات العالية التى عمر بها المركز والمدينة ، ومنهم اللواء أركان حرب دكتور مهندس كمال نصار وزير الإنتاج الحربى الأسبق ، والإذاعى الشهير الكاتب المبدع رئيس صوت العرب الأسبق : سعد زغلول نصار ، والأستاذ الدكتور هاشم نصار رئيس جامعة الإسكندرية

الأسبق ، والدكتور محمود جامع رئيس مستشفى المواساة بالغربية الذى خدم من موقعه كل أبناء المنوفية بعامة وأبناء مركز تلا بخاصة ، والأستاذ الدكتور الفقيه الدستورى يحيى الجمل ابن عمروس ، وقامات أخرى كثيرة لا يتسع لذكرها المجال .

شئء مؤسف حتى النخاع ، أن تنصرف الإدارة المصرية ، وينصرف السادة المحافظون ، عن تكريم القامات المصرية العالية ، على مستوى مصر ، وفى محافظاتنا ، الذين نبغوا وأدوا أدوارا خالدة فى الوطنية والعلم والثقافة والتعليم ، ومع ذلك نهينهم مرة أخرى - بعد إهانة الإغفال والنسيان ! لنعطى وعدا جازما منجزا بإطلاق اسم حارس مرمى احتياطى لم يلعب مباراة واحدة كاملة - على أحد الشوارع الرئيسية بمدينة تلا ، ووعودا بإطلاق أسماء لاعبين على الشوارع بالمدن الرئيسية بمحافظات الغربية وغيرها !! لماذا صارت «البوصلة» فى أيدينا ضريرة عمياء لا ترى ولا تزن كل شئء بميزانه !!؟

من تراب الطريق

بيع القاصرات للزواج وجنسية مصر! (*)

(٤٠٨)

أعادتنى الأنباء المتفجرة ، والتحقيقات الصحفية الواسعة ، وتحقيقات النيابة العامة ، عن بيع القاصرات المصريات - في سوق النخاسة - للعواجيز الأثرياء طلاب الصبايا والأبكار ، القادمين بأموالهم من بلاد البترول خصيصا لشراء الفتيات المصريات القاصرات ، وفي مشهد مؤسف تُروى عنه الحكايات والأفاسيص ، فتروى وسيطة - كما نقلت صحيفة المصرى اليوم فى تحقيقها على صفحتين بعدد الخميس ٢٠١٠/٢/١١ - تروى تفاصيل الجلسات السرية لـ «بيع» الصغيرات لعواجيز الخليج ، وأن المعاينة بـ ٥٠٠ دولار ، وسعر الزوجة يقل كلما زاد عدد زيجاتها ، أما الأبكار فهن الأكثر طلبًا ؛ لأن العجوز يحلو له إرضاء لفحولته التى ولت أن يفض بنفسه البكارة ما دام يدفع الثمن من ماله !

يروى التحقيق الصحفى أقاصيص وسطاء يعتدون جنسيا على الفتيات ، بهدف «التجريب» قبل الأزواج العرب ، ويروى محامون ويؤكدون أن السماسرة عاطلون من خريجي «الحقوق» الذين لم يجدوا عملاً فارتدوا على بنات الوطن لاتخاذهن تجارة لمن يشتري بـ ثمن أكبر .. والصفقات تتم داخل «دكاكين» و«أكشاك» .. ويروى الأستاذ محمد عبد الله الذكر ، المتخصص فى الأحوال الشخصية ، وابن الأستاذ الكبير المرحوم عبد الله الذكر شيخ المحامين فى

(*) المال ٢٠١٠/٢/١٨ .

قضايا الأحوال الشخصية - يروى أن هناك قرى تعيش على ظاهرة تزويج القاصرات بأثرياء عرب ، حتى إن إحدى تلك القرى أطلق عليها سكانها : «السعودية» ، لأن معظم المشتريين من هناك ، مؤكداً أن هذه الظاهرة ليست جديدة ، ولكن ذاكرتنا هي الضعيفة ، فالسيناريو المعروف يبدأ من سائق من سكان إحدى القرى يذهب إلى المطار ، ويلتقى العرب القادمين لتوهم من الخارج ، ويبدأ في عرض الصفقة عليه ، فإذا قبل ، يأخذه إلى قريته ليعرض عليه الفتيات القاصرات حيث يتم استكمال الإجراءات لمن يقع عليها الاختيار ، وتتم الصفقات في الغالب بعقود عرفية ، تعنى في الواقع أنها دعاية مقنعة ؛ لأن شرط ديمومة النية في الزواج معدوم ، وما العقد العرفي إلا ستار لاغتيال الفتاة الصغيرة تحت مظلة القانون ، أو عند الضرورة - لدى مأذون باع ضميره وقبل شهادات صورية لعقد أو مزورة قران صغيرة لا يجوز تزويجها !

الزيجات العرفية لا تمتد أكثر من ١٠ - ١٥ يوماً ، يقضى فيها الشيخ العجوز غرضه ، ويترك الصغيرة إلى مصيرها ، وهي هي وإن طالت المدة نوعاً ، حال من يضطر إلى العقد عليها ، فكلتاها تترك لمصيرها بعد أن نفى العجوز الشارى يده من الصفقة ، وكرّ عائداً إلى بلاده بعد أن أشفى غلمته وحقق مراده ، وعلى الصغيرة - إذا حملت ! أن تخوض معركة لإثبات نسب طفلها بما استحدثه القانون رقم (١) لسنة ٢٠٠٠ لمعالجة هذه الكوارث !

قلت لك في أول هذا العمود عبارة «أعادتنى الأنبياء المتفجرة» ، ولم أقل لك إلى ماذا أعادتنى ، فقد طالت الجملة الاعتراضية حتى انقطع حبل الحديث ، ولكنى قصدت هذا لأثير أشواقك إلى إجابة تركتها معلقة للفت انتباهك !

أعادتني هذه الأنباء إلى مناقشة قانون الجنسية ٢٠٠٤/١٥٤ في مجلس الشورى ، فقد اعترضت بكل ما وسعنى الاعتراض وملاً عدة صفحات من مضبطة جلسة ٢٦/٦/٢٠٠٤ ، اعترضت وبشدة على منح الجنسية المصرية لمن يولد لأم مصرية . وقلت فيما قلت إننى أصدر فى هذا الاعتراض عن انحياز للمرأة وليس ضدها ، فالمرأة هى أمى وأختى وزوجتى وابنتى وحفيدتى ، والانحياز لها هنا هو لحمايتها من سوق النخاسة الذى لم يكن قد وصل وقتها إلى هذه المعدلات الخطيرة .. وصرحت بما صادفنى بإحدى مناطق حلوان ، فى قضية لمأذون شقيق لوزير سابق - درج على عقد زيجات لقاصرات بشهادة تسنين مصطنعة ، وأخرى مزورة ، للأثرياء العرب القادمين لشراء الصبايا المصريات .. وقلت إن القادم ما يكاد يشفى غلمته ، ويقضى مراده ، إلا وينفض يده من الصغيرة ويتركها ومن عساه فى رحمها لمصيرهما ، وأن منح الجنسية المصرية لمولود الأم ، معناه أننا نقضى على البقية الباقية التى كان يمكن أن تدعو الآباء للتفكر قبل بيع بناتهن بالثمن لطلابى الشراء فى سوق النخاسة الآدمية .. فأغراء المال ، مع شدة وحاجة الفقر ، يدفع أمثال هذه الأسر إلى هذه البيوع التى تغتال فيها براءة بل وأعراض الفتيات الصغيرات ، ويررر الآباء هذه الجريمة لأنفسهم بأن العلاقة زواج شرعى ، موثق أو عرقى ، وأنه لا بأس إذن ولا مخالفة للشرع والدين !!

الشيء الباقى لإيقاظ هؤلاء السذج من غفلتهم ، أن يدركوا خطورة المشكلة التى يتركها لهم الشارى الهارب ، المتمثلة فيما أنجبه وطار ، وأنها مشكلة خطيرة عسيرة الحل ، تتفاقم مع الأيام إزاء الجنسية التى لم تكن تعطى إلا برابطة الدم ، وهى السياسة المتبعة فى كل الدول التى تعانى من انفجار

سكاني وزيادة في أعداد المواليد عن قدرة المجتمع على الاستيعاب في الطعام-
والشراب والصحة والتعليم وباقي الخدمات ، بينما نترك الأب المستول عن
جنسية وليده متخففا من كل أعبائه ومسئوليته !

قلت يومها إن المصالح العليا للبلاد تعلو الدساتير ؛ لأنه على أساسها تتم
صياغة الدساتير بما يناسب كفالة هذه المصالح العليا ، وأنه في هذا الإطار
تختلف السياسة العليا والدساتير في دول العالم تبعاً لهذه المصالح المستمدة من
نسبة سكانها .. وأنه من سوء السياسة وعماء التقدير ، أن نفتح باب الجنسية
لكل مولود لأم مصرية بينما نعاني من الانفجار السكاني ومن سوق النخاسة
الذي تناولته تصرّيحاً لا تلميحاً ، وزدت عليه بسؤال صادم : ماذا لو أعقبت
مصرية من شارون أو نتنياهو؟! هل نعطي الوليد الجنسية المصرية !!؟

لست أدري لماذا رفع وزير الداخلية ، والسيد الرئيس ، معارضتهما لهذا
المشروع ، ولكني أعلم أن مقاومتي وقد انحسر اعتراضهما ، قد ذهبت سدى ،
وصدر القانون في النهاية على ما أراد المحركون له . يومها لم تكن مشكلة
نقل الأعضاء بين المصريين والأجانب قد أطلت بعد ، ترى ماذا عسانا نفعل
الآن وسوف يفتح نقل الأعضاء ، أبواباً أخرى أكثر جرحاً لاتساع سوق
النخاسة وشراء المصريين توسلاً إلى الاستيلاء على الأعضاء ، ولا بأس من
أن يتلازم ذلك مع قضاء الغلظة بزيجات أبعد ما تكون عن سنن الزواج في
جميع القوانين والشرائع والأديان ؟!

من تراب الطريق

(٤٠٩) من مناجاة المتصوفة (*)

للمتصوفة لغتهم ورموزهم الخاصة ، وهكذا مناجاتهم وما يثبته فيها من معان .. في أحد فصول «الفوائد» لابن القيم الجوزية ، يقول : طوبى لمن أنصف ربه فأقر له (على نفسه) بالجهل في علمه والآفات في عمله والعيوب في نفسه والتفريط في حقه والظلم في معاملته . فإن آخذه - سبحانه - بذنوبه رأى عدله ، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله ، وإن عمل حسنةً رآها من مته وصدقته عليه ، فإن قبلها فمته وصدقة ثانية ، وإن ردها - سبحانه - فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به : وإن عمل سيئة رآها من تخليه عنه وخذلانه له وإمساك عصمته عنه .. وذلك من عدله فيه .. فيرى في ذلك فقره إلى ربه وظلمه في نفسه .. فإن غفرها له ﷻ فبمحض إحسانه وجود كرمه .

المحبون إذا خربت منازل أحبائهم قالوا سقيا لسكانها : وكذلك المحب إذا أتت عليه الأعوام تحت التراب ذكر حيثنذ حسن طاعته له في الدنيا وتودده إليه وتجدد رحمته وسقياه لمن كان ساكنا في تلك الأجسام البالية .

• من عظم وقار الله في قلبه أن يعصيه - وقره الله في قلوب الخلق أن يذلوه .

(*) المال ٢٢/٢/٢٠١٠ .

• إذا علقت جذور المعرفة في أرض القلب ، نبتت فيه شجرة المحبة ، فإذا تمكنت وقويت أثمرت الطاعة ، فلا تزال الشجرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

• أول منازل القوم : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَيَحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾ [الاحزاب] ، وأوسطها : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الاحزاب : ٤٣] ، وآخرها : ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُومَةُ سَلَامٌ﴾ [الاحزاب : ٤٤] .

• أرض الفطرة رحبة قابلة لما يُغرس فيها ، فإن غُرست شجرة الإيمان والتقوى أورثت حلاوة الأبد . وإن غُرست شجرة الجهل والهوى فكل الثمر مر !!

• لا يستطيع أن يرحل إلى الله ، من كَبَل نفسه بالشهوات !

• الذنوب جراحات ، ورب جرح وقع في مقتل !

• من أرضى جوارحه بالشهوات ، غرس في قلبه شجرات الندم !

• لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة له !

• مفتاح كل بركة : الصبر في مواضع سلوكك ، إلى أن تصح لك إرادة فإن صحت لك الإرادة ، فقد ظهرت عليك أوائل البركة .

• بحر الهوى إذا مد أغرق ، وأخوف المنافذ على السابح فتح البصر في الماء .

• نور العقل يضيء في ليل الهوى فتلوح جادة الصواب فيتلمح البصير في ذلك النور عواقب الأمور .

• أخرج بالعزم من هذا الفناء الضيق المحشو بالآفات إلى ذلك الفناء
الرحب الذى فيه ما لا عين رأت .. فهناك لا يتعذر مطلوب ولا
يفقد محبوب .

• من أقوال الجنيد: «الخوف من الله يقبضنى ، والرجاء منه : يبسطنى .
والحقيقة : تجمعنى . والحق : يفرقنى ، إذا قبضنى بالخوف أفانى
عنى ، وإذا بسطنى بالرجاء ردى على ، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى
، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى ، ففطانى عنه ، فهو تعالى فى ذلك
كله محركى غير ممسكى ، وموحشى غير مؤنسى ، فأنا بحضورى
أذوق طعم وجودى ، فليته أفانى عنى فمتعننى ، أو غيبنى عنى
فروحنى» .



• يا ضعيف العزم .. أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم : وناح
لأجله نوح : ورمى فى النار الخليل : وأضجع للذبح إسماعيل : وبيع
يوسف بثمان بخص ولبث فى السجن بضع سنين : ونشر بالمنشار
زكريا : وذبح السيد الحصور يحيى : وقاسى أيوب : وزاد على المقدار
بكاء داود : وسار مع الوحش عيسى : وعالج الفقر وأنواع الأذى -
محمد صلى الله عليه وسلم .. وتزهو أنت باللهو واللعب !

• من شيم العارفين ، أنهم إذا أعطاهم الله حمدوه وشكروه ، وإن
منعهم ناشدوه وتضرعوا إليه وذكروه .. ولا يجعلون العطاء المنعم
به عليهم يشغلهم عن ذكره .

• قيل لبعض العباد : كم تتعب نفسك ، فقال : راحتها أريد .

- روى الصوفي أحمد بن أبي الحواري أنه دخل يوما على أبي سليمان الداراني فوجده يبكي ، فسأله : ما يبكيك ؟! قال الداراني : ولم لا أبكي ، وإذا جنَّ الليل ، ونامت العيون ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وافترش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وتقطرت في محارهم ، وأشرف الجليل سبحانه وتعالى ، فنادى : يا جبريل ، بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى ذكرى ، وإنني لمطلع عليهم في خلواتهم .. أسمع أنينهم .. وأرى بكاءهم . فلم لا تنادى يا جبريل : ما هذا البكاء ؟! هل رأيتم حبيبا يعذب أحباءه ؟



- من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه : وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة : وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره : وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له : وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأُنس بطاعته . وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته : وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه : وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض وفيما يبعدك عنه راغب .



الفنون والإنسان (*)

(١)

من تراب الطريق

من مآثر مهرجان القراءة للجميع : مكتبة الأسرة ، إعادة طبع أمهات الكتب .. ومن الكتب التى وقعت عليها كتاب «إروين إدمان» ، «الفنون والإنسان» ، الذى ترجمه إلى العربية المترجم الكبير الأستاذ مصطفى حبيب ، وقدم له الدكتور ماهر شفيق فريد .. ولا أدري هل بمستطاعك أم لا أن تعثر عليه الآن .. فإن هناك من يسارعون إلى التقاط الكتب النفيسة بالأسعار الزهيدة (١٥٠ قرشا) التى ي طرحها المشروع ، ويرسلونها إلى المخازن لتغلو أثمانها بمضى الزمن على نظام «تسقيع» الأراضى !!

الكتاب كما نخبرنا الأستاذ ماهر شفيق فريد ، قد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٢٨ ، ثم صدرت منه طبعة جديدة مزيـدة ومنقحة عام ١٩٣٩ ، قام بنقلها إلى العربية المترجم الكبير الأستاذ مصطفى حبيب الذى أمد المكتبة العربية بكثير من أمهات الكتب المترجمة .. أما الكتاب فإنه فى رأى الناقد الكبير أفضل المداخل إلى موضوعه ، وهو «مبادئ التجربة الجمالية» وأيسرها متناولاً ، وأجمعها لصفيتين إذا اجتمعتا لكتاب فى فلسفة الجمال ، فإنه يكون قد أوفى على الغاية أو كاد : الصفتان هما العمق والوضوح ، وقليل ما تجتمعان . والمحصلة النهائية هى زيادة المعرفة بالقاسم المشترك الذى يجمع بين فنون الشعر والتصوير والنحت والمعمار والموسيقى ، لتنتهى إلى مسك الختام الذى يربط الفنون كلها بالفلسفة .

(*) المال ٢٣ / ٢ / ٢٠١٠ .

نعم إن الفنون «لا تطعم فما»، ولكنها غذاء الروح، وقوت الأرواح لا يقل شأنًا عن قوت الأبدان. لذلك فإن معرفة الفن لا تقل أهمية عن الدين والعلم، ذلك أن موضوعه هو الخبرة الإنسانية بأسرها.

عند إروين إدمان أن وظيفة النقد هي توضيح وتجلية التجربة الفنية وتفسيرها. والفن ليس محاكاة لواقع خارجي، وإنما هو إبداع جديد، فالرسام والمصور لا يسعى لتقديم نسخة طبق الأصل من الواقع، كما أن الموسيقى ليست إعادة إنتاج لأحداث الطبيعة أو الكائنات، حتى وإن حاكت بعض الآلات الموسيقية أصواتا أو تأثيرات مستمدة من الطبيعة كهزيم الرعد أو انسياب الماء أو شدة الطيور.. ذلك أن التأثيرات الوجدانية للموسيقى لا تتم بمثل هذه المحاكاة.. مؤدى هذا أن معنى الموسيقى كامن في حركاتها، غير قابل للتفسير بغير وسيطها النغمي.

فصول الكتاب ستة بعد مقدمة المؤلف: الفن والتجربة، الفن والحضارة، العالم والكلمة والشاعر، والشئ والعين والفنون التشكيلية، الأصوات والآذان والموسيقى، وأخيرا الفن والفلسفة.

يستهدف الكتاب، فيما يقول مؤلفه، أن يكون مقدمة مختصرة لعلم الجمال.. لا من حيث المنطق الجدلي، وإنما بإمعان الفكر في الفنون التي تنشأ عنها الصور الجمالية، وفي التجربة التي تنمو منها الفنون وتجلبو التجربة بدورها وتعليها.

فمهما تكن الحياة، فإنها تجربة فيض من فيوض الزمان، واستغراق لتعدد الألوان في الأبدية.. هذه التجربة قد تكون بسيطة كما عند الأطفال والبسطاء، وقد تكون معقدة كما عند العالم والشاعر أو رجل الأعمال.. ولكنها على تفاوتها ومراحلها، ليست بين الولادة والممات، سوى مؤثر واستجابة

للكائن الحيّ .. تتمثل في خمس حواس صغيرة تنتفض بالبهجة والسرور ..
قد تبدو لنا بلا غرض ، وقد تبدو ذات قصد ، قد تكون حجابا وقد تكون
كشفا لشيء خلف التجربة .. وهما رتيبًا زائلا ، أو كابوسًا أو حلماً .. ومهما
يكن ما تنذر به التجربة أو تعنيه ، أو تحجبه أو تكشف عنه ، فإنها موجودة
قد تزداد حدة وقوة ، أو تغمض وتلتبس .. قد تظل عجماء معتمة مشوشة لا
نظام لها ، وقد تصبح ذات مغزى وقصد ، واضحة وحيّة . وهذا النظر بمثل
هذه الحدة والوضوح في التجربة هو مجال الفن ومبحثه .

إن فن الحياة إلهام ونبوءة وليس تاريخًا أو حقيقة .. وبقدر ما يكون للحياة
شكل ، تكون فنا .. ودولة الفن تماثل الجمال الذي يعمل الإنسان فيه سيطرته
المتبصرة الحازمة على عالم المادة والحركة ، وعلى عالم الخفقات العشوائية
الداخلية والعمليات التلقائية التي تؤلف كيانه الداخلي .

فنون الرسم والنحت والموسيقى والشعر - تنطوى على انتفاع جميل وبيّن
بالمواد ، ونجد فيها تجربتنا الجمالية أقوى وأنقى ما تكون ، ولكن حينما تتخذ
المادة شكلا والحركة اتجاهها والحياة خطأ وتكوينًا ، فهنا يكون لدينا عقل
وإدراك ، وتتحول الفوضى (اللاّ تكون) إلى نظام نفسى ومرغوب هو الذى
نسميه الفن .

كثيرا ما شبهت الحياة بأنها حلم يقظان ، ولكن قدرًا يسيرا منها هو الذى
يتسم بالوضوح ، وكذلك الجزء الأكبر من التجربة لدى غالبية الناس ، قد
تكون مشوشة غير متناسقة وفظيعة أحيانا ، ولكن التعرض لهذه المثيرات
هو الذى يحفز على الشعور والفكر . وهنا يكون المحز : كيف يتم التحول
أو الانتقال من الدوافع اللا إرادية إلى الاستجابات غير الخاضعة لضابط

أو رابط ؟ كيف يعيد الفنان تشكيل التجربة وتحويلها إلى شىء وادع حاد ، مستأنس ومستغرب فى نفس الوقت ؟ وما الدور الذى تلعبه الفنون فى تجربتنا وما الذى يضيف عليها ما فيها من إغراء وبهجة ؟

من أهم وظائف الفنان أن يجعل التجربة أخذاء بأن يمنحها الحياة . الفنان سواء أكان شاعراً أم رساماً أم مثلاً أم مهندساً معمارياً - يتناول الأشعار كما يتناول الشاعر والقصاص الأحداث على نحو يجبر العين على التوقف ونشيدان المتعة فى الرؤية ، كما يجبر الأذان على الاستماع ، والعقل على لذة الاكتشاف لذاته دون سعى إلى نفع . عندئذ لا يصبح المقعد مجرد إشارة لراغب فى الجلوس أو الوجه المعبر مجرد شىء يغرى ، بل يصبح هذا أو ذاك - بؤرة لون وشكل يتخذ فى الرسم مغزى تصويرياً ، أو يصبح الوجه شيئاً يستحق النظر إليه من حيث كونه قد صار ذا أهمية تصويرية يرضى ويثير فى آن واحد .

فإذا كان الرسامون يتحدثون أحياناً عن البقع الخامدة التى لا حياة لها فى التصوير ، فكذلك شأن التجربة .. هى كذلك مليئة بتلك البقع الخامدة ، ولكن الفن يمنحها الحياة . فالفن الجامع من شأنه أن يجعل الوجود كله ينبض بالحياة ، وتصبح تفاصيل الانفعال والمعاناة اليومية بهيجة جدية بالتذوق الجمالى .

توجد آلاف الأسباب التى تدعو الفنان ومحب الجمال للهروب إلى الفنون الجميلة ، وقد لوحظ أن الفنانين كثيراً ما يعجزون عن مواجهة مطالب الحياة المادية التى تبدو لهم مشاكلها كليلية أو محيرة ، بينما عقولهم مدربة على التكيف مع دائرة واحدة جميلة بقدر ما هى صغيرة . ومع ذلك لا يجب أن نشعر

بالدهشة حين نرى الفنان غير خبير بأمور الدنيا وشواغلها ، وينظر إليها في بعض الأحيان على أن شواغلها حماقة وجنون . فماذا في وسع عقل معدنه ثمين ، صعب الإرضاء ، أن يفعل إزاء ما في الأحداث أحيانا من سماجة وغلظة ؟ وماذا تصنع روح الفنان - التي ترى التنافر شرا - في منابذات السياسة والأخلاق ؟

قد يسهل علينا الاستنتاج حين نتأمل فى خيال وإبداع الفنانين ، فى الموسيقى والشعر والتصوير والرواية ، وحين نلاحظ أن الدوافع التي يركز إليها قوام الفنان الرومانسى هى بنفسها التي تدخل فى تكوين التذوق الرومانسى .

ولا جدال فى أن الفنون الجميلة تجتمع فيها القدرة على منح المتلقى سلام الجمال وهروب الانعزال . ومع ذلك فالنظرية القائلة بأن الفن هروب ، لا تأخذ فى اعتبارها كثيرا مما يصدق على التجربة الجمالية ، بل هى تحط من قيمة مظاهر الاستمتاع والإنتاج الجمالى التى تتميز بالخصب والإيجابية . ذلك أن جزءا من المتعة الجمالية يكمن فى أداء الحياة التى نعرفها والطبيعة التى فى طبيعتنا فى صورة واضحة وكاشفة .

إن وظيفة الفنان ونجاح العمل الفنى - تقاس جزئيا ، بالقدر الذى تصبح فيه حواسنا لا مجرد إشارات للعقل ، وإنما للإيحاء بالمحسوس والملموس والإبانة عنهما ، وهكذا تزداد التجربة فى الفنون الجميلة ثباتا ورسوخا وحدة عن طريق استيلائها على الأحاسيس والمشاعر .

وبعد ، فقد كان فى نيتى حين أمسكت القلم ، أن أعرض لك ما جاء بالكتاب ، فوجدت نفسى لا أزال غارقا رغم هذه السطور فى فصله الأول الممتع عن الفن والتجربة ، فأرجو أن تأذن لى باستكمال الحديث عن باقى فصول هذا الكتاب الرائع .

لم أقطع رغم طول السطور ، سوى الفصل الأول عن الفن والتجربة من كتاب إروين إدمان : «الفنون والإنسان» ، ترجمة الأستاذ مصطفى حبيب .. بعد هذا الفصل تحدث إروين إدمان عن الفن والحضارة ، وتناول فيه أصول العلاقات العامة للفن ، من عبارة أرسطو يبدأ .. إنه يمكن إدراك معنى الفن على خير وجه إذا قورن بالطبيعة ، وإن الفن ذكاء إنسانى يقوم بدوره فوق مسرح الطبيعة ويحركها فى صدق وإخلاص إلى تحقيق أهداف إنسانيته ، فإذا كانت الحضارة تتلاقى مع الذكاء والعقل الكامل ، فإن الحياة فى مثل هذه الحالة قد تناظر الفن.

لقد حدث فى المراحل الأولى لتاريخ الحياة الإنسانية أن أخذ العقل (الذكاء) مكان الاستجابة الحيوانية المجردة ، وبدأ الفن يوجه الطبيعة من جديد ، فكانت الأمثلة الأصلية الأساسية لذلك الفن الذى سخره الإنسان فى بادئ الأمر للحصول على الغذاء والمأوى ، وفى عالم مليء بالمخاطر والشكوك - كان على الإنسان أن يتعلم كيف يعيش قبل أن يتعلم كيف يجب حياة جميلة ، أو يشغل ذاته - مثلاً - بخلق أشياء جميلة ، ومع ذلك فلا يخطئ أحد أن صناعة الأواني والسلال لم تخل من التصميم ، وأن جدران الكهوف زينها الإنسان الأول بالرسوم أو بما يشبه الرسوم.

على أنه سواء كانت الفنون الصناعية هي التي سبقت الفنون الجميلة إلى الظهور، أم أنها جاءت معها، فإنه لا بد من التمييز بينهما على أساس تحليلي، وأول ما يصادفنا هو ما نتلقاه في الحضارة المعاصرة من بعض الفنون «الخادمة» و«الوسيلية» و«الصناعية» - الواضحة كل الوضوح في طبيعتها، وتركيز الحضارة الصناعية على المنفعة أكثر من تركيزها على الجمال انسياقاً للإنتاج الكمي، هو من ضمن أسباب عدم توافر الجمال في كل بيت، والفرق الدقيق بين الفنون الجميلة وبين ما هو مجرد مفيد أو صناعي، هو أن الأولى تقدم إحساساً بالرضا المباشر، على حين أن الأخيرة تقدم الوسائل لمباهج أخرى مرضية.

فقد مرت بالعالم عصور سعيدة كان فيها الفصل بين المنفعة والجمال أقل حدة. ففي أوروبا ستة متاحف تمتلئ أبهاء كاملة منها بحلى دقيقة تمثل الحياة الإغريقية اليومية، ومع أن الغرض منها كان للاستعمال، فإن عين الإنسان العصري المولعة بالجمال لا يتجه اهتمامها الأول إلى وظيفتها وإنما إلى كما لها الزخرفي، وقد كانت عمائر عصر النهضة من كنائس ودور للقضاء وقصور.. يُقصد بها أن تكون للسكنى، كما أنتج بالعصر الوسيط كنائس كانت من روائع الفن وأماكن للعبادة في الوقت ذاته.

هذه الأمثلة تدعم الحجة القائلة بأن الفن السليم لا انفصام فيه بين الغاية والوسيلة، أو بين الوسيلة والجميل، غير أن الانفصال بين المفيد والجميل في بعض الفنون، خصوصاً في عصرنا الحالى، يتم بطريقة أسهل، وظهرت في مقابلة الحركة التي يطلق عليها «الفن للفن»، وكانت وجهة النظر القائلة بأن الفنون لا شأن لها بأى التزام اجتماعي أو أخلاقي أو عملي، جزءاً من ثورة على البيئة الصناعية التي كانت تمدنا بهادية الفكر التي كانت تكسب الكون لونه وبريقه وقيمه الروحية.

ومن اليسير أن ندرك إلى أى مدى يذهب بنا الفصل بين الجميل النافع ، وما يؤدى إليه من قيام حضارة عملية لا تبالي بالجمال الحسى أو الطلاوة ، بينما هو يؤدى من ناحية أخرى إلى إنتاج الأعمال المتأنقة بالزخارف الجوفاء البريئة من التضارة المطلوبة لمحب الجمال .

ولأن الفنون كانت فى شكل ما ، شروذاً - مقتضباً - عما تواضع عليه البعض من إعلاء العقل فى كل شيء ، فإن عددًا من فلاسفة الأخلاق - ومن بينهم القديس أوجستين - قد صبوا جام غضبهم على الفنون ، وركزوا فى هجومهم على الجانب الحسى الذى رأوا أن الفنون يمكن أن تجرف الناس إليه ، وقال أوجستين إن الفنون قد جعلت الناس يهتمون بأجماد الأرض بدلاً من أن تدفعهم إلى تذكر أمجاد خالقها .

قال الأخلاقيون أمثال أفلاطون وتولستوى ، إنه لا يمكن معرفة المدى الذى يمكن أن يندفع إليه المفتون بحواسه حين تنتبه ، وأقر فلاسفة الأخلاق دائماً - على كره منهم - بتأثير أى فن من الفنون على حواس الإنسان المستثارة المستهلكة المستغرقة ، وقبل أن ينشر أساتذة التحليل النفسى أفكارهم عن إشاعات الجنس الملتوية ، كان الأخلاقيون المسيحيون يرون أن الحواس مغشاة بخمار من الشعور الجنسى ، ومن ثم فإن التحفز الحسى يعنى كذلك تنبهاً جنسياً .

غير أن الاستدلالات التى يصلون إليها - فيما يقول إروين إدمان - ذات طابع يبعث على المزيد من الشك ، وأنه بالنسبة لجيلٍ تحلى على الأقل عن اجتياز تخوم العالم الملتهبة ابتغاء إدراك الحياة الملموسة الآن ، فإن الاتهام القائل بأن الفنون تخاطب الحواس - يفقد حدته وركيزته ، ويتساءل الكاتب

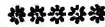
ميزفيلد Masfield قائلاً : « ما الذى نُعطاه ؟ وما الذى نأخذه ؟ » ثم يرد بقوله : « خمس حواس صغيرة تحفل انشراحاً وبهجة ». إن كل لوحة أو مؤلف موسيقى يستطيع أن يوقظنا على الأوجه اللانهائية المتعددة لتجربتنا بطريقة أبهى وأدق ، وذلك يرهف الحياة ، ويجعلها أكثر حيوية وتحفزاً .

أن تحشى الفنون لأن مضمونها أو أساس جاذبيتها جنسى جزئياً ، معناه أننا نرهب خفقة أو دفعة لم يعد التفكير ينظر إليها بذلك التظاهر بالرعب والشك ، وفى المقابل فإن تهذيب الشعور والعاطفة والفكر الذى تهدف إليه أغلب المذاهب الأخلاقية ، يبدأ بالحواس ، والفنون تتجه فى المقام الأول إلى تصفية التجربة الحسية وتهذيبها .

أما القول بأن الفنون غير عملية وليست مقبولة ، فإنه ليس إلا تعليقاً على مدى بعدنا عن هذا الجانب من الفردوس الذى تحققه الفنون . نشاط الفنان المبهج ومتع التدوق ، كلاهما دليل على ما يمكن أن يؤدى إليه نظام اجتماعى سليم من سماح وشمول ، وحينذاك يصبح العمل فناً بدرجة أكثر عمومية مما هو الآن .

باقى الفصول التالية للكتاب ، تعتمد إلى شرح الأساليب الخاصة التى تتاح للفنون كل بوسيلته : العالم والكلمة والشاعر ، الشيء والعين والفنون التشكيلية ، الأصوات والأذان والموسيقى ، وتتجمع من خلالها أهداف توضيح وإحياء وتوحيد التجربة الفنية .. فالكلمات فى الشعر أصوات موسيقية ورموز منطقية وإشارات وجدائية ، والقصيدة هى الكلمة وقد صارت جسداً ، والخبرة الفنية لا تقل عمقاً عن أى خبرة فكرية وروحية أخرى ، بل ربما زادت عليها أنها أقرب إلى ينباع الشعور والوجدان ، وأقدر على تجاوز حدود اللغات والثقافات والأزمنة والأمكنة .

فى الفن والفلسفة ، وكما يوضح إدمان ، لا توجد خصومة بين الفنون والفلسفة ، ولا بينها وبين الشعر .. فللفكر مكانه فى القصيدة كالوجدان سواء بسواء ، والأدب الرفيع لم يخل قط من عنصر التفكير ، يشهد على ذلك ما استشهد به الدكتور ماهر شفيق فى تقديمه من إشارة لمقدمة العقاد لديوانه «بعد الأعاصير» ، من أغاني شكسبير ، وقصة فاوست ، ورباعيات الخيام ، وأشعار المتنبي .. فنشيد الرعاة - وجدان ، وألحان فاجنر - وجدان ، ولكن الفرق بين الوجدانين كأبعد فرق بين شيئين يوجدان فى طبيعة الإنسان ، نقص الفكر ليس بزيادة فى الحس والوجدان ، كما أن زيادة الفكر لا تمنع الإنسان أن يحس وأن يتسع وجدانه لأوسع آفاق الحياة.



من تراب الطريق

(٤١٢) مسئولية الحياة (*)

يبدو أن اعتياد «الطلب» ، ولأنه محض طلب لا يفصل فيه المتقدم به ، قد فصله في وجدان البعض عن الإحساس بالمسئولية .. فرغبات الناس ، ناهيك عن التي تسعى إلى التلبية ، لا تنفصم ولا يجوز أن تنفصم عن الإحساس بالواجب وبالمسئولية ، وفرز ما لا يجوز عما يجوز .. فليس كل ما يُرغب يطلب .. بل إن الطلب قد يحمل بذاته أحيانا - ما يقلب الموجد أو يثير المشاكل أو يفاقمها !!.

لم أفهم لماذا يطلب محام يدافع عن أحد المتهمين في حادث نجع حمادى - منع الأنبا «كيرلس» أسقف نجع حمادى من السفر ، ولماذا يتقدم بطلب إلى النائب العام لوضعه على قائمة ممنوعين من السفر بالمطارات والموانئ المصرية ؟!

لم تكف تبريرات الطلب للإقناع بجديته وموضوعيته .. فحق السفر والانتقال من الحقوق الدستورية التي لا تجوز المصادرة عليها إلا في حق متهم قامت دلائل جديده على مخاطر تنجم عن سفره إلى خارج البلاد ، وتوجد أيضا دلائل جديده وكافية على أن في نيته السفر فعلاً وإلى غير عودة .. فالسفر بنية العودة لا غبار عليه ولا بأس منه ، بل إن النيابة العامة تصرح أحيانا للمتهمين ممنوعين لأسباب جديده من السفر للخارج - تصرح لهم بسفريه أو أكثر طالما قامت لها أسبابها المقنعة وانتفت عنها نية الهروب وعدم العودة إلى الديار .

ولذلك لم أفهم علة طلب منع الأسقف من السفر ، ولا تعلقة أنه شاهد يرغب الأستاذ المحامى فى سماعه بالمحاكمة ، ولم أستسغ «تجيشات» هذا الطلب العجيب - بأنه قد ترددت أنباء عن عزم الأنبا كيرنيس على السفر خارج البلاد ، ولو قال الطلب هذا «التجيش» وكفى لهان الأمر ، ولكنه زاد فقال إن نية السفر للخارج هى للهروب - يا ألطاف الله - من التحقيق فى الكنيسة المصرية حول ما أصدره من تصريحات !

لا يخطئ العاقل أن هذا تحرش غير مسئول ، وغير مأمون العواقب فيما نعانیه من احتقان لا يحتمل المزيد من التأجيج أو افتعال الأسباب التى تصب الزيت على النار .. فطلب المنع من السفر ، ومقطوع فى هذه الحالة برفضه لأنه معدوم السبب والمنطق ، لا محل له من أى إعراب ، ولم تجر العادة بإطلاقه حتى بالنسبة للمتهمين ، ناهيك بالشاهد الذى لا إثم عليه ولا يجوز دستوريا وقانونيا التعرض لحرته ، بل وأمانه النفسى .. هذا الأمان الذى يبعثه هذا الطلب الذى خرج عن المعقولة والموضوعية وعن كل موازين الحساب والتقدير !!

إن الدفاع عن متهم - أى متهم - ليس مبررا للتجاوز فى حق المجنى عليهم أو ذويهم ، أو فى حق الشهود .. فالدفاع أمانة ومسئولية ، محكوم بكل ضوابط الأمانة ومعايير المسئولية ، وهى مسئولية لا تقتصر على المتهم المدافع عنه ، وإنما هى واجبة إزاء الدعوى وخصومها وأطرافها وشهودها ، وإزاء المجتمع أيضا .

عن أزمة اغتيال بطرس باشا غالى ، كتبت فى رسالة المحاماة كيف امتحنت الجماعة الوطنية ، والأمة المصرية بعامة ، بامتحان عسير - فى هذا الحادث ،

والاحتقان الذى صاحبه ، واستغلال سلطات الاحتلال له بضرب النسيج الوطنى ، والمؤتمرات المتقابلة التى جعلت تعقد بين أسيوط ومصر الجديدة ، وكيف كانت فطنة وبصيرة المحامين الذين وكلوا للدفاع عن إبراهيم الوردانى : الأساتذة أحمد بك لطفى ، وإبراهيم بك الهلباوى ، ومحمود بك أبو النصر ، فضلا عن ترافعوا أمام قاضى الإحالة : الأساتذة : عبد العزيز بك فهمى ، ومحمد على علوبة بك ، وآخرين .. وأوردت بعضا من مرافعاتهم والخطة التى انتهجوها ، وكيف أن من يطالع مرافعات المحامين أمام محكمة الجنايات فى الكتاب الضافى : «المرافعات فى أشهر القضايا» ، للأستاذ محمود عاصم المحامى الذى حفظ لنا هذا التراث ، يلمس الأبعاد العميقة المدركة بموضوعية لحق الدفاع بغير إسفاف أو مظهريات ، الواعية لحق الأمة فى أن يسان لها - مع حق المتهم - حقها فى الأمان وفى ضوابط ترعى الموازين جميعها بفهم ووعى ورؤية ناضجة .. بعد مرافعة النائب العمومى عبد الخالق ثروت باشا (نقيب المحامين ثم رئيس الوزراء فيما بعد) - ترافع على التوالى الأساتذة محمود بك أبو النصر ، أحمد بك لطفى ، إبراهيم بك الهلباوى .. كانت مرافعة النائب العمومى قطعة أدبية وقانونية رائعة ، تكهن فيها بما يرمى إليه الدفاع ، فسعى طاقته إلى سد منافذه ، إدراكًا لكون الدفاع عن المتهم هو آخر من يتكلم ، ومن ثم فإن واجب الفطنة أن يسبق إلى قراءة مرامه ، وأن يدلى بدلوه فيه .. وجدير بالذكر أن مرافعته مع روعتها التزمت الموضوعية والأدب الرفيع فى الموضوع والقانون ، فلما جاء دور المحامين ، إذ بهم يأخذون الأبواب مع دقة الموقف وصعوبته ، فلا يخرج أحدهم عن الموضوعية ، ولا يسفست فى الوقائع أو القانون ، ويؤدى كل منهم دوره

فى إطار التقسيم الثلاثى الذى التزموه فىما بينهم .. يتحدث الأستاذ محمود بك أبو النصر فى سبى الإصرار ونقطة السبب ، فىسوق ما لم يسبقه ولعله لن يلحق به أحد !

لم يكن هذا هو كل شعور أو فطنة أو دور المحامى فى معالجة هذا الحدث الجلل ، فحملوا مشاعل المعالجة الحكيمة الكاملة فى المؤتمر القبطى (مارس ١٩١١) بأسىوط ، وفى مؤتمر مصر الجديدة (أبريل ١٩١١) ، فكان للمحامى دور بارز فى المرور بسفينة المؤتمر إلى بر السلامة ، واحتواء ما بدأ يتفشى من احتقانات تهدد وحدة الجماعة الوطنية .. فألى جوار كلمة ورؤية مصطفى باشا رياض ، تحدث ببصيرة حاضرة وإحاطة عاقلة ، فرسان الكلمة والمحاماة : أحمد لطفى السيد باشا (أستاذ الجلىل) ، وعبد العزيز فهمى باشا ، والأستاذ الكبرى محمود بك أبو النصر المحامى ، والأستاذ محمد على علوبة المحامى ، وفارس المحاماة إبراهيم الهلباوى ، والأستاذ محمد حافظ رمضان المحامى الذى صار رئيساً للحزب الوطنى (القديم) ، والأستاذ محمد يوسف المحامى ، والأستاذ محمد أبو شادى المحامى ، فضلاً عن الأساتذة أحمد عبد اللطيف المكباتى وحمدى حماد وعلى شمس ، والشيخ عبد العزيز جاویش وآخرى ، حيث انتهى المؤتمر بعد مناقشات وكلمات وأبحاث ضافية - إلى قرارات شاملة فى الحقوق السياسية ومسائل التربية والتعليم والمسائل الاجتماعية والاقتصادية والمصرفية ، وفى الأملاك الزراعية والصناعية والتأمين فىما يشبه برنامجاً متكاملًا للعمل الوطنى كان للمحامى الدور الأكبر فى وضعه ورسم خطوطه ورعايته .

هذه هى المحاماة التى عرفناها ، وورثناها عن أسلاف لنا عظام !

من تراب (٤١٣) الطريق ما لم يتداركنا الله بفضلِهِ^(٥) ورحمته!

ما الذى يرجوه الأدمى من حياته ؟ هذا سؤال لا يكاد يطرحه إنسان عادى على نفسه وهو جاد فيه .. لأن حياتنا ، أعنى حياة كل منا ، ليست مشروعاً بشرياً نحاول تنفيذه بمحتمل أن ننجح فيه أو نفشل ، فنستمر فيه أو نكف عنه إلى سواء ، وإنما هى وجودنا ذاته وكله .. ونحن جميعاً نقبلها قبولاً فطرياً غريزياً بلا أدنى مناقشة أو تشكك على أنها أعلى وأثمن ما أعطينا .. أيا كانت ومهما كانت ظروفنا .. يستوى فى ذلك الحر والعبد ، والطلق والمعتقل ، والصحيح والعليل ، والقوى والضعيف ، والطفل والشيخ ، والموسر وذو الفاقة .

فتعلقنا بحياتنا ليس تعلقاً بشيء نملكه .. لأننا لا نملكها بل هى التى تملكنا .. وهذا الواقع يخفى عنا أغلب الأحيان دوام اشتغال الوعى بنصيب كل منا من المتاح أو المرجو أو المأمول كأحياء موجودين .. وقد نظن بعض الوقت أنها ضمن ما نملكه (الأنا) لكل منا . والحال أن الحياة هى التى أوجدت (الأنا) وأنها هى التى أوجدت وعينا ولا وعينا وسائر أجهزتنا النفسية والفسولوجية والاجتماعية .. وهى بداية كل شيء ونهايته بالنسبة للأدمى - الذى يفقد كل ما عنده أو معه بما فى ذلك ذاته إذا فقدها ، ويصبح لديه إذا حاش كل شيء يتخيله ممكناً .. على الأقل فى أحلامه وخياله .. لأن خيالنا وأحلامنا ليست إلا امتداداً لوعينا الحى وتعبيراً من التعبيرات التى ليس لها حصر على أنا أحياء .

(*) المال ١/٣/٢٠١٠ .

فنحن نأخذ حياتنا أفرادًا وجماعات بجميع ظواهرها ومعالمها من الحياة نفسها ، دون أن نضيف إليها شيئًا ما جديدًا لم يكن لديها فعلا .. وجميع ما أضفناه أو نضيفه معنويا كان أو ماديا - خال خلوا تاما من الحياة ، وبحاجة دائما إلى تدخل آدمى ليكسبه المعنى والغرض والوظيفة التى تعطيه قيمة فى نظر الأحياء .. ويظهر مواته وخواؤه وإفلاسه إذا اختفى الآدمى من الوجود وانقطع اتصاله الحى بأى آدمى !

إننا لا نشعر بهذه الحقيقة وعمقها وإطلاقها لأننا أحياء داخلها ، ولا يمكن أن نخرج منها إلا بظاهرة الموت الذى هو انقطاع سير حياتنا وتوقفها نهائيا .. وعندئذ يبدأ ثم يتكاثر ظهور أحياء متعددة تلتهم الأجزاء الرطبة فى الرفات وتترك الأجزاء الصلبة بعد خلوها من كل عنصر حى .. تبلى على مهل كما تبلى الأحجار وتنحل كما تنحل الرمال !

وأحيانا يحدث الآدمى هذا الانقطاع فى سير حياته خطأ أو عمداً - وهما قليلا الحدوث لأن فطرة الإنسان تدفعه إلى المحافظة على نفسه ، وتجنبه تعريضها للدمار بمسلكه .

وقتل النفس - على قلته - قد يعتبره الآدميون فى بعض الأحوال أمانة شجاعة وأنفة وتضحية ، وفى بعضها الآخر أعراض خلل ويأس ، وفى ظروف خاصة قد يكون وسيلة وحلاً للتخلص من تبريح الآلام التى لا تُحتمل ولا يُنتظر أن تتوقف .. وهذا تحظه العقائد بشدة فى الجماعات البشرية .. مخافة شيوعه بالتقليد والمحاكاة وامتنالا منها لتثبيت الفطرة والمحافظة على بقاء النوع والجماعة .

وامتهان البشر لحياتهم أكثر شيوعا بينهم من استعجالهم حتى إنسانيتهم .. وذلك يؤدى حتما إلى تقصير أعمارهم وإضعاف أبدانهم وكفائاتهم وإفساد

اتجاهاتهم وعاداتهم وتشويه طبيعتهم وفطرتهم بتسليط الكحول أو المخدر عليهم ، أو بالمجون واللهو والسهر والإفراط في الشهوات ، وعدم المبالاة بمطالب الصحة البدنية والعقلية والنفسية ، وينصرفون بإصرار إلى طراز من العيش المتمرد الجارف المتحدى المنساق باستمرار إلى المبالغة والإجهاد والزراية واجتذاب غير المترنين والمدفعين والشواذ إلى محاكاتهم على قدر ما تسمح لهم به ظروف ومحيط أولئك المقلدين .. ولم تنجح العقائد في مكافحة امتهان البشر للحياة ، بل نجحت فقط وإلى حدود - في ستره وتشجيع الآدميين على التظاهر بالاعتدال والاستقامة مع غض البصر عن فساد حقيقتهم والتواء سلوكهم وإتيانهم ما يأتون من المنكرات والموبقات في غير علانية !

واعتماد الناس لأجيال وقرون على الجمع بين التدين المعلن المتكلف وبين الإباحية المستترة في مظاهر تراعى رغم معرفة الجميع لما يحدث خلفها ووراءها من واقع يندى له الجبين .. واستسلم معظم الناس إلى هذا الصلح العجيب فى الجماعات المتدينة ، وباتوا متعصبين متمسكين بمحافظتهم على المظاهر الدينية التى تطلق يدهم سراً يعلمه جميع الخلق - فى ارتكاب ما يشتهون !!

هذا النفاق تغلغل فى معيشة المجتمعات المدنية والريفية ، فلا يكاد يخلو منه بيت أو أسرة ، وصار الناموس المتبع لدى الأبرار المحافظين على ملتهم المواظبين على العبادات المحتفلين بالأعياد والمواسم والمعتادين على زيارة المعابد والأضرحة .. الذين لا تخلو ملابسهم قط من شئ يقدس أو من تعويذة ، ولا تخلو من مسبحة أو وجوههم ومفاصلهم من آثار سجود

وركوع . وبات من أشد العنت والعبث محاولة رد أهل الأديان للالتزام
الصدق والإخلاص سرًا وعلانية ، واستحال عيش المتدين بوجه واحد لا
غيره أو يبدله حسب مصالحه وأهوائه ، أو تحقيق الاستقامة لديه بمعناها
القديم القويم منذ امتزج باطل الناس بحقهم مزجًا لا سبيل لفصله ، ولم
يعد ممكنًا إلا قبول هذا المزج الذى يزداد مع زيادة العدد والمصالح وسهولة
الاختلاط وكثافته - وقبول الصبر على زيادته ! .. وهيهات أن يكون ذلك
فى الإمكان إلى غير حد يقف عنده عقل العاقل واحتمال المتساهل واسع
الصدر كثير الصبر !! سيما إذا لابس الاعتیاد على مزج الباطل بالحق -
تغذية الفكر وتوسيع آفاقه بالتعليم والمعرفة غير المرتبطين بالعقائد والملل
والنحل .. فإن هذا الاختلاط قمين بأن يضعف من القدرة على العودة إلى
الفطرة واستقامتها وبساطتها ومن الميل الغريزى إلى الصدق والوضوح ومن
شدة التعلق بالإخلاص مع النفس والغير ! .. لم يعد الأدميون فى هذا الزمان
مستعدين للالتزام بهذه الضوابط التى باتت شاقة مرهقة تحتاج إلى تغيير كل
لكل شئون البشر الهامة .

ورغم تطاول العهد على هذا النفاق ، لم يزل غير مرضى عنه بصفة عامة ،
وما برح يُمارس على أنه ينطوى على درجة من اللا أخلاقية أو الإثم ، لأن
الجماعة الإنسانية لم تستطع بعد توجيهه وإخضاعه لقواعد ملزمة اجتماعية -
تضبط ممارسته الشائعة بحيث يصبح من العادات الأخلاقية سواء فى
الأسرة أو المجتمع أو فى السياسة أو دنيا المال والأعمال .. وقد أورث هذا
الجماعات البشرية - شعورًا غامضًا شاملًا بالخطيئة ، وإحساسًا واضحًا فى
جميع الطبقات بالقلق وعدم الاستقرار، ومعه عطفًا على العقائد والمذاهب

المثالية دينية وعلمانية ، وهذه تمجد الإخلاص للعقيدة والمذهب دون أن تحسب حسابًا عمليًا قابلاً للتطبيق يمكن أن يرتبط به البشر في زماننا - بهذا الإخلاص الذي تدعو إليه بحيث يتفق مع عاداتهم ومشاربهم وتعقيد علاقاتهم وما تقتضيه وتفترضه هذه العادات من الحرية والتلقائية ويسر التعامل والتواصل وضخامته ، والحركة المادية والمعنوية التي لا غنى عنها في الحضارة . وإلى أن يحصل هذا وهو بعيد الحصول ، سيزداد قلق المجتمعات البشرية أو عدم استقرارها ، مهدداً بالانقلابات أو الحروب أو الأزمات أو الفتن ما لم يتداركها الله بفضله ورحمته



من تراب الطريق

ماذا أصاب المحاماة (٥)
(٤١٤) هل تفرقت دماؤها على القبائل؟!

جدد الكاتب الباحث الدعوب ، الأستاذ ماهر حسن الذى أواظب على قراءته سواء فى «المصرى اليوم» أو فى «العربى الناصرى» - جدد أحزاني وأشجاني على الحال المخيف الذى آلت إليه المحاماة ونقابتها ، حين قرأت فى بابه بعدد الجمعة ١٩ / ٢ / ٢٠١٠ عن استقالة الزعيم الكوبى الكبير فيدل كاسترو فى مثل هذا اليوم سنة ٢٠٠٨ أن هذا الزعيم العظيم الذى ملأ الدنيا وسطر صفحات وضاعة لوطنه محفظا له باستقلاله وكيونته أمام الولايات المتحدة التى تقع كوبا فى مرماها ، والتى حاولت اغتياله غير مرة ، وأمام الاتحاد السوفيتى الذى ساندته زمنا ، ووقف إلى جوار كوبا فى الأزمة التى عرفت بخليج الخنازير التى كادت تصل إلى مواجهة آنذاك بين القطبين ، لولا أن انتهت بسحب الصواريخ الروسية من كوبا مقابل سحب أمريكا لأسلحتها التى كانت تهدد الاتحاد السوفيتى من تركيا ، والالتزام بعدم غزو كوبا .

الذى حرك الأشجان وجدد الأحزان ، ما ذكره الأستاذ ماهر حسن من أن هذا الزعيم الكبير المولود ١٣ أغسطس ١٩٢٦ ، كان من خريجي الحقوق ، فدرس القانون فى جامعة هافانا التى تخرج فيها عام ١٩٥٠ ، وعمل بالمحاماة ومارسها فعلا لستين قبل أن يخوض لجج الكفاح الوطنى فى بلده ، إلى آخر سيرته التى توجته على قمة الحكم وواحدًا من أبرز زعماء العالم الثالث .

(*) المال ٢ / ٣ / ٢٠١٠ .

لم أكن أعرف حين كتبت رسالة المحاماة أن فيدل كاسترو من خريجي الحقوق، وعمل بالمحاماة، مع أنى كنت أفتش عن حضور المحاماة والمحامين فى الحياة الوطنية والسياسية، والفكرية والثقافية، فى مصر والعالم .. قاصداً أن أستدعى التفات المحامين إلى ما كانت عليه المحاماة، لنخرجها من وهدة الأزمة التى تحيط بها وتفرقت مسبباتها بين فرقاء نهشوا فيها من كل جانب، حتى انطبقت عليها مقولة أن دماءها النازفة قد تفرقت مسئوليتها بين القبائل، كل بأغراضه ومآربه التى صبت فى ضرب النقابة وتعقيم المحاماة التى لا زالت تنادينا بالعودة إليها .

ذكرت فيما ذكرت فى رسالة المحاماة، عن الحضور الوطنى والعالمى للمحاماة والمحامين، أن المطالع لمدونات التاريخ ومؤلفاته، ومذكرات القادة والزعماء والرؤساء، والدراسات السياسية والثقافية، وما كتب عن المحاماة والمحامين، وتصانيف الحركة الوطنية والحياة السياسية والفكرية فى مصر - يلاحظ ظاهرة جليلة لا تخطئها عين .. ظاهرة حضور المحاماة والمحامين والحقوقيين بعامه، فى مقدمة المد الوطنى، وفى مضمار السياسة والحكم، وفى زعامات الأحزاب وعضوية ورئاسة الوزارات، ورئاسة وعضوية مجلسى النواب والشيوخ، ومن بعدها مجلسى الشعب والشورى، وفى ريادة الفكر والأدب والثقافة والصحافة .. يجد منهم «الزعيم»، و«الرئيس»، و«الوزير»، وزعماء الحركة الوطنية، ورؤساء الوزارات والمجالس النيابية والأحزاب، ونجوم الفكر والأدب والثقافة، ورؤساء تحرير الصحف والدور الصحفية .. ذلك واقع حاصل فى مصر وفى العالم العربى، وفى أوروبا والهند، وفى أمريكا .. فى إحصائية أوردها دونالد . إم . ريد -

الباحث الأمريكى والأستاذ الجامعى صاحب كتاب : «المحامون والسياسة فى العالم العربى منذ ١٨٨٠ - ١٩٦٠» .. وقد كتبت مقدمة ترجمته لمؤسسة روز اليوسف ضمن سلسلة الكتاب الذهبى .. تقول الإحصائية إنه قد تولى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٩٦٠ - ٢٥ رئيساً من المحامين والحقوقيين من بين ٣٩ رئيساً .. يضاف إلى هذه الإحصائية الرئيس ريتشارد نيكسون المحامى الذى ترأس الولايات المتحدة فى السبعينيات بعد تاريخ هذه الإحصائية ، والرئيس الأمريكى لدورتين متتاليتين المحامى بيل كليتون الذى استطاع أن يفوز فى الانتخابات على جورج بوش الأب صاحب القدرات الفذة والسجل العريض .. بزوغ نجم المحاماة والمحامين فى أوروبا ظاهرة لافتة ، بدءاً من الحركات الاجتماعية ، ومروراً بالثورات ، ثم بمناصب الوزارة ومراكز الإصلاح .. كان المحامى روبسير أحد الملع وأبرز زعماء الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) ، وكذلك كان المحامى لينين الثائر وزعيم الثورة البلشفية الذى غير وجه التاريخ فى روسيا القيصرية ، بينما كان المحامى ألكسندر كيرنكلسى مصلحاً اجتماعياً صاحب نظرية خاصة فى الإصلاح .. من بين المحامين والحقوقيين فى أوروبا برزت نجوم لامعة فى الحرية والوطنية والسياسة والإبداع الفكرى والأدبى والاجتماعى والاقتصادى .. منهم كالفين ، وفرنسيس بيكون ، وميكافيللى ، وكورنياى ، وليستيز ، ومونتسكيو ، وفولتير ، وديدروت ، وهوم ، وبتام وغيرهم .. بينما تطالعنا فى الهند صورة المحامى غاندى الذى صار اسمه أسطورة للمقاومة السلمية ، واستطاع بها أن يقود حركة إحياء عمت الهند ، وأن يقض مضاجع الاحتلال الإنجليزى فى شبه القارة الهندية .

فى العالم العربى المعاصر تطالعك من المحامين والحقوقين صورة
«الملك» الحسن الثانى - صاحب الاتجاه المحافظ ، وصورة الليبرالى الوطنى
التونسى الحبيب بورقيبة ، وفارس الخورى الرئيس السورى ، ومن الاتجاه
الاشتراكى - مع الفارق : كمال جنبلاط فى لبنان ، وصدام حسين التكريتى
الذى حكم العراق أمداً حتى انتهى حكمه بالنهاية المأساوية التى صاحبت
الغزو الأمريكى البريطانى للعراق وانتهت بإعدامه فى مشهد مثير أول أيام
عيد الأضحى !

من الشام ، برزت أسماء أخرى عديدة .. أمين الجميل المسيحى السورى
مؤسس جريدة «الحقوق» ، وهو شقيق اليسارى المعروف شبلى جميل ..
ويوسف عساف السورى المسيحى محرر جريدة «المحاكم» ثم جريدة
«الشريعة» التى ظهرت ١٨٩٣/١٨٩٤ بمبادرة من المحامى والحقوقى
المصرى أحمد لطفى السيد (أستاذ الجليل) ، وإسماعيل صدقى الذى شغل
منصب الوزارة كثيراً وتولى رئاسة الوزارة المصرية عدة مرات . ومن الرعيل
الأول نيقولا توما الذى توفى سنة ١٩٠٥ ، وأحد معاصرى سعد زغلول
والهلباوى فى مصر .. وكان مع أمين الجميل ممثلاً للأنماط المهنية للمسيحيين
السوريين ، وانضم للتيار المتدفق إلى مصر من الشام ، وصار واحداً من
صفوة المحامين فى زمانه .. بالتوازى معه شارل داباس واسكندر عامول من
لبنان ، وجميل مرادم من سوريا ، وعونى عبد الهادى من فلسطين ، وتوفيق
السويدى من العراق .

زعماء مصر ورجالاتها الكبار ، فى العصر الحديث ، كانوا جميعاً - قبل
١٩٥٢ - من المحامين والحقوقيين .. مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد

زغلول ، ومصطفى النحاس ، وأحمد ماهر ، ومحمد حسين هيكل ، ومكرم عبيد وغيرهم .. عقد المحامين العظام الذين شغلوا الحياة الوطنية والفكرية والأدبية في مصر عقد فريد وعظيم ... بدءاً من الزعيم الخالد مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ومؤسس وزعيم الحزب الوطنى القديم ، والذي اختار دراسة « الحقوق » بالذات وانخرط في « المحاماة » خصيصاً ليؤهل نفسه للدور الرائع الذى أداه في خدمة القضية الوطنية حتى وافته المنية وهو في منتصف العقد الرابع من عمره .. تتابعت معه ومن بعده نماذج رائعة في الحركة الوطنية وما يغذيها من سياسة واقتصاد وإدارة وفكر وأدب وصحافة .. محمد بك فريد ثانى زعيم للحزب الوطنى القديم ، ضاقت قيود الوظيفة بالنيابة عن تطلعاته لخدمة القضية الوطنية ، فتركها إلى رحاب المحاماة - غير مبالٍ بالنظرة التى كانت سائدة فى ذلك الزمان وتصنف المحامين تصنيفاً سلبياً ! .. هذا التصنيف الذى جعل أباه يبكى ويشعر بالخزى ويشكو إلى الإمام محمد عبده فى جنيف أن ابنه قد ترك النيابة إلى المحاماة ! .. سعد زغلول زعيم الأمة ، الوزير ، ورئيس الوزراء ومجلس النواب ، وعبد العزيز فهمى قطب الوفد وثورة ١٩١٩ ، ثم رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، ووزير الحقانية الذى استقال احتجاجاً على موقف الحكومة من كتاب الشيخ على عبد الرازق : « الإسلام وأصول الحكم » ، وأحد كواكب مجمع اللغة العربية ، وأول رئيس مصرى لمحكمة النقض المصرية (١٩٣١) .

يوم أن كتبت هذا لم يكن قد مرَّ بى أن فيدل كاسترو كان بدوره إحدى جواهر هذا العقد الفريد للمحامين ، فأعادنى ما أورده عنه الأستاذ ماهر حسن إلى ما كانت عليه المحاماة ، وما صارت إليه !

من تراب الطريق

(٤١٥)

حياة الروح^(*) هذا الشيء المجنح

عشت مع جورج سانتايانا الفيلسوف الأمريكى فترة غير قصيرة ، طالعت فيها بعض أعماله ، ونقلت إلى العربية من سنوات بابا من كتابه «حياة العقل» Life of Reason ، كتبه تحت عنوان : قد تكون الديانة تجسيدا للعقل ، وبالإنجليزية : How religion may be an embodiment of reason . أورده سانتايانا ضمن جزء أكبر من كتاب بعنوان العقل فى الديانة Mind in religion ، وبقيت مخطوطة الترجمة لدى طويلا ، حتى دفعت بها إلى مجلة الهلال الشهرية التى جعلت تنشرها على مدى عشرة أعداد ، قبل أن يجمعها «كتاب الهلال» فى عدده رقم ٧٠٧ - الذى صدر فى نوفمبر ٢٠٠٩ . وقد قرأت مؤخرا فصلا من كتاب سانتايانا : «الأفلاطونية والحياة الروحية» - والفصل بعنوان «حياة الروح ذلك الشيء المجنح» The life of this winged thing spirit ، أحببت أن أنقل إليك بالعربية هذا الفصل أو هذه اللطيفة ، فيها يقول سانتايانا :

تتميز الحياة الروحية عن الأخلاقية الدنيوية والذكاء ، بمفارقة الوهم مع معاناة هذه المفارقة - وليس بالمزيد من المعرفة . ومهما يكن حظها فى الدنيا متواضعا ، فإنها ترفع المسامى العادية أو القليل منها إلى ضياء الخلود . لأن الجانب الخالد من الأشياء ينتزع الروح من انغماسها الأولى فى الحس الحيوانى

(*) المال ٣/٣/٢٠١٠ .

والإيمان الحيوانى (animal faith) لكى تصير روحاً نقية ، علماً بأن الجانب الخالد فى الأشياء هو هو جانبها المباشر .. لأن خبرتنا بأى موضوع متى طرد منها القلق والاعتقاد يتبقى منها جوهرها فقط .. هذا الجانب المباشر من الأشياء نهائى من الوجهة السيكلوجية والاستبطانية ؛ لأن وجود الشئ الواقعى المعين عرضى ، مبناه ظروفه ، بينما وجوده كتنوع للوجود العام الضرورى - وجوداً دائماً لا يُمحى ، والروح تعيش فى إحساسها بالنهائى ضمن المباشر !

إن الروح الفانية أى الروح فى الحيوان ، لا يمكنها أن تسمح مساحة الوجود العام النقى فى لا نهائيته ، لكنها بقدر ما تتخلص من الانفعال الحيوانى والإيمان الحيوانى - يمكنها أن تشاهد وجوداً ما محدوداً فى نقاوته .. والدين والأخلاق بحمايتهما العيون من الأضواء والتشتيت ، وبتركيزهما على المواضيع النبيلة - يمهدان تربةً للروح أفضل من الحياة المشتتة الشاردة ، ولا يعنى قولنا هذا أن الروح قد لا تظهر بصورة مدهشة فى الخطاة والعصاة كما تظهر فى الشاعر والطفل !

ثم يقول سانتايانا : ولكن إذا قامت الأخلاق والأديان ببسط الضغط على الروح أو بالمبالغة فيه ، فإنها يصبحان شيطانين بالنسبة للروح .. لا يقلان فى ذلك عن البحث الحيوانى عن الطعام أو الجنس أو السلامة .

ثم أليست الأخلاقية عدوًّا أشد للروح من اللاأخلاقية ؟ أليست أكثر خداعاً وأشد تقييداً ؟ ألم يكن أولئك الشعراء الرومانسيون فى حياتهم غير المنتظمة أكثر روحانية من الجمهور الصالح الذى أزعجوه ؟

شيلي وليوباردى وألفريد دى موسيه كانوا أساسًا أطفالًا من أطفال الروح ، طاروا بأجنحة محطمة ينقصهم التزام الحد والانضباط ، فكانوا فى حالة تشرد روحى لم يتعلموا رؤية نسبية عواطفهم شديدة الكبر .. لم يتعلموا أن الروح الكاملة صابرة على التحمل والتعلم .

إن العالم ليس عالمًا محترمًا .. إنه عالم فإن متحيرٌ مخدوع على الدوام .. ولكن يتخلله جمال وحب وومضات شجاعة وضحك ، وفى ذلك تنفتح الروح مترددة خائفة كادحة إلى النور من خلال الأشواك .

تلك هى الحياة المناسبة للروح .. ذلك الشيء المجنح .. على هذه الأرض القديمة المادية غير النظيفة .. والروح من جهة سعيدة بأن تحيا لحظتها لا تفكر فى الغد .. لأنها تستطيع أن تستمتع بأصغر العطايا كما تستمتع بأعظمها .. إنها صوت الطبيعة النقى النضر العذب .. ليس فى وسعها تكلف المظهرية الأخلاقية أو المظهرية العرفانية . إنها تتجاهل أصلها .. فى انطلاقتها ونورها المعجز - يبدو ذلك لعينها شيئًا عاديًا . تجد عملها فى كل مكان - مضغوطًا عليه ومشروطًا من خارجه ، لكنها تمر خلال النار هادئة لا تأبه ولا تصدق ولا تقهر .. ومن جهة أخرى فإن الروح ترى المرئى فى إطار اللا مرئى الذى هو الإطار الصحيح ، وتركز عينها بالفطرة على اللحظات التى لا عداد لها .. هذه اللحظات التى ليست هى اللحظة الحالية ، وتركز عينها على المرات التى ليست هى هذا الحزن ، وعلى الأحزان التى ليست هى هذا السرور ، وعلى آلاف الآراء التى ليست هى هذا الرأى ، وعلى ألوان الجمال التى ليست هذا الجمال .. إنها تفهم كثيرًا جدًا بحيث لا يمكن قط حبسها ، وتحب كثيرًا جدًا بحيث لا يمكن أن تقع فى غرام أحد .. إنها أى الروح تجعل الجسد

باردًا وهى نار .. أو كما قال الكاهن «دين» : إن الفكر إذا اشتد واحتد
يجعل العواطف باردة - لأنها تواجه وتضبط ، ومع التفكير العميق - وحيث
الضحكات والدموع تنبض معًا - كالنجوم فى سماء قطبية كل منها يلمع
لمعانًا لا يخفى ، وجميعها بعيد بعدًا ليس له حد !

من تراب الطريق

المرجان (*)
(٢)

(٤١٦)

في عمود ٢٧ / ١ - نقلت لك الحديث الأول من قصيدة المرجان للأستاذ الجليل ، المحامي الفقيه ، الشاعر الأديب ، محمد عبدالله محمد - من ديوانه العارف .. وهو هنا يستكمل في هذا الحديث الثاني - ما كان قد بدأه في الحديث الأول ، عما يتقلب على الإنسان من أحوال في رحلة الحياة ، وماذا يفعل إذا غربت شمس ، هل يبقى على لياذه بواحة الرب ، أم يتابع عناده الذي ناداه ؛ ليخوض اللجج ، ويصارع الأمواج ، دون أن يبلغ الشاطئ الذي يريد .

في الحديث الثاني يبدأ محمد عبدالله محمد بأنه ليس بيده أن يمنع القضاء والقدر ، مثلاً ليس بإمكانه أن يوقف دوران الأرض .. هذه هي الشمس تشرق بالصبح ، وتوئ إلى الليل ، دون أن تغير العيون المتطلعة إليها زرقة أو ظلمة .. فلماذا يا ربنا خيم الليل على ما بداخلنا ، وهاج القلق ، ولماذا غرق من غرق وغطت «الأنبا» وانحصرت في ذاتها حتى لم تعد ترى الله ، وشاب عبادتها التعلق بالألفاظ ، واهتمت بالمديح دون أن تدرك المعاني ، وغلبت مظاهر السطح على الأغوار وما فيها ، حتى فقدت الذات بوصلتها ؟! .. يقول محمد عبدالله محمد :

دَوْرَانُ الْأَرْضِ يَا نَفْسُ قَضَا لَيْسَ فِي وَشْعِي أَنْ أَمْنَعَهُ

(*) المال ٢٠١٠ / ٣ / ٤ .

كَيْفَ لَا يَتَعَبُ لَا يَنْقَطِعُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا يَصْنَعُهُ
 كَيْفَ تَبْنِيهِ خُيُوطُ الْأَمَلِ وَبَنَاتُ الْفِكْرِ هَلْ تُرْجِعُهُ
 إِنَّا نَنْسَاهُ كَمَا نَقْبَلُهُ وَنَظْنُ الْعُمَرُ لَا يَتَّبِعُهُ

لَمْ يَزَلْ بِالشَّمْسِ صُبْحٌ يَطْلُعُ وَيُدْلِيهَا إِلَى اللَّيْلِ مَغِيبٌ
 وَتَوَالِيهَا عِيُونَ صَوَّبَتْ لِلْسَّمَاءِ تَرْمِي بَعِيدًا بِقَرِيبٍ
 لَمْ تُغَيِّرْ زُرْقَةً أَوْ ظُلْمَةً وَإِلَى الْغَمَضِ سَرِيعًا سَتَجِيبُ
 لَعِبِ الضُّوءِ بِهَا لَعْبَتُهُ وَمَضَى عَنْهَا غَرِيبٌ لَغَرِيبٍ !!

نَامَتْ الْأَحْيَاءُ إِلَّا سَاهِرًا رُبَّمَا يُقْبَلُ عُذْرُ النَّائِمِ
 أَصْلُهُ النَّوْمُ وَفِي يَقْظَتِهِ سِنَّةٌ تَحْمِلُ غَيْبَ الْحَالِ
 يُكْمِلُ الْيَقْظَةَ إِذْ يَتْرُكُهَا تَرَكَ مَغْلُوبٍ طَرِيحٍ سَاهِمِ
 غَادَرَ اللَّعْبَةَ قَهْرًا فَرَأَى مُوَكِّبَ الْحَمَقَى بِعَيْنِ الْفَاهِمِ

يَا أَخِي: النَّعْسَانُ فِي اللَّهِ أَنَا سَمَنِي مَا شِئْتَ أَوْ شَاءَ الْكَسَلُ
 حَسْبُنَا أَنْ يَحْضَرَ اللَّهُ هُنَا لِيَقُومَ اللَّهُ عَنَا بِالْعَمَلِ
 نَحْنُ فِي الْمَالِ الَّذِي نَعْبُدُهُ نَقْفِرُ السَّهْلَ إِلَيْهِ وَالْجَبَلَ
 نُؤْثِرُ الْمَالَ عَلَى أَنْفُسِنَا ذَلِكَ الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ يُمَلِّ

ليس سهلاً أن أقسّر علناً أننى فى الكلّ جزءٌ ناطقٌ
أو كمزجان على رُفقتِهِ تحتَ سطحِ البحرِ حى لا يصقُ
إننى نفسى وإِنّى عندها واحدٌ فردٌ فريدٌ خالقٌ !
يرفضُ الكلَّ إذا أغضبته وهو طَوْعُ الحالِ راضٍ حائقٌ !!

ربّنا ضيقنا على أنفسنا مثلما ضاقَ علينا الأفقُ
ما ترى يارب ؟ فى داخلنا خيمَ الليلُ وهاجَ القلقُ
كيف لا ينمو علينا ورقٌ حينَ قد غطّى الوجودُ الورقُ
ثمَّ وصفٌ للذى تشهدهُ إنّه طفوٌ لقومٍ غرقوا !!

كم من الأيامِ مرّت داخلِى ليس فيها الله بل فيها أنا
ذلك القشرُ الذى تجمعه يملأُ الجوَّ ترابًا حولنا
أنا لا أعبدُ بل أمدحُ مثلما أمدحُ شيئًا يُقتنى !
أو شهيرًا خلّصني أعرفهُ فاتنَ البسمَةِ يبدو مثلنا !

كلُّ ما فى على السطحِ يرى دونَ أغوارِ الأسى والكذبِ
حيثُ عاشَ الخوفُ فى مأمِنِهِ وتما الشوكُ خلالَ الحطبِ
هذه الأنجمُ لا تعرفنى فانا ملكٌ لتلك اللّعبِ
ليس لى شىءٌ غلا أحفظهُ وبِهِ أرتاحُ عندَ التعبِ

خَلَّ جَنْبِيكَ لَمَنْ يَعْتَرِكُ واحفظ العهد بفكرٍ حَلَقَا
فَازَ أَحْيَانًا بِمَا يُعْجِبُهُ ويؤايسيه وحينًا أَخَفَقَا
لَمْ يُصَدِّقْ كُلَّ مَا قَابَلَهُ رَبِّمَا آذَاهُ شَيْءٌ صَدَقَا
خُذَّرَ الْفِكْرُ بِمَا صَدَّقَهُ إنه نَوْمٌ بَعِينٌ رَنَقَا

من تراب الطريق

(٤١٧) مقادير (*)

على غير ما ترتيب ، ودون سعى ، فقد كنت قد خضعت لقسطرة تشخيصية علاجية على شرايين القلب التاجية في ٢٤ / ١١ / ٢٠٠٩ ، توجت بتوسيع ووضع دعامة معالجة دوائيا بالوصلة الموصلة للشريان التاجي الخلفي . والمعتاد أن تمدني بعمل معتاد لنحو عامين قبل أن أعاود الكثرة حين يظهر الضيق الجديد المتوقع في إحدى الوصلات التي وضعت في هيوستن بالولايات المتحدة في ١٦ يوليو ١٩٩٠ ، ولكنني تلقيت اتصالاً هاتفياً كريماً من الأستاذ الدكتور حسن صبرى مدير عام مستشفى وادى النيل ، أنه تفضل بحجز موعد لعرضى على الخبير الفرنسى جان فاجيديه الموجود فى مصر يوم ٣٠ / ١ / ٢٠١٠ .

كان ظنى أن العرض تحصيل حاصل ، ولن يجاوز طمأنتى على ما تم فى ٢٤ / ١١ - ولكننى فوجئت بالخبير الفرنسى والأستاذ الدكتور حازم عبد المحسن يعكفان على فيلم القسطرة الأخيرة قرابة ساعة ، لينتهيا إلى تقرير مكتوب بأننى أعانى من قصور مزمن بالدورة التاجية للقلب ، وضيق بالشريان التاجى الأيمن والمحورى ، وأن هذا الشريان الرئيسى - وهو أس المشكلة التى تسببت فى «البابى باس» عام ١٩٩٠ - يحتاج لتوسيع وتركيب دعامة معالجة دوائيا بواسطة الخبير الفرنسى جان فاجيديه .

(*) المال ٣ / ٤ / ٢٠١٠ .

الجديد فى هذا المقترح ، أنه ترك الوصلات التى ركبت فى العملية الجراحية عام ١٩٩٠ ، ويم شطر الشريان الأيمن والمحورى الذى ما كان من الممكن الدخول داخله عام ١٩٩٠ لإجراء توسيع أو وضع دعامات فيه ، فلم يكن ذلك قد شاع بعد ، فكانت «البابى باس» بوضع الوصلات قبل وبعد أماكن الاختناق ، هو الأسلوب المتاح الذى أنجزته العملية الجراحية التى أجريت لى بالولايات المتحدة فى ذلك الأوان .

الجديد إذن أن الخبر الفرنسى يريد أن يدخل إلى شريان محورى اعتُبر من عشرين عاما فى عداد المفقودات ، واستُعيض عنه بالوصلات الجانبية العابرة فوق مناطق الاختناق فيه .. ويبدو أنه دفعه إلى هذا الاختيار الصعب - أن الوصلات القديمة قد تهرأت بعد فوات عمرها الافتراضى بعشر سنوات ، وامتلات تباعاً بالدعامات ، وصارت معرضة لما لا تحمد عقباه ، فأثر الخبر الفرنسى أن يعيد إحياء الشريان الأيمن المحورى ، عسى أن يمنحنى وقتنا إضافيا آخر أمارس فيه حياة معتادة قبل أن يحين أوان الرحيل النهائى الذى ليس منه بد !

فى غرفة نومى بمنزلى برواز تقليدى ، وضعت بداخله كروكى القسطرة التشخيصية الأولى التى أجراها بمصر فى سبتمبر ١٩٨٩ الأستاذ الدكتور جلال السعيد ، ومرسوم عليها كروكى آخر بألوان مميزة بالوصلات الخمسة التى وضعها الطبيب الأمريكى جورج روبرول بمستشفى القديس لوقا فى هيوستن بالولايات المتحدة فى ١٦ يوليو ١٩٩٠ .. أداوم من وقت لآخر على الإطلاع على هذا الكروكى لأستعيد نعمة الله التى وهبني إياها ، وأتاحت لى أن أمارس حياة عادية لعشرين عاما كاملة كان ظنى أن أُنهيأ بعدها للرحيل ،

لم يكن يشغلنى إلا عبارة زكريا الحجاوى : « مش قادر يبقى لى عمر تانى أكمل بيه الرسالة .. » تذكرنى هذه العبارة بقلقى من أن تفوتنى فرصة الوفاء بما بقى فى ذمتى وأريد إنجازه قبل أن أفارق .. لا يزال فى ذمتى إتمام المشروع الفكرى الذى بدأته ، وإتمام العشرين مجلداً من حصاد المحاماة التى لم يظهر منها للآن سوى أحد عشر مجلداً ، ثم لا يزال فى ذمتى أن أكتب عن أبى ﷺ ، وهو يستحق ذلك بكل المقاييس ، وأن أنشر ما كتبه عن بعض الأحبة : سعد زغلول نصار ، وفاروق خورشيد ، ويحيى حقى ، وصلاح عبد الصبور ، وأن أكتب عن محمود حسن إسماعيل الذى وعدت ابنته سلوان قبل أن ترحل أن أكتب عنه ، وفى أمنيى أن أستكمل ما كتبه عن العقاد ، وأن أكتب عن توفيق الحكيم وطه حسين ، وأن أنشر كتابى عن أبى عبيدة بن الجراح ، وأن أتم المجلد السادس والأخير من مطول السيرة النبوية فى رحاب التنزيل الذى أنجزت منه خمسة مجلدات نشرت تباعاً فى روزاليوسف ثم فى المكتب المصرى الحديث ، وربما كتبت لك يوماً عن هذه البواقي التى أتمنى ولا زلت أن أفى بها ، ولكنى خلاف هذا الأمل فى إنجاز مشروعى - لا يعترينى خوف ولا جزع من الرحيل ، مدركاً أن الموت نهاية كل حى ، فما هو إلا كتاب مؤجل إلى ميعاد ، فيقول الوارث الباقي : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون] ، ويقول ﷺ : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف] .

عدت إلى الكروكى بالبرواز القابع إلى جوار مخدعى لأتأمل حال الشريان المحورى الذى يريد الدكتور جان فاجيديه الدخول إليه لإجراء توسيع ووضع ما قدر أنه دعامة واحدة معالجة دوائيا .. فوجدته حافلاً - ما شاء الله !

بالاختناقات .. أولها بأعلاه ٣٠٪ ، ثم ثان بلغ ٦٦٪ ، ثم ثالث وصل إلى ٩٥٪ ، ورابع ٦٠٪ ، وخامس ٩٩٪ - غير تفريعة منه مليئة هي الأخرى باختناقات أحدها ٩٠٪ ، وآخر ١٠٠٪ ، وثالث ٨٠٪ !!

إذن فالشريان الأيمن المحورى المطلوب الدخول إليه ، به خمسة اختناقات حرجة ٣٠٪ ، ٦٦٪ ، ٩٥٪ ، ٦٠٪ ، ٩٩٪ - ودعنا من التفريعة وما فيها !! كعادتي سلمت أمرى إلى الله ، واستلقيت مساء ٢٦ / ٢ / ٢٠١٠ بغرفة العمليات بمستشفى وادى النيل ، مطمئنا بين يدى الرحمن ، والبراعة التى وهبها الله تعالى لهذا الطبيب الفرنسى العبقري . استغرق هذه المرة ثلاثة أضعاف ما يستغرقه فى كل مرة ، ولكنه أنجز مهمة ضخمة لم يكتف فيها بالتوسيع ودعامة ، بل وضع بعد التوسيع - ثلاث دعومات أعادت جريان الدماء فى هذا الشريان المحورى المغلق تماما منذ عام ١٩٩٠ !

ماذا أردت أن أقول لك ؟! إننى بالطبع حمدت الله وسجدت وأسجد له شاكرًا عارفًا حامدًا ، ولكن هذه القصة كلها ذكرتني بقالة جدودنا البسطاء : «العبد فى تفكير والرب فى تدبير» .. إننى ما سعت ولا ربت ، ولكن المقادير هى التى قادتنى بعناية الله ورحمته إلى حيث أراد . فهل بقدرتى أن أفى بما طوفنى به ربى وأسبغه على من فضله ونعمته ؟!

من تراب الطريق

بودلير (*)
وأزهار الشر

(٤١٨)

من مآثر الشاعر عبد الرحمن صدقي ، أنه مع كتابه القيم عن الشاعر
الرجيم شارل بودلير ، ترجم لنا أشعاره من ديوان أزهار الشر .. عن هذا
العمل الضافي ، كنت قد قدمت لصوت العرب ، من نصف قرن ، حلقة
درامية عن الشاعر وشعره .. في برنامج «أدب وأدباء» الذي أخرجه آنذاك
المرحوم مراد كامل ..

لماذا سمي ديوانه بأزهار الشر ، وأطلق عليه : الشاعر الرجيم ؟! هل
هو رجيم حقاً ، وهل أزهاره أزهار شر ؟! .. لقد تركت الإجابة لشعره ،
وتركت المجال لصوت يتنادى في «الصدى» بأشعاره :

أيها القارئ المطمئن الوادع
يارجل الخير ، السليم الطوية ، القانع
اطرح من يدك هذا الكتاب
هذا الكتاب المستهتر الفاجع

إذا كنت لم تتلقن فنون البيان
على النقيب الماكر الشيطان
فاطرح كتابي ، فلت واعيا منه شيئا
أو أنت معتقد بى لوثة العقل والخيال

(*) المال ٢٠١٠ / ٣ / ١٠ .

أما إذا استطاع طرفك - غير مفتون -
أن يسمع في الأغوار
ويغوص في اللجة إلى القرار
إذا فاقرأني تتعلم محبتى

ربما اندهش المتلقى من طمع الشاعر أن ينال محبته أو محبة الناس ، بينما
كان هو الحريص في حياته على لقب «الشاعر الرجيم» .. فهل هو رجيم فعلاً
، أم أن ذلك شبيه بحرص توفيق الحكيم على لقب «عدو المرأة» ، ولم يكن
أبدًا لها عدوًا !! يجينا شعر بودلير :

يا أيتها النفس المتطلعة
أنت يامن تألمين الوجود
وتحومين باحثة عن فردوسك المفقود
إرثى لى ! ... وإلا عليك لعنتى !!

فهل سيرة حياة شارل بودلير تستحضر اللعنات ؟ لقد تولد لديه اعتقاد
من الصغر بأنه كان نكبة لأمه التى أتاها ميلاده بمسوخ شائه قوض ما تنشده
كل أم أن ترزق بطفل جميل .. هو لذلك يرى أن ميلاده كان قضاءً حَمَّ بأمه
، فيقول :

لما حَمَّ القضاء الذى لا راد لحكمه ..
وخرج الشاعر إلى هذه الدنيا العانية الكليلة برغمه
ريعت أمه ، وأخرجها السخط عن طبيعتها
فلوحت للسماء بقبضتها ، والسماء رائية لنكبتها
آه ، ليتنى كنتُ قد ولدت وكُرتُ كاملاً من الحيات

ولم أكن والدة هذا المسخ دون سائر الوالدات ،
ملعونة ، ملعونة بما كان فيها من متاع عابر ،
تلك الليلة التي فيها حملت بطنى العاقر .
بمن كان ميلاده كالمقصاص منى
تكفيراً عن أكبر الكبائر ..

ما كاد الطفل يطل على الحياة ، حتى فقد أباه ، وشاكرته الأيام لتشبعه
شفاءً وعذاباً وضنكا .. ما كاد يستوعب رحيل أبيه ، حتى فاجأته أمه بأنها
ترغب فى الزواج من ضابط شاب صديق للأسرة ، يصغرها سنًا .. دون أن
تأبه بتحفظاته التى أطلقها على استحياء ، فانطلقت أشعاره شجية حزينة .

إنى لأتمثل أمك ، يا وليد هذا العصر الخسيس ، القليل الخير
أتمثلها فى حرصها على إصلاح ما أفسد الدهر .
عاكفة على مرآتها تحكم الطلاء الأبيض على صدرها .
ذلك الصدر الذى أرضعك .

ولكنه على كل ما حاول أن يتجرعه ، صار ضيفاً ثقيلاً بالبيت على
العروسين ، فدفعاه فى رحلة على السفينة «بحار الجنوب» التى أقلعت من
ميناء بوردو بقيادة ربان صديق حميم لزوج أمه ، ميممة فى المحيط شطر سيلان
والهند وكلكتا .. لم يدر البحارة أن مشاعر الصبى الشاعر سوف تتأذى من
فرحهم بصيد أحد طيور «القطرس» .. وهو طائر ضخم من مرتبة الطيور
البحرية الأنبوية الأنف .. تركهم الصبى فى صخبهم الفرح بالطائر الأسير
المعذب ، وطفق ينشد :

كان الملاحون كثيراً ما يلهون

فيقنصون طيور البحر العظام
وهي تابعة مستسلمة مسترسلة كرفيق الطريق
في صحبة السفينة المناسبة فوق لجج الخضم السحيق..
فما هو إلا أن أهوى بعضها على أرض المركب
حتى رأينا هذا الملك من ملوك الأجواء في حال شواء
وأجنحته البيض الطوال مسلوقة الكبرياء
يجرها إلى جانبيه كالمجاديف
ذلكم فارس الهواء ، ما أسمع ما صار إليه ، وما أهونه .



كذلك الشاعر ، أشبه الأحياء ، بأمر الأجواء
يقتحم العواصف ولا يبالي الرماة وهو في أوج السماء
ولكنه على الأرض غريب طريد ، ومعرض استهزاء وهوان
يمشى متعثرا الخطو ، يعوقه عن المشى ، جناحه الجبارا ..



هذا الشاعر البائس لم تفسح له الحياة ، فطارده الموت وهو في الأربعين ،
لا يرى ما يراه الناس أن حياته قصيرة ، فهي عنده طويلة بطول ما عاناه فيها
.. ينشد في حزن :

أنا الجرح والسكين
أنا الطاعن والطمع
ياموت .. أيها الملاك المحنك ، الموكل بسفر الأرواح
آن الأوان . فارفع المراسى ، وهَيِّ لنا الرحيل

مللنا المقام هنا - يا موت ! ... فعجّل الرواح
وإن يكن - أيها الملاح ! - قد اذلهم أمامك البحر والسماء
فإن نفوسنا التي ألت بها - يشع منها الضياء

درينى خشبة (*)
وتاريخ المسرح
في ثلاثة آلاف سنة

(٤١٩)

من
تراب
الطريق

درينى خشبة .. هل تذكرونه ؟ لقد رحل عن دنيا منذ أكثر من نصف قرن بعد أن ملأ الدنيا بإنتاجه المتميز ، وبرحيله انقطعت الكتابات النظرية عن المسرح : تاريخه وقواعده وأصوله وفنونه .. كان درينى خشبة الأب الحقيقى للدراسات المسرحية .. درينى خشبة اسم كبير جدا فى عالم المسرح ، كان المصدر الأساسى الذى اعتمدت عليه ثقافتنا المسرحية فى الستينيات ، مؤلفا ومترجما ، ألف كتابه المتميز : « أشهر المذاهب المسرحية » - مشفوعا بنماذج من أشهر المسرحيات لكل مذهب .. الكلاسى ومن تطبيقاته التى أورد تلخيصا لها من المأسى اليونانية : أوديب ملكا لسوفوكليس ، ومأساة هيبوليت ليوريديز ، ومن الملهاة : الضفادع لأرستوفان ، والتوأمان لبلوتس ، والشقيقتان لتيراتس . والمذهب الكلاسى الحديث ، ومن أعلامه راسين وبيير كوردينى ، ومن مسرحياته التى لخصها : مأساة فاوست لجوته ، ومأساة وليم شيلر .. والمذهب الرومانسى ودور مارلو وشكسبير ، والمذهب الرومانسى الحديث ومأساة هرنانى لفيككتور هوجو .. والمذهب الطبيعى وتفرعه عن المذهب الواقعى . نشأة المذهب الواقعى والفرق بينه وبين المذهب الطبيعى ، وزعماء المذهب الواقعى : ستندال وبلزاك وفلوبير ، وأعلام المذهب الطبيعى فى القصة الفرنسية : إميل زولا وموباسان وألفونس دوديه ، وتولستوى والمذهب الطبيعى فى المسرح ، ونماذج من مسرحياته

(*) المال ١١/٣/٢٠١٠ .

وغيره .. المذهب الرمزي ومسرحيات رمزية لابسن (براند ، بيرجنت) ..
والمذهب التعبيري ، سماته ومسرحية الإمبراطور جونس كنموذج له
للكاتب الأمريكى أوجين أونيل .. والمذهب السريالى ، ومسرحية قلبى فى
بلاد الأحلام للكاتب الأمريكى وليم ساروين .. والمذهب الصوفى ونماذج
من مسرحياته الدينية والأخلاقية : مسرحيات لليدى أوجستا جريجورى
ولوليم بتلر بيتس : مسرحية الساعة الرملية ، ومسرحية حيث لا شىء ..
ومسرحية «كل حى» .. وهى مسرحية أخلاقية من عصر النهضة لكاتب
مجهول .. والمذهب الوجودى ومن أعلامه سارتر ، ومسرحيته المعروفة :
«الله والشیطان» . من طرائف ما يقال أننى اشتريت هذا الكتاب المكون من
٣٢٠ صفحة بالقطع الكبير عام ١٩٦١ بجنيه واحد، فانظر كيف صارت
مهمة شبابنا شاقة بالغة التكلفة لاقتناء الكتاب فى الوقت الحاضر .

ترجم درينى خشبة للمكتبة المسرحية : «عالم المسرحية» تأليف لاروس
نيكول، ونشرت الترجمة ١٩٥٨ فى ٤٠٠ صفحة، وكتاب : «فى الفن المسرحى»
تأليف إدوارد جوردون كريج ، وصدرت طبعته الثانية ١٩٦٠ برقم (٦٣)
بجنيه واحد ضمن مجموعة الألف كتاب (الأولى) ، وترجم الكتاب الذى
أحدثك عنه اليوم : «تاريخ المسرح فى ثلاثة آلاف سنة» لشلدون تشينى -
الجزء الأول فى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير - ١٩٦٣ .

من حسن الحظ أنه قبل رحيل درينى خشبة أتخف المكتبة المسرحية
العربية بترجمة شاملة للمجلد الأول لهذا الكتاب للنقاد المسرحى الأمريكى
المعروف شلدون تشينى : «تاريخ المسرح فى ثلاثة آلاف سنة» .. كان فى نية
درينى خشبة أن يتبعه بترجمة المجلد الثانى لولا أن وافته المنية ، وكان ظنى أن
يتسلم أحد الراية ويتابع استكمال هذا العمل الجليل .

على كثرة الكتب التى وضعت عن المسرح ، فلم يجمع كتاب من فنونه ما جمعه كتاب شلدون تشينى الذى ترجمه لنا درينى خشبة . هو خيط عام ضم كل فنون المسرح وأساسه وخلفيته وعناصره عبر ثلاثة آلاف سنة .. وهى على تعددها فنون متكاملة .. يكمل بعضها بعضا .. ولا يمكن أن ينقسم أحدها عن باقى العناصر .

الممثل هو أول من يطالعه المتفرج على المسرح .. هذا الممثل ليس محض موهبة فى التشخيص أو التمثيل ، بل يحتاج الممثل المسرحى الحقيقى إلى معرفة جيدة بتاريخ المسرح منذ نشأته ، وبنشأة وتطور التمثيل فيه منذ كان رقصا بدائيا وإنشادا بدائيا .. وتطوره بعد ذلك خطوة خطوة إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن .. لم يكن هذا التطور منفصلا عن تطور المسرحية ذاتها وما طرأ عليها فى كل عصر حتى العصر الحاضر .

إمام المخرج المسرحى بذلك كله ، يجب أن يكون أعرض .. فعلى أكتافه يقوم تجسيد كافة الأدوار والعناصر المسرحية ، فهو المهندس المسرحى الأكبر الذى يرسم كل شئ ، ويضع لكل حركة تقديرها ووسائلها ومصاحباتها ومؤثراتها ، ويخلق الجو الذى تعيش فيه كلها .. المنصة ، صالة المتفرجين ، ومضات الإضاءة ، الديكور ، هندسة الصوت ، المؤثرات .. وغير ذلك كثير يحتاج من المخرج أن يكون على إمام بتطور فنون المسرح فى كل ذلك عبر عصور التاريخ المسرحى .. كذلك مساعده وأعوانه حتى عمال النظافة .. فكل واحد من هذا العالم المشغول بتجسيد وتهيئة المسرحية ، ينبغى أن يعرف صلة التمثيل بالمنظر ، والمنظر بالإضاءة ، وصلة الإضاءة والمنظر والتمثيل - بخلق المزاج النفسى والجو العام .. وصلة الحركة التى تجرى وسط هذا كله بهذا كله .

كاتب المسرح لا يمكن أن ينهض بكتابة المسرحية ما لم يكن ملما بكل هذه العناصر والفنون .. لن يكون بمستطاعه أن يصل بغير ذلك إلى روح الفن المسرحي المتكامل ، ولا إلى كتابة المسرحية الفنية والمتكاملة التي يربط التناسب بين أجزائها .. لذلك كان أعظم كتاب المسرح هم الذين شبوا في أكنافه وتربوا في أحضانه ونهلوا مباشرة من موارده .. ويكفيك أن تتابع اهتمامات توفيق الحكيم المبكرة بكواليس المسرح ، أو نشأة بديع خيرى وأترابه في أكناف المسرح ، لتقتنع بأن الكاتب المسرحى هو ابن للتربة المسرحية إن جاز التعبير .

لا يكتب الكاتب المسرحى منفصلا عن عناصر المسرح وأطرافه وإمكانياته .. تجد في حساباته كل صغيرة وكبيرة مما يمكن أو لا يمكن تنفيذه على منصة المسرح .. الكل حاضر في وجدانه وهو يخطط كل فصل وكل مشهد : المنصة ، الديكور ، الإضاءة ، المؤثرات ، الممثل ، المصور ، المصمم ، المهندس ، الملحن ..

في إحاطة شاملة قدم كتاب «تاريخ المسرح في ثلاثة آلاف سنة» - موكبا حاشدا لتطور المسرحية والتمثيل والإخراج والمناظر المسرحية ، وعن تطور المذاهب الفنية والفلسفية المختلفة التى طرأت على هذا كله عبر ثلاثة آلاف سنة ، رابطا بين هذه العناصر ربطا شائقا يضم عشرات الصور والرسوم التى تزيد البحث بيانا وتقدم صورة حية لما حفل به هذا التاريخ الحاشد الضخم من أحداث وتطورات ، عبر الزمان والمكان .

خذ الممثل مثلا .. هذا الوسيط الإنسانى الذى تحدثنا المسرحية بلسانه ، والذى يضيف على الفن نضرة وعمقه وإنسانيته .. إن تاريخ الممثل فى العمل

المسرحى شاهد على كونه جسرا عبر بالعمل المسرحى من ماضيه السحيق إلى الحاضر ، وقصته فى التمثيل توضح حقائق تنطبق على جميع الفنون المسرحية ، ويستشهد تشينى على ذلك بالمحاولات التى بلغت حد المروق عن الطرق التقليدية للاتجاه نحو المذهب الطبيعى ، والتى يلاحظها المتابع للمسرح اليونانى كما يلاحظها فى غيره .

ففى بلاد اليونان كان فن التمثيل المسرحى يتألف من فخامة أسرة فى الإشارة والحركة مضافا إليها جمال النطق والإلقاء الصحيح السليم ، مصحوبا بالتأنى والقوة .. وعلى مسرح واسع شاسع ، يختبئ وجه الممثل تحت قناع فضلا عن الملابس الفضفاضة الثقيلة والأحذية ذات النعال الكبيرة .

ومع تغير هذه الأحوال ، ومجىء الأنوار الكهربائية آخر الأمر ، بدأ التمثيل المسرحى يهجر شيئا فشيئا هذه الطرق التقليدية ، ويقبل على الأسلوب الطبيعى ، ويترك التصوير الزائف المصطنع وفن المحاكاة - حتى وصل إلى التصوير الفوتوغرافى وصار أكثر إنسانية وأقرب إلى الواقع وأشبه بالحياة المألوفة فى زمانه .

كان هذا هو أيضا شأن المسرحية . كانت هناك ذات الهوة التى تفصل بين التمثيلية بأعماقها العاطفية التى يمكن أن ينتهى مداها ، وشعرها الجميل الشائق ، ومن قبله الرقص والإنشاد البدائيان ، واللذان كانا الخطوة الأولى نحو الفنون والبذرة الأولى للمسرح - وبين تمثيلات زماننا بكل مقاييسها ومعاييرها الحالية .

من نصف قرن عشت نشوة غامرة مع صفحات هذا الكتاب المشبع في
كافة فنون المسرح ، ولم أعثر - ولعله لم يصادفنى - على ترجمة المجلد الثانى
لإتمام هذا العمل الجليل الذى أنجزه الأستاذ درينى خشبة من أكثر من
نصف قرن ، استكمالا لهذه المهمة التى تسد فراغاً مطلوباً ملؤه فى مكتبتنا
المسرحية !



من تراب الطريق

(٤٢٠) الوقت والهالك القومي^(*)

تستطيع أن تعرف الفرد ، وأن تعرف المجتمع ، من مقدار احترامه أو إهماله أو تبديده للوقت ، فالوقت يقف على رأس مجموعة القيم التي ترتد إليها كل أوجه النشاط والعمل والإنتاج .. فكل ناتج هو حصاد عمل مبذول خلال وقت .. وإهلاك الوقت هو تبديد للطاقات والقوى والثروة .. الطاقات المعطلة تبديد حقيقى للثروة الموجودة وللثروة المأمولة ، لذلك تجد شركات الطيران تحسب تشغيل أسطول طائراتها بالساعة والدقيقة ، ولا تترك طائرة واحدة في حالة توقف عن الطيران ، فذلك محذور إلا أن يكون - وفى ألزم الحدود - لأغراض التموين والتحميل ، للركاب أو البضائع .. فساعات التوقف بدد وإهلاك ، وحرمان من عائد التشغيل الذى هو قوام الطيران . ما يصدق على الطائرة ، يصدق على كل آلة منتجة ، ويصدق أكثر على الإنسان ، فهو الأصل الذى تتجمع فيه كل القوى والطاقات والإبداعات ، وإضاعة وقته هى إضاعة وتبديد لطاقته وقدراته وعطائه ، وإهدار غير مرئى للياقته الروحية والنفسية والبدنية ، وإعدام لإحساسه بقيمته وبقيمه ما يقدمه أو يمكن أن يقدمه ، وإشاعة لكل سلبات القعود والخبو والتعطل والبلادة ، وهو ما ينعكس بالحثم والضرورة على مجمل الأداء العام فى أى مرفق من المرافق .

(*) المال ٢٠١٠ / ٣ / ١٥ .

فى كثير من الدول الغربية تحدد مواعيد نظر كل قضية بالساعة التى ستنظر فيها القضية فى اليوم المحدد لها ، فلا يضيع وقت المحامين ولا وقت المتقاضين فى الذهاب إلى المحكمة أو ما يقابلها والانتظار لساعات مبددة قبل النداء على القضية . وإلى الآن تستطيع أن تضبط ساعتك على مؤشر الساعة التاسعة فى اللحظة التى يتم فيها افتتاح جلسات جميع دوائر محكمة النقض المصرية .. الجنائية والمدنية . وعلى مدى نصف وخمسين عاما فى المحاماة لم أجد دائرة من دوائر محكمة النقض تتأخر ولو خمس دقائق عن ميقات الساعة التاسعة صباحا الذى اعتادت افتتاح جلسات كافة دوائرها فيه .

وكان النظام قريبا من هذا الالتزام بياقى المحاكم الجنائية والمدنية بطول مصر وعرضها ، ولا زلت أذكر كيف كان بعض المستشارين رؤساء دوائر الجنايات يعتذرون للمحامين إذا تأخر افتتاح الجلسة دقائق ولو قليلة عن الموعد المحدد .

ومع مرور الزمن ، استجدت مستجدات ، وإن نجت منها مواقيت محكمة النقض ، إلا أنها غيرت التقاليد المتبعة فى باقى المحاكم المدنية والجنائية ، فقد ازدحم رول القضايا ازدحاما هائلا يعوق القدرة البشرية للقضاة على الأداء وبذل الوقت اللازم والجهد المطلوب - لفهم كل قضية والنظر والبث فيها ، ومع الازدحام - شأن جميع الازدحامات - تأكلت مع الوقت كثير من التقاليد ، فلم تعد القاعات التى أعدتها الدولة لنظر القضايا مستخدمة فى كل الوقت ، هروبا من أنفاس المتزاحمين وشيوع الاختناق مع قلة التهوية فى القاعات ، وآثرت بعض الدوائر العمل فى غرف المداولة حيث الظروف المناخية وغيرها أفسح وأسهل ، ودون ما قصد متعمد جعل ذلك يأكل من

تقاليد نظام ونظر القضايا بالجلسات ، سواء بالنسبة للحضور والمثول ، أو بالنسبة لمبدأ العلنية ، وما يوفره هذا المبدأ الأصولى من ضمانات للمتقاضين ومحاميهم . ومع انتقال الجلسات من قاعاتها المهيأة المعدة لها ، إلى غرف المداولة المغلقة أبوابها ، بدأ نظام المواعيد يختل ، وصار من الممكن أحيانا أن تنصرم ساعات هالكة بلا عمل بالنسبة للمتظرين بدء المناذاة على افتتاح الجلسة ، أو المناذاة على القضية التالية لقضية نظرت مضى على نظرها فترة ليست بالقليلة !

كتبت لك هذه السطور وأنا بقاعة جلسة إحدى محاكم الجنايات بالقاهرة ، والقضية التى أحضر فيها هى أولى القضايا فى الرول - أى قائمة ترتيب نظر القضايا ، ولكن بعض المتهمين فيها مفرج عنهم وهؤلاء حضروا فى الميعاد ، أما المحاييس فقد تأخر السجن فى إرسالهم كعادة السجون المزدحمة بالمساجين فى الوقت الراهن . ترتب على ذلك أن نودى على القضية التى تليها ، ثم التى بعدها ، فلما حضر المتهمون فى القضية التى أحضر فيها - لم تر المحكمة الموقرة أن تقطع الترتيب الذى بدأت بالفعل فيه ، ومضت الساعات ساعة تلو الساعة ، من التاسعة إلى العاشرة ، ومن العاشرة إلى الحادية عشرة ، ثم إلى الثانية عشرة ، ثم إلى الساعة الواحدة ظهرا ، فلما تجاوزت الساعة الثانية بعد الظهر وشعرت بالملل ومهانة وقتى الذى يضيع هكذا بدداً بغير فائدة ، أخرجت من حقييتي أوراقا وطفقت أكتب هذه الكلمات .

لقد أبدت لبعض الدوائر أن نظام الحبس الاحتياطي قد جعل يأتي بعكس حكمته والرجو منه ، فالمفرج عنه هو الذى يصل لقاعة الجلسة فى موعده ، ولا يتأخر إلا المحبوس الذى يترأخى السجن أو يتأخر فى إرساله ،

وزدت على ذلك أنه لو عاقبت المحكمة مسئول السجن المتسبب في تأخير إرسال المساجين ، لانصلح الحال وتوقفت هذه التجاوزات التى تذهب بأوقات العشرات بددا بغير قيمة !!

لقد نيفت الآن على السبعين ، وكنت أؤدى من خمسين عاما فى ظروف أفضل كثيرا من الظروف التى صرت أؤدى فيها الآن ، ولم يعد فى طاقة عمري احتياها ، فهل يمكن إعادة النظر فيما صرنا إليه لنعود إلى ما كنا عليه ؟!

من تراب الطريق

بين اعتناق الرأي^(*) واخراج اللسان!

(٤٢١)

أن تكون صاحب رأى فهذا حقك ، وأن تدافع عنه فهذا واجبك ..
فالرأى يلزم صاحبه بإبدائه والترويج له والذود عنه وصد أى اعتراضات
عليه . هذا منطق لا يختلف عليه أحد .. فى أى مجال وفى أى موضع وفى أى
اتجاه أو إطار . فحين تنتصر لمرشح رئاسى أو برلمانى أو شعبى أو محلى أو نقابى ،
فالفرض أنك تنتصر لرأى قد تَكُونُ لديك بمقوماته الموضوعية العاطفية
والنفسية ، بحيث صرت ترى أن مرشحك هو أصلح وأكفأ وأقدر المرشحين
لشغل الموقع الجارى التنافس عليه بين المرشحين . وحين تشجع نادياً بعامة
أو فى لعبة خاصة ككرة القدم مثلاً ، فالفرض أنك تحب هذا النادى وتشجع
وتنتصر له لأن له فى نفسك وبحكم حاضره وتاريخه موقعا جعلك من عشاقه
المتشيعين المتحمسين له ، لا نكايه أو إغاظه للأندية الأخرى ، وإنما عن اقتناع
بأنه النادى الأفضل والأجدر بتقديم الرياضة أو اللعبة أو اللعبات وتحقيق
الانتصارات ورفع المستوى الذى يصب فى النهاية فى مصلحة الرياضة
والمنتخبات القومية . وحين تعتنق ديناً ، فلايمانك به ويأنه رسالة السماء
واقترانك بصدق ومثانة وشمول وضبط وانتظام أحكامه وقواعده وسنته
وأخلاقياته . نعم . أنت تراه أجدر باقتناعك هذا - من الأديان الأخرى ،
وهذا مفهوم ، لأن إيمانك بالدين الذى آمنت به يعنى أن الأديان الأخرى لم
تدخل دائرة اقتناعك ولم تؤمن من ثم بها . ولكن ليس معنى هذا أن اعتناقك

(*) المال ١٧/٣/ ٢٠١٠ .

الدين الذى آمنت به ، ليس له غرض ولا غاية ولا هدف سوى إخراج اللسان
للأديان الأخرى وأهلها ، ومهاجرتها عمال على بطلان ، وإيذاء مشاعر الآخرين
لغير حكمة أو علة يرتضيها ويقبلها العقل والمنطق . وأنت حين تحب عباس
العقاد وتقبل على قراءته ، فليس ذلك كراهة في طه حسين ، أو إهمالاً لشأن
توفيق الحكيم ويحيى حقى ، والعكس صحيح . وأنت حين تعشق سباع محمد
عبد الوهاب وتقدر أستاذيته وعبقريته وعظيم موهبته وتطرب له ، فليس
الغرض أن تخرج لسانك لباقي الموسيقيين والمبدعين والمطربين . وحين
تطرب لأم كلثوم ، فلا معنى لطربك لصوتها - إذا كان لمجرد إغاظة من لا
يطرب لها أو يطرب لفيروز أو أحلام أو ليلي مراد .. والعكس صحيح .

هذه الاستطرادات لا تنتهى ، بمعنى أن الأمثلة قابلة للتعداد بغير
حصر ، والذى استحضر ذلك ما صرت ألاحظه على الناس في بلادى ،
أنهم التفتوا عن اعتناق الرأى ومقتضياته ، وغلبت عليهم الرغبة في الإغاظة
وإخراج اللسان ، وهى رغبة أيا كانت دوافعها مريضة سقيمة .. وتُسمى
أكثر سقما حين تغلب على الاقتناع الموضوعى الذى ينهض على مقومات
وعناصر وأسباب . وجه الخطر في اختلال البوصلة وغلبة الرغبة في الإغاظة
على المعايير الموضوعية - أنك يمكن في المنافسات الانتخابية مثلا أن تترك
الصالح أو الأصلح لمجرد الإغاظة وإخراج اللسان ، وتشايح وتصفق
وتنتصر للمرجوح على ما فيه من عيوب أو افتقار للصلاحية . خذ رئاسة
مصر مثلا لترى حجم الهوة السحيقة التى تردينا فيها فيما اختلط فيه الحابل
بالنابل بلا رؤية ولا عقل ولا منطق . أن ترى وجوب التغيير فهذا حقك ، وأن
تدافع عن هذا الرأى وتدعو لفتح فرص الترشيح بلا تضيق ولا متاريس ،

فهذا واجبك وواجبي وواجب كل مصرى محب لبلده . ولكن هذا لا يعنى أن أروج أو أنتصر أو أدعو لمن لا كفاءة ولا صلاحية ولا جدارة له يتبوأ بها هذا الموقع الرفيع . وقد جرى هذا ولا يزال يجرى - باستثناء الدكتور محمد البرادعى - ترويجاً أو دعوة لأشخاص لا يليق بعامل أن يطرح واحداً منهم ليكون رئيساً للجمهورية المصرية . والأدهى أن تبلغ الرغبة فى الإغابة أو إخراج اللسان ، إسقاط وتجاهل ما تفرضه صحيفة السوابق أو الحالة الجنائية التى تمنع من الترشيح حتى لو عدلت المادة ٧٦ من الدستور ، لأن الشرط متعلق بمباشرة الحقوق السياسية بعامة ، ناهيك برئاسة جمهورية مصر بخاصة . صرنا نرى من يشجع الزمالك ويكى ويقول متشنجا إنه قد صار له الآن أبا وأما ، وكأنه كان يتيماً أو لطيماً أو لقيطاً . يفعل ذلك ويبالغ فى تصنعه لغرض فى نفسه لمجرد إغابة الأهل وإخراج اللسان للأهلية ، والعكس . وهذه الإغابة لا تبنى فريقاً ولا تنهض بناً ولا تصلح اعوجاجاً . الانصراف إلى إصلاح ما نحبه ونتنصر ونتشيع له - هو الأجدر بمنفعته واستقامة مسيرته ما دامت مقاصد إدارته قد صلحت واستقامت .

أخشى أن أقول إن الإغابة وإخراج اللسان من باب النكاية - قد صارت ظاهرة مرضية ضربت فى كل باب ، ومعنى ذلك أننا قد انصرفنا عن الواجب الذى علينا أن نلتفت إليه ونعتنقه بصدق وموضوعية ونؤديه ونرعاه ونقومه ونخدمه وننميه ونكرسه وندعمه ونقويه - تركنا ذلك إلى تنفيسات مرضية كليلة ضريرة عمياء تحمل بداخلها معاول هدمها الذاتية ، مثل نيران الحسد التى تأكل الحاسد قبل أن تمس المحسود . ما معنى ذلك ؟! معناه أن العقل غافل ، والوعى غائب ، والقدوة توارت ، وصارت الأمور لأصحاب اللغو والطبل والزمر وعشاق الهيفة والتفاهة أينما كانت !!

من تراب الطريق

مصاب جلل (*)

(٤٢٢)

(١)

قد طال شتاء الأحران ، لا يكاد يمضى يوم إلا وأفقد أخا أو أختا أو صديقاً أو عزيزاً أو حبيباً .. إن لم يكن بالموت فبالفراق .. وكم من فراق للقلوب أشد وقعا وإيلاما من رحيل الأجساد .. ما كدت أجفف الدموع على الراحلين الذين تتابعوا في العام الأخير - حتى فقدت بالأمس أعز الأحباب .. الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر .. دامت محبتي وإياه سنوات كان فيها الأخ الأكبر ، والصديق الحبيب ، الناصح الرفيق ، ملأ بأنس صداقته ومحبة حياتي ، وأشعرنى دوما أن الدنيا بخير ما بقى فيها أمثاله .. كان رحمه الله على عكس ما ظن به المتظنون ، يقف بالمرصاد وبقوة لا تلين في وجه أى محاولة أيا كان مصدرها للعبث أو التعديل أو التحوير أو التغيير في الأصول والثوابت الدينية .. لا يلين أبداً في الحق الذى يعتقده ويؤمن به ، ولكنه كإنسان - فياض المحبة والدماء والرفق واللين والتواضع .. ما أرسلت إليه أحداً مهما صغر شأنه في أعراف الناس ، إلا استقبله بنفسه في مكتبه محتفياً به مكرماً إياه في تواضع ورفق ودماء لم أرها إلا في أولياء الله الصالحين . كان يحدثنى تليفونيا قبل يوم واحد من وفاته في شأن إحدى القضايا العامة التى يصطنعها من يدعون احتكار الدين ، وتطرق الحديث إلى رغبته الكريمة فى الاطمئنان على ما أجرى لى بشريان

القلب الرئيسى يوم ٢٦/٢/٢٠١٠ وقيام الخير الفرنسى جان فاجيديه بتوسيعه ووضع ثلاث دعامات بالشريان معالجة دوائيا .. كان هذا الخير ذاته هو الذى عالج فى مايو ٢٠٠٧ شرايين الإمام الأكبر الذى روى لى أنه وضع له يومها أربع دعامات بالشرايين التاجية ، وكنت قد عرفت ذلك آنذاك بالصدفة ، حين عرضت بذات المستشفى - بعده بيومين - على ذات الخير الفرنسى الذى وضع لى يومها دعامتين بإحدى وصلات الشرايين التاجية . الذى لم أكن أعلمه ، وعرفته عرضاً فى حديثنا التليفونى قبيل وفاته بيوم ، أن الدعامات الأربعة كلفته (١١٨) ألف جنيه . لم تكن الغرابة فى قيمة التكلفة ، فمعروف أنها باهظة ، ولكن الذى أدهشنى أن فضيلة الإمام الأكبر دفع هذا المبلغ من ماله الخاص ، وأبى أن يحمله على ميزانية الأزهر الشريف الذى يتبوأ مشيخته الكبرى من سنوات ، ويقدم له جليل الخدمات والأعمال . وجدتنى وأنا أسمع هذا الحديث أقارن بمن جعلوا العلاج على نفقة الدولة تجارة يتكسبون بها من المرضى ذوى الحاجة إلى العلاج !

لن تدهش إذن على حزنى الدفين لفراق الصديق الحبيب الإمام الأكبر رحمه الله ، بيد أن الخسارة فيه - وهى فادحة بكل المقاييس - لم تقتصر على ألى الشخصى ، ولا على وجيعة وألم وحزن محبيه - وهم كثر .. ذلك أن الخسارة العامة فى رحيله - خسارة فادحة لا تعوّض ، فمن الصعب أن يُملأ بسهولة المكان الذى كان يشغله فى خدمة الدعوة الإسلامية بعامة ، والأزهر الشريف بخاصة . وأنا شاهدٌ على ذلك عبر سنوات طويلة ، تابعت وشاركت وراقبت رئاسته وإدارته وحواراته وحجته وأدبه وصبره فى مجمع البحوث الإسلامية ، وزاملته متحدثاً فى بعض البرامج الدينية على الهواء ، فكان العالم المتضرع المبتهل واسع العلم جم الأدب والتواضع ، يلقي بما لديه هيناً ليناً لا كِبَر فيه

ولا صلافة ولا عجب ولا خيلاء .. تحسبه من العامة من فرط بساطته ولينه وتواضعه . ومع أنه كان شديداً فيما يمس الدين أو الكرامة ، إلا أنني لم أراه قط يضيق أو يعنف بالرأى الآخر مهما خلط أو شرد أو اشتط ، وإنما يعالجه في رفق ولين ومنطق وحجة دون أن يفقد تواضع وأدب العبارة .. لا يجادل أحداً إلا بالحكمة والموعظة الحسنة .. تراه تجسيدا لقول الحق تبارك وتعالى لنبيه المصطفى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

كان ﷺ يعيش عمله ، ويعود من المطار أو من الأسفار البعيدة مباشرة إلى مكتبه ليستأنف أداء واجباته ، ومن يتابع خط سير وبرنامج عمل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور طنطاوى خلال الأسبوعين الأخيرين ، يدرك مدى الجهود الخارقة التى كان يبذلها الفقيد الجليل ولا يتحملها أشد الرجال قوة وشبابا ، فالأزمة القلبية التى داهمته بمطار الرياض كانت من آثار ما بذله من جهود مضنية على مدار أسبوعين . فمنذ ٢٢-٢٥ فبراير شارك فى حضور مناقشات مؤتمر مقاصد الشريعة الإسلامية وقضايا العصر ، ثم ترأس وساهم فى جلسات مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية منذ ٢٧ فبراير ٢٠١٠ ، ثم فى الاحتفال بتكريم الفائزين فى مسابقة المولد النبوى الشريف ، وأشرف معى شخصيا على قضية أوكلها إلى ارتأى أنها تمس سواء العمل وإيقاف أى تجرؤ على محررات الأزهر الشريف وانتظام أدائه ، وجعل يرتب فى الوقت نفسه لانعقاد مجمع البحوث الإسلامية الذى كان مقررا لانعقاده صباح الخميس ٣/١١ وحالت وفاته دون انعقاده ، ولم يغادر إلى المطار يوم سفره إلى السعودية لتوزيع جوائز الملك فيصل للخدمة الإسلام ، إلا بعد أن ألقى محاضرته بجامعة الأزهر على طلبة الدراسات العليا ، ثم أنجز بعض

الأوراق الإدارية قبل أن يتجه إلى المطار ومنه إلى السعودية ، حيث أمضى الساعات الشاقة الأخيرة التي سبقت إصابته بالأزمة القلبية التي داهمته وهو في طريقه لصعود الطائرة ، ليموت حيث أراد الله تعالى .

من آيات رضا ربه ، أن تصعد روحه الطاهرة إلى بارئها في الأراضى المقدسة ، وأن يدفن هناك في البقيع إلى جوار الصحابة الأبرار الذين أحبههم وناضل من أجل الرد على أية إساءة توجه إلى أى منهم .

من تراب الطريق

(٤٢٣)

مصاب جلد^(١)

(٢)

في أحد الأيام عام ٢٠٠٢ ، وكنت عاكفًا على إنجاز كتاب عالمية الإسلام ، احتجت إلى كتاب السياسة الشرعية لأستاذنا الجليل الشيخ عبد الوهاب خلاف ، ولم يكن في مكتبتى ، وعجزت تمامًا عن الحصول على نسخة منه مع شدة حاجتى إليه ، فاتصلت تليفونيا بالإمام الأكبر الشيخ طنطاوى ، أرجوه إن كان الكتاب لديه أن يعيرنى إياه متعهدًا برده فى نفس اليوم بعد تصويره . فوعدنى مشكورًا بالبحث عنه ، ولم تمض سوى سويّعات حتى فوجئت بهذا الشيخ الجليل وقد بعث إلى بالكتاب الذى يبدو أنه أخرجه من مكتبته الخاصة ، وحتى يرفع بفضلـه وكرمه أى شبهة لمعنى الإعارة واجبة الرد ، إذ بى أجد على صفحته الأولى بخط الإمام الأكبر «بسم الله الرحمن الرحيم . هدية للسيد الفاضل والصدىـق العزيز محمد رجائى عطيه . مع خالص الشكر والتقدير» . محمد طنطاوى ٢٠٠٢ / ٩ / ٣٠ . كنت قد نسيت هذه القصة وأنا أكتب هذا الرثاء ، وبعد أن فرغت بالفعل من كتابته ، وأثناء بحثى بمكتبتى عن رسالة التوحيد للإمام محمد عبده استكمالاً لموضوع أكتبه للأهرام فى التوحيد والوحدانية ، وجدت أمامى بمحض الصدفة - أو لتدبير أرادـه الله - نسخة كتاب السياسة الشرعية للشيخ عبد الوهاب خلاف ، فترحت عليه وعلى الإمام محمد سيد طنطاوى الذى تفضل علىّ به من ثماني سنوات ، وما إن شرعت فى تصفحه حتى وجدت كلمات الفقيه الجليل الراحل التى

(*) المال ٢٠١٠ / ٣ / ١

نقلتها إليك ، لتتسأل دموعي سيالة على فضل وكرم وصدق وأخوة ومحبة وتواضع هذا الإمام الجليل الذي بأدبه الجم أراد أن يعفيني من رد الكتاب ، ثم زاد فأسبغ عليّ ما أشعر بعميق الامتنان لتفضله عليّ به .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فإن هذه القصة التي عدت بها إلى السطور التي كنت قد فرغت منها ، ذكرتني بقصة أخرى من نحو عشر سنوات ، دالة على جميل أدبه وفيض تواضعه .. حين وسطني الأستاذ عماد أديب لأنال موافقته على الحديث عن الوصية وأبعادها وما تثيره ، في برنامج الشهر «على الهواء» .. تفضل الإمام الأكبر وقبل وساطتي ، وذهبت في صحبته من باب الأدب والاحترام لمقامه الجليل ، وفي الاستوديو انتفض فضيلته معترضا حين فهم أنني لن أظهر معه في الحديث ، وعبثا ذهبت سدى كافة محاولاتي إقناعه أنه لا يجوز لأحد مهما كان قدره أن يظهر إلى جواره نيتحدث معه في الإسلام ، فهو شيخ الإسلام ، وإمامه الأكبر ، وليس يليق أن أظهر معه ناهيك عن أن أتحدث فيما سوف يتحدث فيه ويتلقى الأسئلة عنه ، ولكن كل محاولاتي ذهبت سدى ، وحسمها فضيلته بقسم مغلط أنه لن يظهر ولن يتحدث ما لم أظهر معه وأتحدث إلى جواره . وقد كان له ما أراد .

لقد ترك فضيلة الإمام الأكبر الدكتور طنطاوي ، يرحمه الله ، مكتبة إسلامية كاملة في التفسير والأحكام الشرعية ، وفي الفقه الميسر ، وبنو إسرائيل في الكتاب والسنة ، والمرأة في الإسلام ، والحجاب والتصوف ، والرؤية الشرعية للجهاد ، ومعاملات البنوك ، وفي مقدمتها تفسيره الوسيط للقرآن المجيد الذي تفضل بإهدائه لي في خمسة عشر مجلداً ، وبلغ من دمائه وأريجته وهو شيخ الأزهر الشريف ولم أكن حتى قد انتخبت لعضوية مجمع

البحوث الإسلامية ، أن كتب إهداءً بخط يده الكريمة أريد أن أضعه أمام القارئ ليرى كيف كان تواضع ودماثة هذا الإمام الجليل . كتب يقول : «بسم الله الرحمن الرحيم . هدية إلى الأخ الكريم والأستاذ الفاضل محمد رجائي عطيه مع خالص المحبة والمودة والتقدير . شيخ الأزهر - محمد طنطاوى ١٥ من ذى القعدة ١٤١٩ هـ - ٣/٣/١٩٩٩» .

انظر معى كيف كان علم وأدب وتواضع وأريحية هذا العالم الجليل ، وحين تفعل فسوف تدرك حجم فجيعتى وألمى وحزننى وشجنى على فراقه .. ومدى خسارتى الشخصية فى فقد هذا الأخ الأكبر والصديق الأعز ، فضلاً عن العالم الجليل .. وإذا كانت مآثره على لا تُحصى ولا تُعد ، فإن لهذا الفقيه الجليل مآثر لا تتسع لذكرها هذه السطور القليلة . أرجو أن أعود إليها يوماً لأروى بعضاً من المواقف النبيلة لهذا الإمام الجليل فى خدمة الإسلام والمسلمين .

نعم يصعب على الأمة - تعويض الدكتور طنطاوى ، فى علمه وتواضعه وزهده وحرصه على قضايا أمته الإسلامية ودفاعه عنها وسعيه لإثبات الرأى الشرعى .

عاش حياته ﷺ ، وأنا شاهد على ذلك ، منقطعاً انقطاعاً كاملاً إلى عمله ، مخلصاً له إخلاصاً شاملاً يبذل فيه علمه ووقته وجهده ومشاعره وأحاسيسه ، غيوراً على الدين يناضل من أجل حمايته وقيادة التنوير لرد موجات الظلام عنه ، ويرد عنه وعن رسوله ﷺ وصحابته الأبرار حملات الإساءة التى لم ترع للأديان ولا للرسول حرمةً ولا كرامة ، فياض الاحترام والتبجيل والتوقير لأساتذته الراحلين والباقيين ، يحتفل ويحتننا فى المجمع على الاحتفال

معه بمن رحل وكتابة المقالات والدراسات عنه ، ويبدل الاحترام للباقيين معه بعضوية بالمجمع ، لا ينسى في معاملته معهم زمالتهم وأستاذيتهم وأسبقيّة من سبقه منهم في التخرج ، ولا يبرر لنفسه مهما اختلف في الرأى ، أن يحاول فرضه على من يختلف معه حتى ولو كان من تلاميذه ، ولا يتجاوز قط مشاعر أحد في حوارهِ معه . تتقدم دماثته حاملة مع تواضعه - علمه وحجته ، ولا يفارقه صبره على كثرة وسخونة ما يدور من حوارات ويثار من حجج .

يرحم الله تعالى هذا العالم الجليل بواسع رحمته ، فقد كان واسع العلم جم الأدب واللين والرفق والتواضع ، وفي الوقت ذاته شديد القوة فى الحق ، لا يلين فيه ولا يخاتل ولا يقبل الدنية . ربما حدثتك يوماً عن مواقف كثيرة كنت شاهداً عليها رأيت فيها هذا الطود الشامخ أسداً فى الحق منافحاً عن الدين لا يلين ولا يتراجع ولا يهادن ولا يساوم ، فإذا تركت الإمام وتعاملت مع الإنسان ، رأيت القلب الكبير والأدب الجم ، والتواضع اللافت ، والصوت الضارع المبتهل الذى لم تكن تخطئه أذن فى سماعها لمواعظه وأحاديثه .

رحم الله الشيخ طنطاوى رحمةً واسعة ، وأنزله فسيح جناته مع الأنبياء والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقا ، وأنزل سبحانه وتعالى سكينته علينا وعلى أسرته ومحبيه وتلاميذه ومريديه الذين ملأوا الآفاق فى كل مكان .



من

تراب (٤٢٤) إسرائيل تعلن الحرب (١٠)

الطريق

في الأسابيع الأخيرة ، تابعت على التوالي ، في إلحاح واستفزاز ، مجاميع من الاعتداءات الإسرائيلية التي لا يمكن في الأعراف وقواعد القانون الدولي إلا أن تكون بمثابة إعلان الحرب على الدول العربية - والإسلامية أيضا ، فضلا عن الشتات الفلسطيني بطبيعة الحال !

حملت الأنباء منذ أوائل مارس أن إسرائيل «تمطعت» واتخذت إجراءات إسرائيلية وصفتها الصحف ووكالات الأنباء بأنها إجرامية ، أعلنت فيها ضم الحرم الإبراهيمي لإبراهيم الخليل عليه السلام ، ومسجد الصحابي الجليل بلال بن رباح ، مؤذن الرسول ﷺ ، إلى قائمة التراث اليهودي ، فيما احتجت عليه الدول العربية والإسلامية احتجاجات لم تتجاوز الصخب والكلام ، فانعقدت البرلمانات وأصدرت بيانات الشجب وانفضت ، وزاد رئيس مجلس الشعب المصري من تحت القبة أن ما تفعله إسرائيل اعتداء على الديانة الإسلامية ويمهد إلى حرب دينية ، وبدلاً من أن تراجع إسرائيل ، ولو ظاهرياً ، انطلق سفيرها في مصر ، وشخصيات رسمية إسرائيلية ، فأقام احتفالاً مخموراً في معبد ابن ميمون الطبيب الفيلسوف العربي الذي عاش في مصر ، وأصوله أندلسية ، وضم هذا الاحتفال المخمور - في قلب القاهرة - نحو (١٥٠) يهودياً من الحاخامات والشخصيات الرسمية الإسرائيلية يتقدمهم السفير

(*) المال ٢٤ / ٣ / ٢٠١٠ .

الإسرائيلي ، تبادلوا فيه الأنخاب بداخل ما اعتبروه أثراً إسرائيلياً - أنفقت مصر الملايين لترميمه باعتباره أثراً مصرياً ، وفي ذات الوقت الذى أقيم فيه الاحتفال المخمور الذى لم تملك السلطات المصرية إزاءه إلا أن تعلن إلغاء الاحتفال المصرى الرسمى الذى كان مزجاً بإقامته ، بينما كانت الغطسة الإسرائيلية تواصل انتهاكاتها للمسجد الأقصى فى القدس العربية ، مع تواصل إقامة المستوطنات فى القدس وفى الضفة الغربية على قدم وساق ، دون أن تبالى بأحد حتى بالاعتراضات الأمريكية التى تركت القرارات والوعود التى كانت قد أطلقت بلسان الرئيس أوباما فى القاهرة ، واستبدلت بها التصريحات التى أخذت بدورها تتقلص وتطلق على استحياء ، ولا تبالى بها إسرائيل ، مثلما لا تبالى بإعاقة طقوس الصلوات ومنع وحصار المصلين وانتهاك حرمة المسجد الأقصى الذى يقتحم الجيش الإسرائيلى حرمة ، وجعلت تتوسع فى أعمال الحفر تحت المسجد شاملة الأساسات بما يهدد بانحيار المسجد الذى لا مرأى فى أنه هدف إسرائيل من أعمال الحفر الموسعة التى تجريها تحت وفى أساسات المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ، ولا يملك مقرر لجنة القدس فى المجلس التشريعى الفلسطينى - إزاء السكوت العربى والإسلامى ، والتشردم الفلسطينى ، والسجال المشتعل بين فتح وحماس ، لا يملك إلا أن يعلن ويحذر من أن أى هزة أرضية مهما كانت خفيفة - يمكن أن تأتى على المسجد الأقصى وتجعله أثراً بعد عين .. السبب ما أجرته وتجريه إسرائيل من حفريات يهودية متواصلة فى أكثر من موقع أسفل المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وهى حفريات وصلت إلى قواعد وأساسات المسجد والقبة ، وبدأت من السور الجنوبى وتوغلت حتى وصلت إلى أسفل قبة الصخرة ،

وبلغت مساحتها حوالى نصف المسجد ، فيما وصفه مقرر لجنة القدس بأنه خطوة متقدمة لتقويض المسجد الأقصى ، مع ضمان إقامة الصلوات اليهودية فيه بشكل دائم وتقسيمه مثلما عملت في المسجد الإبراهيمى فى الخليل ، وكشف عن أن هناك أعمالاً يهودية متواصلة فى هذا السياق ، ضمت افتتاح ملهى ليلى وإقامة الحفلات فى الشوارع المؤدية للأقصى ، فضلاً عن شرب اليهود وسائحيهم للخمر بداخل المسجد ، فى الوقت الذى يمنعون المسلمين من الوصول إليه للصلاة إلا فى أضيق الحدود .. وأوضح أحمد أبو حلبية مقرر لجنة القدس ، أن هناك شبكة من الأنفاق المتشعبة يصل عددها إلى (٢٥) نفقا أسفل ساحات المسجد الأقصى ، أضيف إليها نفق جديد تم حفره بجوار حائط البراق ، وأن الخطير فى هذه الأنفاق وصولها إلى القواعد والأساسات ، الأمر الذى أدى إلى حدوث تشققات وانهارات فى جدران المسجد ، وبات يهدده بانهار كامل لدى أى هزة أرضية خفيفة .

واستمرت إسرائيل فى أعمال الحرب ، وهى أعمال حرب بكل المقاييس الدولية ، فأطلقت الجبل على الغارب للاستيطان وإقامة المستوطنات وتهويد المدينة العربية المقدسة ، وبلغ من التبجح الإسرائيلى أن أعلنت حكومة نتن ياهو - أثناء زيارة جوزيف بايدن نائب الرئيس الأمريكى لإسرائيل - عن إقامة (١٦٠٠) وحدة سكنية يهودية جديدة فى القدس الشرقية العربية ، فى الوقت الذى تمضى فيه إقامة المستوطنات على قدم وساق وفق خطة مدروسة تؤكد وجود مخطط إسرائيلى واسع ، فى مواقع معينة مختارة وفق الخطة التى يؤكدتها الإعلان عن (٥٠) ألف وحدة سكنية جديدة تنتظر دورها كمستوطنات تحت الإنشاء فى الأراضى الفلسطينية !

ووسط الخنوع العربى الإسلامى ، والصمت الحكومى ، وصف بان كى -
مون : الأمين العام للأمم المتحدة - وصف الأعمال الإسرائيلية الاستيطانية
فى الأراضى الفلسطينية المحتلة بأنها غير شرعية (شكر !!!) ومستفزة (ألف
شكر !!!) ويجب أن تنتهى (ألف ألف شكر !!!) ، بينما خرج بيان أعرج
عن الرباعية الدولية التى وإن أدانت المخطط الإسرائيلى لبناء الوحدات
الاستيطانية الجديدة وأكدت على عدم اعترافها بقرار إسرائيل ضم القدس
الشرقية ، إلا أنها سكنت عن أى إشارة إلى أن القدس الشرقية هى عاصمة
الدولة الفلسطينية التى صارت إقامتها من قبيل الأحلام فى الليالى الملاح !

الغريب مع السكوت الحكومى / العربى / الإسلامى - أن الذى
خرج معترضا بشدة هو الصحفى توماس فريد مان بمقال فى النيويورك
تايمز عن «القيادة المخمورة فى القدس» ، وعن إعلان إسرائيل عن إقامة
المستوطنات الإسرائيلية الجديدة فى القدس الشرقية أثناء زيارة بايدن نائب
الرئيس الأمريكى لإسرائيل ، منوها فى مقاله - إلى أن القيادة الإسرائيلية
المخمورة - فى حاجة إلى من ينبهها ويفيقها من أوهامها ، إذ إنه يعد جنونا
مخضاً أن تواصل إسرائيل بناء المستوطنات فى الضفة الغربية ، وبناء المساكن
فى القدس الشرقية !!

أيها السادة ..

إن ما تجربيه إسرائيل هو إعلان حرب مهما كان مكتوما .. شجعها
ويشجعها عليه ، العجز العربى / الإسلامى ، والتشرذم الفلسطينى ،
والسجال الذى تبعثرت فيه فتح وحماس ، وتدهور العلاقات العربية /
العربية ، فى الوقت الذى نشطت وتوسعت فيه بعض العلاقات العربية /

الإسرائيلية ، وحيلولة الحكومات العربية بين شعوبها وبين التعبير عن نفسها ، بل ومضى البعض في التطبيع والمناداة بزيارة القدس العربية بتأشيرات إسرائيلية ، ولا بأس من إرسال الفرق العربية لإقامة المباريات الرياضية تحت الاحتلال الإسرائيلي . أما الوعود الأمريكية التي صارت في خبر كان ، فالذنب ليس ذنبها ، فالحديث في الشأن الأمريكي / الإسرائيلي يطول ، ولكن المسئولية تقع على عاتق من توهموا ويتوهمون أن تحمل أمريكا محلهم في تحرير أوطانهم !!

من ترباب الطريق

المرجان !! (*)

(٤٢٥)

(٢)

في عمود ٢٧ / ١ ، ثم في عمود ٣ / ٤ - نقلت لك الحديث الأول ، ثم الحديث الثاني ، من قصيدة المرجان .. إحدى روائع ديوان العارف لأستاذي الجليل ، العالم المحامي الفقيه ، الشاعر الأديب ، محمد عبدالله محمد ... الذي التزم في كل أشعاره بالشعر العمودي ، وبالإبحار في عوالم الحكمة لا يتركها قط إلى غيرها مما اعتاد الشعراء أن يكتبوا فيه في المديح أو الوصف أو النسيب أو الهجاء .. وواقع الحال أن محمد عبدالله محمد حكيم حتى التخاذ .. لا يتكلف ولا يصطنع الحكمة ، وإنما هي نسيجه الشخصي الذي أمضى فيه وبه حياته كلها ، يلقي في كل ميدان برطبٍ جنني تدعو العقول للتأمل والتفكير .. رأيانه في الحديث الأول من قصيدة المرجان يتحدث عن تقلب الإنسان في رحلة الحياة ، وماذا عساه يفعل إذا غربت شمسهُ ، ورأيانه في الحديث الثاني مصورا عجز الإنسان عن مقاومة أو تعديل القضاء والقدر ، مثلما ليس بإمكانه أن يوقف دوران الأرض ، أو إشراقة الشمس ، وكيف خيم ليل ما بداخل الإنسان ، فهاج قلقه ، وغرقت «الأنا» فيه وانحصرت في ذاتها حتى لم تعد ترى الله .. وها هو في الحديث الثالث من قصيدة المرجان يستأنف رحلته مع إنسان نجاعا لم ينبج منه من هو أفضل منه ، في عالم تحيط بنا فيه المنايا ، ولا نفارق رغم ذلك قسوتنا ، لا نكلف أنفسنا إلا حفظ نصوص الدين ، دون

(*) المال ٢٥ / ٣ / ٢٠١٠ .

أن يكون الدين جسراً للتواصل والشعور بالآخرين ، في الوقت الذي نملاً فيه قلوبنا بالسخط حتى حُرِمنا من العطف الذي أبعده الكِبَر ، دون أن نبأى أو نعنَى بشكر الله تعالى على ما يفره لنا من أخطائنا ، أو نلتفت إلى أن آية الحب لمن نعشقه ، هى أن يرضى ونرضى معه .. يقول محمد عبدالله محمد :
 قد نَجَا والحمدُ لله على حين لم تنج نفوسُ أفضل
 كُلُّنا تَمَّتْ خوفاً يسألُ إنَّ للغيرِ المنايا تُرسلُ !!
 هذه القسوة كم نُغْلِنها عُدْرَتَا أَنَا عليها نُحْمَلُ
 إِنِّهَا فِعْلُ الذى عَلَّمَنَا أَنَّ مَنْ عاشَ عليها يُقْتَلُ !!

عندك الدينُ بما تحفظُهُ لا بما تَشعُرُ نحوَ الآخرين
 ولذا تَسْمَعُ ما تَكْرَهُهُ وترى عينُك دنيا الآخرين
 وملا قلبك ما أَسَخَطَهُ فبدا ربُّكَ ربَّ الساخطين
 أيها المحروم قد أبعدَهُ قِلَّةُ العَطفِ وكِبَرُ العابدين !!

سُخِطْنَا المكبوت كَي تَفْسِلَهُ سَالِمِ الله لما فَضَّلَهُ ؟
 ذلك الشئ الذى نَرُفُضُهُ لَمْ يَحِذْ عِنْدَكَ ما يَغْفِرُهُ
 إِنَّنَا نَشْكُرُ الله كما يَغْفِرُ الله الذى نفعَلُهُ
 آيَةُ الحُبِّ لِمَنْ نَعَشِقُهُ أَنَّهُ يَرْضَى وَنَرْضَى معه ؟

بَشَرُهُ الْإِنْسَانُ لَا تَحْضُرُهُ ذَلِكَ الْعَقْلُ حَدُودُ الْآدَمِي
لَيْسَ كَالْفِيلِ نَهَا مِنْخَرُهُ أَوْ كَمَا الْمِخْلَبُ عِنْدَ الضَّيْفِ
إِنَّهُ نَحْنُ وَمَا نُمِسِكُهُ لَفَّ كَالْقَبْصَةِ حَوْلَ الْعَالَمِ
غَاصَ فِي الْبَحْرِ وَلَا يُغْرِقُهُ وَعَدَا كَالْحُلْمِ فَوْقَ الْأَنْجُمِ !

أَكْرَمِ الْقُرْبِ فَلَمْ تُرْهِقُهُ لَهْفَةُ الْمَشْتَاكِ إِذْ تَنْطَلِقُ
فَتَّ مَحْبُوبِكَ لَوْ تَأْكُلُهُ وَحَرَقْتَ الْحُبَّ لَوْ يَحْتَرِقُ
صَاحٍ لَنْ نُمْسِكَ مَا نَعَشَقُهُ حَاجِزُ الْقُرْبِ وَلَا يَحْتَرِقُ
حَسْبُنَا الْقُرْبُ وَلَا نَعْبُرُهُ بَعْدَهُ لَا شَيْءَ أَوْ نَفْتَرِقُ

صَانِعُ الْخَبِيزِ الَّذِي تَأْكُلُهُ بَاعَ لِلْمَسْكِينِ خُبْزًا آخِرًا
جَوَّعَ الْجُوعَانَ إِذْ يَخْدَعُهُ وَأَجَاعَ الرُّوحَ لَمَّا فَكَّرَا
خُبْرُنَا الرَّبِّ فَلَا يَفْتَرِقُ طَوَّلَ الْمُحْتَاجَةِ أَوْ قَصَرَا ؟
أَيُّهَا الْمَلَّةُ هَلْ تَنْقَسِمُ شِقُّهَا يعلو وشقُّ يُزْدَرَى ؟؟

قَدْ لَمَحْتَ اللَّهَ وَالنَّفْسَ مَعَا أَيُّهَا الْخَيْرَانِ فِي وَخْدَتِهِ !!
هَبْكَ قَرَبْتَ لَهُ قِصَّتَهَا فَلَكُمْ أَغْرَبْتَ فِي قِصَّتِهِ !!
لَمْ تَزَلْ طِفْلاً رَمَى لُقْمَتَهُ وَهُوَ يَسْتَفْرِقُ فِي لُعْبَتِهِ
رُبَّمَا عَقْلُكَ فِي حَبْوَتِهِ يَسْحَبُ الطِّفْلَ إِلَى رَشْدِهِ

ذلك الشيطانُ كم تَرْجُمُهُ إِنَّهُ مِنْدِيلُ هَذِي السُّفْرَةِ
تَمْسَحُ الأوساخَ في خِرْقَتِهِ عِنْدَمَا يَحْمِلُ وَزَرَ الْفِطْرَةِ
يَلْعُ هذا البحرُ لو تَلَعَنَّهُ قَطْرَةٌ مِنْهُ فَبَعْضُ الْقَطْرَةِ
هُوَ ظِلٌّ غَامِضٌ نَصَحَبُهُ لَا غِنَى عَنْهُ لِمَعْنَى الصُّورَةِ

مُطْلِقٌ قَيَّدَ عِلْمًا نَفْسُهُ بِحَسَابٍ وَقَضَاءٍ وَقَدَرٍ
يَصْنَعُ الْفَوَاضِي وَلَا يَغْفِرُهَا وَيَسْوَقُ الْعَدْلَ وَالظَّلْمَ ظَهْرَ
هَكَذَا قَالُوا وَقَلْنَا مَعَهُمْ ذَاكَ خَلَطُ النَّمْلِ فِي سِرِّ الْقَمَرِ
تَقْنِعُ النَّمْلَةُ فِيهِ نَفْسَهَا لَا عَلَى الْبَدْرِ إِذَا النَّمْلُ هَجَرَ

كَيْفَ ارْزَدَرَيْتَ الصَّفْرُ لَا تَعْرِفُهُ ؟ زَادَتْ الْأَصْفَارُ دُنْيَا الْعَدَدِ !
ذَلِكَ السَّلْبُ الَّذِي تَمَقَّتُهُ حَلَّ يَا صَاحِبَ شَدِيدِ الْعُقْدِ
حَايِبُ الصَّوْفِ عَلَى إِضْبَعِهِ لَفَّ بِالصَّبْرِ فِرَاغِ الْأَبْدِ
كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ ذُو أَمَدٍ لَيْسَ فِي وُسْعِكَ حَذْفُ الْأَمَدِ !!

من تراب الطريق

الروح القومية (*) بين الأمس واليوم

(٤٢٦)

ليس منا ، أو ليس من أنصاف المتعلمين ، من لم يقرأ ، أو يسمع على الأقل عن معركة رشيد ، وعن انتصار المصريين الباهر في صد الغزو الأجنبي عن المدينة الباسلة .. قرأنا كثيراً عن الخلاف الدائر حول وزن آثار الحملة الفرنسية على مصر ، بين متوقف عند الغزو وهدفه الاستعماري ، وبين قافر إلى الأثر الثقافي أو النقلة المعرفية التي تسبب فيها احتكاك المصريين بالغزاة الفرنسيين .

بيد أن أحداً لم يختلف كثيراً في دوافع الغزوة ، ولا الأهداف الاستعمارية التي كانت وراءها ، واتفقوا على أن مصر كانت مستهدفة بين الفرنسيين والإنجليز لأغراض يطول شرحها وليست مقصدي هنا ، وإنما أردت أن أتوقف عند الروح القومية والنضال الوطني الذي واجه به المصريون غزو الفرنسيين ثم الإنجليز من بعدهم . فما إن اضطرو الفرنسيون إلى النزوح عن مصر ، حتى بدأت إنجلترا لتنفيذ مخططاتها - شاملاً احتلال مصر - لفرض نفوذها على طرق المواصلات البحرية إلى الهند . لم تصبر إنجلترا طويلاً على المناورات الدبلوماسية ، فدبرت لشن حملة فريزر عام ١٨٠٧ ، معتمدة على ضعف الدولة العثمانية من ناحية ، وعلى من تأمروا معها من الممالك من ناحية أخرى ، ولكن الذي غفلت عنه وأغفلته إنجلترا هو وزن الروح

(*) المال ٢٩/٣/٢٠١٠ .

الوطنية المصرية وزنها الصحيح .. وهى القوة التى أفضلت فى النهاية حملة الغزو الإنجليزى بقيادة فريزر !

بدا للإنجليز فى البداية أنهم فى نزهة ، بعد استيلائهم السريع - الذى أسكرهم - على مدينة الإسكندرية بالتواطؤ مع محافظها العثمانى ، وبدا الطريق أمامهم مفتوحاً إلى قلب مصر ، فمحمد على مشغول بقتال فلول المماليك فى الصعيد ، وبدت الدلتا خالية أمامهم من حامية تحميها أو يعتد بها فى حمايتها ، فتحرك الجنرال ديكوب على رأس قوة من ثلاثة آلاف مقاتل لاحتلال رشيد ، ووصلوا إلى مشارفها فى ٣١ مارس ، ولم يكن بها سوى حامية من ستمائة جندى بأسلحة بدائية ، ولكنهم كانوا بقيادة المحافظ على بك الشجاع ، فأبى هذا البطل وأبت حاميته ضئيلة العدد تسليم المدينة للغزاة الإنجليز . يحكى الجبرتى كيف طفقوا يقيمون المتاريس ، ويحصنون المواقع ، ويدبرون المؤن والسلاح ، ويحكمون الاستعدادات للدفاع عن المدينة .. وكيف لجأوا بالحيلة لخداع الإنجليز .. فتركوهم يدخلون المدينة دون صد أو مقاومة ظاهرة ، حتى جعلوا يجوبون فى طرقاتها ، ظانين أن أهل المدينة قد آثروا التسليم ، فلما اطمأن الإنجليز إلى استتباب الأمر ، وانتشروا جوالين فى الطرقات والأسواق ، فاجأهم أهل المدينة وحاميتها بقيادة على بك الشجاع بهجوم انفتحت عليهم حمه من كل جانب ، ومن كل شارع وركن وبيت ، فلم تمض سوى ساعات إلا وتبعثرت الحملة الإنجليزية بين قتيل وجريح ، أو هارب ، أما الأسرى فقد جُمعوا وحُمِلوا إلى القاهرة لتجانب بهم شوارعها ! عاود الإنجليز الكرة ، وأعدوا حملة أقوى وأكثر عددًا وعتادًا وجهوها مرة ثانية فى أبريل من نفس العام ١٨٠٧ .. ولكنها لاقت أشد مما لاقت الحملة

السابقة ، وتصدى لها أهالى رشيد وحاميتها فى معركة طويلة طاحنة ، انقشعت بدورها عن فلول إنجليزية تبعثرت أمام انتصار وطنى أكبر وأعرض .. واللافت أن النصرين المتتاليين جريا على خلاف كل الموازين العسكرية ، ورغم التخاذل العثماني ، والتواطؤ المملوكي .

تزامنت صور هذا النصر القومي على مخيلتي ، وأنا أتابع الآن التخاذل العربى أمام الحرب التى أعلنتها إسرائيل إعلانا لا تخطئه عين .. فماذا يبقى للسلام الموهوم إزاء ضم الحرم الإبراهيمى لإبراهيم الخليل عليه السلام ، ومسجد الصحابى الجليل بلال بن رباح مؤذن الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم - إلى التراث اليهودى ، وماذا يبقى للسلام إزاء انتهاك حرمت المسجد الأقصى كل يوم ، وحفر الأنفاق التى وصلت إلى تقويض الأساسات بأسفل المسجد وأسفل قبة الصخرة ، لينهار المسجد لدى أقل هزة ويصبح أثرا بعد عين ، وماذابقى للسلام مع المستوطنات الجارى بناؤها فى القدس الشرقية على قدم وساق فى عملية تهويد لا يخططها أعمى أو بصير ، وماذا يبقى للسلام وفى الخطة ٥٠ ألف مستوطنة جديدة فى الضفة الغربية ، وماذا يبقى للسلام أمام الجدار العازل والغارات الجارى شنها من وقت لآخر على قطاع غزة ، وماذا يبقى للسلام مع تغليق المعابر وحصار الفلسطينيين حتى الموت جوعا وعطشا ومرضا .. وماذا يبقى للسلام و تنتن ياهو يرد على أمريكا الصديقة (١٢) بأن القدس الشرقية لا يجرى فيها استيطان وإنما هى عاصمة إسرائيل الصهيونية .. وماذا يبقى للسلام إزاء الصلف والغطرسة الإسرائيلية التى لم تعد تتوقف عند أى حد أو اعتبار .. وماذا يبقى للسلام وترسانة إسرائيل النووية قد تورمت وتهدد المنطقة والعالم دون أن ترى أمريكا فى تورمها وتهديدها بأسا !!

ماذا يبقى للسلام إلا إذا كنا جميعا قد بتنا نُغنى ما كان يغنيه عبد الوهاب
من عشرات السنين وإن كان عن معبد الكرنك : أنا من ضيَّع في الأوهام
عمره : نسى التاريخ أو أنسى ذكره ؟!

يبدو لى أننا قد نسينا التاريخ والجغرافيا أيضا ، ولم نعد نرى ما يترصد
بمصرنا فى الحاضر المؤسف الذى بات يطبق علينا من كل جانب .

الفارق أن الروح القومية قد تبعثرت وباتت للأسف - هى الأخرى - أثرا

بعد عين !!!



من تراب الطريق

(٤٢٧) الهوية والعنف (*)

عنوان هذا العمود ليس من عندى ، وإنما هو عنوان لكتاب أصدرته سلسلة «عالم المعرفة» في عددها ٣٥٢ في يونيو ٢٠٠٨ .. يتحدث عن وهم المصير الحتمى ، لفيلسوف واقتصادي هندى يدعى أمارتيا صن ، من مواليد دكا (عاصمة بنجلاديش الآن) ، وصاحب عديد من الشهادات العلمية من جامعات هندية وبنجلاديشية وآخرها الماجستير ١٩٥٦ ثم الدكتوراه ١٩٥٩ من جامعة كمبردج الإنجليزية ، وقام ويقوم بالتدريس فى عدة جامعات آخرها جامعة هارفارد الأمريكية ، وترجمت كتبه إلى أكثر من ثلاثين لغة ، منها هذا الكتاب الذى ترجمته إلى العربية المترجمة المصرية الأستاذة الأدبية سحر توفيق .

تجربة المؤلف الأولى مع العنف ، كانت فى الحرب التى اندلعت فى شبه القارة الهندية بين المسلمين والهندوس فى أربعينيات القرن الماضى ، وعان بنفسه الضحايا فى هذا الصراع الدامى من العمال والفقراء وعائلاتهم ، فتولد لديه احتجاج على هذا العنف قاده التأمل فيه إلى خروج بأن ما يدعمه ويشعله هو الانحصار فيما يسميه «وهم» الهوية المتفردة .. فهذا الانحصار هو الذى يقود إلى التعصب ومن أمراضه العنف والعدوان والإرهاب . هذا الانحصار ضد طبائع الشخصية ذاتها . فلا توجد شخصية ذات هوية «وحيدة» أو «متفردة» أو «متفردة» .. الدليل على ذلك أن «هويات»

(*) المال ٣١/٣/٢٠١٠ .

الشخص - أى شخص - تتعدد بالضرورة بتعدد انتمااته العرقية ، والطائفية ، والحزبية ، والمذهبية ، والإقليمية أو المحلية ، وبتنوع ثقافته ومعارفه ، وبتنوع أعماله وأنشطته .. بل وبتنوع ما يحبه وما يكرهه فى رياضته وفى طعامه وشرابه . ما بين نباتى مثلا وغير نباتى . فالأمريكى مثلا قد يكون أمريكيا بالميلاد ، أو قد يكون منحدرا من أصل كاريبى أو أفريقى .. ثم هو قد يكون مسيحيا أو يهوديا أو مسلما .. امرأة أو رجلا .. شابا أو كهلا أو شيخا .. ليبراليا أو متحفظا .. رياضيا أو غير رياضى . مؤرخا أو معلما أو روائيا أو عاملا يدويا .. مناصرا لقضايا المرأة أو غير مناصر .. طبعى أو مثلى .. محب أو باغض لهذا النشاط أو ذاك .. فالهويات الإنسانية متعددة بكل هذه التنوعات .. توجد الهويات ، العرقية ، والجنسية ، والثقافية ، والحزبية ، والأمية ، والوطنية ، والقبلية أو الأسرية ، والمجتمعية ، والمذهبية ، والرياضية ، والسياسية ، والمهنية ، الوظيفية ، والفكرية ، والدينية أو المللية ، والسلوكية ، واللغوية ، والمعرفية ، والطبقية المالية أو الاجتماعية ، وغير ذلك من الهويات التى تتنوع تنوعا بلا عدد .

ولا ينشأ التعصب إلا إذا سلخ الإنسان نفسه عن هوياته المتعددة ، ليحصرها فى هوية واحدة وحيدة متفردة ، فينمو بالوعى وباللا وعى تعمق إحساسه بهذه الهوية التى يظن أو يعتقد أنها «الوحيدة» «الفريدة» «ظنا غالبا ما يقرن بوصفها أو افتراض أنها مقاتلة متعين عليها أن تواجه وتناهض الهويات الأخرى المقابلة لها .. وهو ما يقف سببا وراء إثارة المواجهات الطائفية !

فالعالم كثيرا ما يؤخذ - فيما يقول المؤلف - على أنه مجموعة من الأديان ، أو من الحضارات ، أو من الثقافات ، مع تجاهل الهويات الأخرى التى يتمتع

بها الناس ويقدرونها ، والتي تتعلق بالطبقة ، والنوع ، والمهنة ، واللغة ،
والعلم - والأخلاق ، والسياسات . ينبغي لنا أن نرى بوضوح أن لنا أو لكل
منا انتماءات كثيرة منفصلة ، وأن هذه الانتماءات يمكن أن تتفاعل بعضها
مع بعض بطرق كثيرة مختلفة ، وإغفال حقيقة هذا «التعدد» لانتماءاتنا ،
وحاجتنا من ثم إلى التفكير والاختيار ، هو الذى يجعل عالمنا مبهمًا غامضًا
مليًا بالتعصبات ، ويدفعنا فى اتجاه المنظور المرعب الذى مثله الشاعر والناقد
الإنجليزى ماثيو أرنولد (١٨٢٢ / ١٨٨٨) فى قصيدة شاطىء دوفر Dover
Beach ، والتي قال مما قاله فيها :

وها نحن هنا والظلام مدّهم ينبسط حولنا
وقد ساقطنا إنذارات مشوهة بالصراع والفرار
إلى حيث جيوش جاهلة تتصارع فى ظلام الليل
إننا قادرون على أن نفعل ما هو أفضل من ذل

يرى المؤلف أن كثيرًا من النزاعات والأعمال الوحشية فى العالم - تتغذى
على «هوية متفردة» لا اختيار فيها ، وأن فن بناء الكراهية يأخذ فى هذه الحالة
شكل إثارة قوى سحرية هُويّة مزعومة السيادة والهيمنة تحجب كل الانتماءات
الأخرى . والحقيقة أن من أهم مصادر الصراعات الكامنة فى العالم المعاصر
- الزعم بأن الناس يمكن تصنيفهم تصنيفًا متفردًا مؤسسًا على الدين والثقافة .
وهذا النظرة التقسيمية بشكل متفرد - ليست فقط ضد الاعتقاد قديم العهد
بأن كل الكائنات البشرية متماثلة كثيرًا ، لكنها أيضًا ضد الفهم الذى قلما
يناقش - مع أنه أكثر قبولًا - بأننا (برغم وحدة هوية ما) مختلفون بدرجات
متنوعة ، وأنه من الخطأ أو من غير الواقعى أن يؤخذ العالم ، والأفراد بالتالى ،

على أنه مجموعة من الأديان أو من الحضارات أو الثقافات ، مع تجاهل الهويات الأخرى التى يتمتع بها الناس ويقدرونها ، والتى تتعلق بالطبقة ، والنوع ، والمهنة ، واللغة ، والعلم ، والأخلاق ، والسياسات . فالتقسيم المحورى المتفرد هو الأكثر قابلية لإثارة المواجهات ، عن عالم التصنيفات المتعددة والمتنوعة التى يتشكل منها العالم الذى نعيش فيه .

الكتاب رائع وعريض المعالجة ، فى ستة فصول ، تناولت بعد التمهيد : عنف الوهم ، وإدراك مفهوم الهوية ، والعزل الحضارى ، والانتهاكات الدينية والتاريخ الإسلامى ، والغرب ضد الغرب ، والثقافة والأسر ، وأصوات العولمة ، والتعددية الثقافية والحرية ، وأخيرًا : حرية التفكير .

ليس مرادى ، ولا هو فى وسعى فى هذا الحيز - أن أنقل إليك ما فى هذا الكتاب الضافى المثير للفكر والتأمل ، ولكنى لم أشأ أن أفوت فكرته ، وأن أقرنها بدعوة يجب أن يلتفت إليها كل متعصب : يهودى ، أو صهيونى ، أو عرقى ، أو أصولى ، أو طائفى ، أو مللى حين ينساق وراء المتعصب لهوية واحدة وحيدة متفردة ويغضى عما عداها .. ترى ماذا سوف يكون حاله وتعبه إذا وسَّعَ أفقه ، وتأمل فى هوياته المتعددة العالقة به شاء أم أبى . هل سيظل على هذا التعصب المقيت الذى أحال العالم إلى ساحة مريرة للعنف والصراع والاشتباك !!؟

من تراب الطريق

(٤٢٨) الزبالة من تانى ! (*)

قبل عدة أشهر ، عندما تفشت أكوام الزبالة فى كل ربع من ربوع العاصمة ، وضج الناس من المناظر المنفرة ، والروائح الكريهة ، والدلالة الصافعة للأداء الحكومى والإدارى والشعبى والإنسانى .. عند ذلك تمنطقت الحكومة ، وأصدرت وعدًا كبيرًا بالقضاء على أكوام الزبالة بكل أنواعها ، وفى كل مكان ، خلال مدة وعدت أن تكون فى حدود ثلاثة أشهر لا تزيد .

يومها صدقت الحكومة فى تنفيذ وعدها ، وكان لذلك أمارات وعلامات دلت على بذل جميع الأجهزة المختصة همّة ظاهرة لافتة ملحوظة ، وكان آية ذلك أنه قبيل انتهاء المدة المحددة ، اختفت أكوام الزبالة من القاهرة .

معنى ذلك أننا نملك الإمكانات ، وأنا قادرون حين نريد ، وأن الفارق هو فقط فى العزيمة والهمة والجدية والنشاط .. ليس فقط بدليل ما أنجز فى شهور ثلاثة ؛ بل أيضا بدليل عودة «ريمة» لعادتها القديمة فور وهن العزيمة وانفراط الهمة وتدنى الجدية وزوال النشاط .. فقد عادت الآن وفى فترة وجيزة أكوام الزبالة تملأ ربوع القاهرة من تانى ، بمناظرها الكثيبة ، وتلاها التى أخذت تعلو وتعلو ، ورائحتها الكريهة الفواحة بالتانة والخبائة مع تلال الجراثيم والحشرات والزواحف . لم ينبج من هذه المناظر أرقى أحياء القاهرة ، إلا أن يكون الموضع مجاورًا لسكن أحد الكبراء !!

(*) المال ١/٤/٢٠١٠ .

على الميدان الذى أقطن به فى المهندسين ، مستشفى الصفا ، والمبنى الكبير الملحق بها ، وبرج ألفاسكان الطبى ، وملحقه الضخم ، وأحد الفنادق الكبرى الحائز على تقدير أربعة نجوم ، وإحدى الكنائس الكبرى التى تملأ ببنائها القشيب وزخارفها عين الشمس ، فضلاً عن عدد من العماائر التى تطاول عنان السماء ، ومع ذلك فقد امتلأت أركان الميدان الذى تقع فى وسطه حديقة مستطيلة مهمة طالت حشائشها وامتلات هى الأخرى بالقطط والثعابين والزواحف ؛ لأن أحداً لا يرعاها أو يشذها ، وكانت النتيجة أن هذا الميدان الرحب المزين بهذه العماائر والمستشفيات الفخمة ، والفندق ذى الأربعة نجوم ، والكنيسة التى يرتادها المصلون والعابدون والزوار ، وتقام فيها الأفراح إلى جوار العزاءات ، فضلاً عن القداس الذى يقام فى مواعيده .. هذا الميدان الكبير قد تحول إلى «مزبلة» متعددة الأكوام ، فيها كل مكروه متن خبيث عفن شائه من تلال الزبالة التى طال العهد بأكوامها ، وجعلت تزداد يوماً بعد يوم ، دون أن ينزحها أو يرفعها أحد .. ويضطر العابر أمام أحدها ، ولا بد للعابرين من المرور عليها ، يضطر إلى سد أنفه حتى يجتاز المباءة ، ولكنه لا يستطيع أن يغلق عينيه ، وإلا اصطدم بكل أنواع الأحجار والتتوءات والحفر والمطبات التى تملأ الميدان !

لو كان هذا المنظر فريداً فى ميادين القاهرة ، لما سطرت هذه الكلمات .. ليس على أى مسئول بكل حى من أحياء القاهرة الكبرى ، إلا أن يترك مكتبه المكيف يوماً ، وأن يتفضل بركب سيارته ، والتجوال بشوارع وميادين ونواصى الحى ، وسوف يرى ما لا عين رأت ، ويشم ما لا أنف شمّت ،

وسيرّوع بها لم يخطر بتاتا على قلب أى بشر !

ولو لم تكن الإدارة المصرية قد نجحت حين أرادت فى إزالة أكوام الزباله التى كانت قد ملأت جنبات القاهرة ، لما أثقلت عليها بهذه الكلمات .
الداعى المبرر لإعادة الكلام من ثانى ، أنه قد قامت الحجج على أننا نملك الإمكانيات والقدرات البشرية والميكانيكية والأوعية والأجهزة وأدوات النزع والرفع والنظافة والأيدى العاملة ، وأنا قادرون على تنظيف بلادنا حين نريد ونضع العزيمة والهمة والجدية والنشاط إلى جوار الإرادة .

العتاب إذن علينا .. أننا نغضى عما فى إمكاننا ، ونهمل إمكانياتنا ، ونتجاهل قدراتنا ، ونقصر فى القيام بواجباتنا ، وأنا صرنا مدمنين للقذارة ، نصنعها ، ونفرزها ، ونمارسها ، ونعاود إفرازها ، ونتعامل ونتماس معها دون أن يتحرك فىنا ساكن . مع أن الأديان - إسلاما ومسيحية - تأمر بالنظافة ، ومع أن الإسلام يأمر بإمالة الأذى عن الطريق ، ومع أن النماذج الأخلاقية المطبوعة على الكراسيات منذ أن كنا طلابا فى المدارس الابتدائية والثانوية مسطور على ظهر غلافها : إن النظافة من الإيمان .

فهل ترانا قد هجرنا الإيمان بدوره ، وصرنا نستطعم ما بتنا فيه من قذارة جددت وسوف تجدد المزيد ومزيد المزيد من أكوام الزباله .. من ثانى ؟!!!

من تراب الطريق

في محبة المسيح^(*)

(٤٢٩)

(١)

كنت في الرابعة من عمرى ، أى من نحو سبعة وستين عاما ، حين
ألحقنى أبى - مع أختى الكبرى - بمدرسة الراهبات (Notre dam des A
Potre بشيين الكوم ، ثم ألحق فى العام التالى شقيقى المرحوم فاروق ثم
شريف ، ومن بعدهما الأختين الصغيرتين الباقيتين من عنقود الأولاد آنذاك ..
كان النظام الذى التزم به أبى عطيه عبده ، وهو مسلم شديد الالتزام
بالإسلام ، ومتنور يفهم الإخاء بين الأديان .. أن تستمر البنات - بناته -
فى مدرسة الراهبات حتى الحصول على شهادتها ، بينما الصبيان يمكنون
لعام واحد ينتقلون بعده إلى المدارس العربية - وقد كان .. لا زلت أذكر أن
هذا الإلحاق بمدرسة الراهبات ورئيستها الـ Meire وأعضاء التدريس من
الأخوات الراهبات Soeur ، كان خاليا من أى حساسيات على الجانبين ،
فلا حذرنا أبى أو أمى من أى تهاويم ، ولا استغلت المير والسيرات
(الأم والأخوات) قيامهن بالتعليم لتلقين ما لا يتفق مع الإسلام .

ولا زلت أذكر أن أطباء الأسرة ، على كل التخصصات ، فى ذلك الوقت ، كان
حافلا بأسماء مسيحية .. الدكتور العجوز جورجى ياتريدس - خير الباطنة
(يونانى الأصل) ، والدكتور نقولا تادرس إلى جانب الدكتور عمر سعد
فى طب الأسنان ، والدكتور ناشد عبد المسيح والد الزميل صديق العمر

(*) المال ١/٤/٢٠١٠ .

أسعد ، وبنات الدكتور ناشد الثلاث الصديقات الحميمات لأخواتنا الثلاث ، والدكتور رياض سر كس ، كل هؤلاء - وبلا أى تفرقة - إلى جوار الدكاترة محمد مبارك ومحمد أبو باشا .. لم نعرف تفرقة بين الأطباء مرجعها إلى الانتماء الدينى أو الطائفى ، وكذلك الصيدليات ، وبين المدرسين والأصدقاء .

وقتها لم أتوقف لاستقطار الأسباب ، فلم يكن في ذلك أى نبؤ عن مألوف يدعو إلى التساؤل ، ولما شَبَّنا عن الطوق ، عرفنا مما قرأناه ، ثم درسناه فيما بعد وتأملنا فيه ، أن محبة السيد المسيح والمسيحيين متجذرة فى صفحات وجدان المسلمين فى بر مصر ، وأن هذا التجذر مستمد من الإسلام ذاته .. فقد دلنا ما كنا نندارسه من الصبا ، أن احترام الأديان السماوية جزء لا يتجزأ من الإسلام ، وأن هذا الاحترام للأديان فرع على شجرة أصيلة أقرها القرآن المجيد الذى جعل الإيـمان بكل الرسالات أصلا من الأصول الإسلامية ..

ففى القرآن الحكيم : ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن رَّبِّنَا وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلُكُم بِآيَاتِنَا فَاسْتَعْصَمُواْ وَكَرِهُواْ مُؤَسَّدَهُمْ وَقَالُواْ لَا تُفْقَرُواْ لَهُم فِرْعَوْنُ وَهَارُونُ هَآؤُلَئِكَ هُمِ الْمُفْسِدُونَ ﴾ [البقرة ١٣٦ ، المائدة ٥٩] .

وحين توسعنا في قراءة مدونات الأديان ، لم نجد كتابا من الكتب السماوية يتحدث بمثل الحديث الرائع الذى تحدث به القرآن المجيد عن زكريا ويحيى ومريم والمسيح عليهم السلام .. نقرأ فى المصحف ، ونسمع فى التلاوات فى الإذاعة وفى المساجد وفى التعازى ، من آيات القرآن فى هؤلاء الأنبياء الأحياء ..

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ

الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنِّي عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴿آل عمران: ٣٥-٣٩﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِئُ أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿آل عمران: ٤٢﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِئُ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴿آل عمران: ٤٥-٤٦﴾.

﴿وَفَقَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾.

[النساء ١٧١]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧، ٢٥٣]..

من تراب الطريق

في محبة المسيح (*)

(٤٣٠)

(٢)

وعرفنا مما عَرَفْنَا القرآن المجيد ، المنزلة الرفيعة والتأييد الإلهي لكل من السيد المسيح وأمه مريم عليهما السلام ، وتابعتنا هذه الرعاية الإلهية منذ الحمل فيه حتى رفعه الله بآيات معجزات هائلات : حمل مريم فيه بغير أب ، وكلامه في المهد ، وجعله الماء خمرا في عرس «قانا الجليل» ، وتصويره الطين على هيئة طير ونفخه فيه فتكون طيرا بإذن الله ، وإبرأه الأكمه والأبرص ، وإحيأه الموتى بإذن الله ، وإخباره بنى إسرائيل بما يأكلون وبما يدخرون في بيوتهم ، ومع ذلك أحس عيسى منهم الكفر ، ومكروا الصلبه وقتله ومكر الله والله خير الماكرين . ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَٰذَا وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران ٥٥] .

وعن جذور هذا الإخاء ، وهذه المحبة في بر مصر ، بين المسلمين والمسيحيين - بخلاف اليهود الذين أنكروا وتنمروا وشنفوا للسيد المسيح ثم لمحمد المصطفى رسول الإسلام - هذه الجذور قد أخبر بها القرآن الحكيم وتلقيناها عنه من الصغر ، فجعلنا نقرأ ونتلو ونسمع قول الحق ﷺ : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٨٨) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَاَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٨٩) ﴿

(*) المال ٢٠١٠/٤/٧ .

درجنا إذن على محبة السيد المسيح والمسيحيين ، وتعلمنا على مر الزمن ، ومراجعة ما ورد في الأناجيل المسيحية ، وفي القرآن الحكيم - أنه لا عداوة بين الإسلام والمسيحية ، فالمسيحية قوامها المحبة والسلام ، والإسلام يحترم كافة الديانات وينذ كل أنواع العصبية وهى عدوة السباحة والإسباح .. يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ [الحجرات ١٣] .. وفي الحديث : «كلكم لآدم .. وآدم من تراب .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم» . يتسامح الناس ، ويتسامح المتدينون ، حين يدركون أن أصلهم واحد ، وأن انتهاءهم إلى شجرة واحدة .. إلى ذلك لفت القرآن الحكيم ، حين نوه في العديد من آياته إلى أن الناس جميعاً ينتمون إلى أصل واحد ونفس واحدة .. ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقَارِكُمْ أَذَى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ . [الأنعام ٩٨] .. ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] .. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد ، تنهدم به نعرات العنصرية والعصبية ، وتتسع الباحة الإسلامية الوارفة إلى الناس جميعاً على سنة الهداية والإسماح .. لا معيار للمفاضلة إلا بالعمل والتقوى .. ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم] .

لم يخضنا الإسلام في الإييان به أو الدعوة إليه - على مخاصمة الأديان أو أهلها ، ورأينا رسول القرآن - صلى الله عليه وسلم - يتزوج ويبنى بصفية اليهودية وبهاريا القبطية المصرية أم ولده إبراهيم الذى رحل عن الدنيا

طفلا .. وقرأنا ونقرأ ونتعلم من القرآن أن طعام أهل الكتاب والزواج من الكتابيات حل للمسلم ، لا تحريم فيه ولا تثريب عليه : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] .

من يستقطر التقاليد المصرية يجد هذه المحبة متجذرة في أصولنا المصرية - إسلامية كانت أو مسيحية ، ويلحظ أنه فضلا عن توفير القرآن للأنبياء كافة ، وللسيد المسيح عليه السلام خاصة ، فإنه قد ترسخ في نفوس المسلم دلالة تسمية سور كاملة في القرآن الحكيم بأسماء الأنبياء السابقين وأسرهم ، من مثل سور : نوح ، وإبراهيم ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، ومريم ، وآل عمران ، ولذلك فقد شبينا لا نفرق بين المزارات الإسلامية والمزارات المسيحية ، وظلت الساحة المصرية حاضنة رءومة لهذه المحبة .. تراها في المزارات المسيحية التي صارت أيضا مزارات للمسلمين في مصر .. مزارات سانت كاترين ، والقديس مار جرجس ، والقديسة دميانة بالدقهلية ، وسانت تريز بشبرا ، ودير المحرق بأسسيوط وغيرها ، مزارات مسيحية يوقرها ويزورها ويتبرك بها المسلمون ..

إن ما أبادله الآن من تهانى مع الأحباب والإخوة والأصدقاء والزملاء والجيران المسيحيين ، ليس من قبيل أداء الواجب ، وإنما هو تعبير صادق صادر من الأعماق عن هذه الأواصر والوشائج الحميمة ، ونابع مما نحمله في صفحات وجداننا من «محبة للمسيح» .

من تراب الطريق

(٤٣١) وفاء نادر (١٠)

على خلاف ما نصادفه أحيانا من جحود بعض من يتلقون ثمار ما نبذله من جهود مضية في المحاماة ، تلقيت من السيد صبحى أبو حمدة رسالة كريمة يعقب فيها على ما نشر بعمود ٤ يناير ٢٠١٠ تحت عنوان «نداء الواجب وعناية السماء» .. كتب الموكل الكريم يقول .. قرأت بإمعان شديد فى عمودك اليومى بجريدة المال الاثنين ٤ يناير ٢٠١٠ كيف أبت العناية الإلهية إلا أن تكافئك وتسعدك وتكلل نداءك لواجبك الإنسانى بالنجاح فى إطلاق سراح موكلك السجين نتيجة مرافعتك أمام المحكمة بالرغم مما كنت تعاني من «أوجاع القلب» .. وجع قلبك الحقيقى .. ووجع قلب السجين وأهله الذين استجاروا بك وعلقوا آمالهم على حضورك للمحكمة لتدافع بما حباك الله من علم عميق بخبايا القانون ومهارة غريزية فى سرد تفاصيل دفاعك لإظهار الحق أمام الله سبحانه وتعالى أولا ، وأمام القضاة ليحكموا بالحق ثانيا !!

لا أخفى عليه أنه منذ ذلك اليوم الذى قرأت فيه عمودك هذا ، انتابنى خوف وقلق شديدان ، وأخذت أدعو الله فى كل صلاة من الصلوات الخمس أن يبعد عنك شر المرض ووجع القلب .

وفى المقابل انتابنى شعور آخر بالرضا والأمان لأن قضيتى سترعاها عناية

(*) المال ١٣ / ٤ / ٢٠١٠ .

السما من خلال صاحب الواجب الذى يلبى نداء الواجب حتى فى أخطر الظروف الصحية المحيطة به .

إنك لا تعرفنى وأنا لم أقابلك شخصيًا ، بناتى وابنى الأحباء قابلوكم فى مكتبك ووكلك فى شهر يونيه ٢٠٠٩ لنقض حكم جائر كنت أنا فيه الضحية ، ومنذ ذلك التاريخ عرفتك (عن بُعد) حيث أصبحت مدمنًا على قراءة عمودك اليومي - من تراب الطريق - فى جريدة المال ، بل واشتركت فى هذه الجريدة لتصلنى فى الصباح الباكر كل يوم لأستمع بقراءة أفكارك لأستشف من عمودك ما يساعدنى الله على فهمه من غزارة وعمق المواضيع الشيقة التى تطرقها وتعمل فيها تمحيصًا وتحليلًا وتفسيرًا بأسلوب ممتع وشيق وبلوغ .

كتبت السطور السابقة تعليقًا على ما سردته فى عمودك فى جريدة المال يوم الاثنين ٤ / ١ / ٢٠١٠ .. ولا أدرى لماذا لم أرسله لك فى حينه .

وكان يوم الثلاثاء ٢ / ٣ / ٢٠١٠ هو يوم نظر طعن النقض فى قضيتى التى وكلتك بها (وتوكلت على الله تعالى قبل ذلك) لإنفاذى من دخول السجن بلا مبرر .

وصلت إلى دار القضاء العالى قبل الساعة الثامنة من صباح هذا اليوم بصحبة زوجتى وابنتى الاثنين وابنى وحفيدى الأكبر ، وذلك لأسلم نفسى إلى السلطة كما تقضى إجراءات نقض الأحكام وإلا سقط حقنا فى قبول النقض .

كان أحد مساعديك النشطاء قد وصل فى ذلك الحين وتولى إجراءات تسليمى إلى السلطة حيث اقتادنى عدد من أفراد الشرطة إلى قاعة المحكمة

بضجة المتهمين الثلاثة الآخرين في نفس هذه القضية غير الرابع الذي كان في محبسه .

لا أذيع سرًا بأن خوفًا شديدًا تملكني وأنا جالس في الصف الأخير في قاعة المحكمة ويحيط بي أفراد الشرطة .. حيث كنت أتحدث مع باقي المتهمين الثلاثة .. وتبادر لنا أنه فيما لو حدث ورفضت المحكمة نقض حكمنا أو تأجلت الجلسة لأى سبب لوقت لاحق ، فسيكون مصيرنا (لا سمح الله) اقتيادنا إلى السجن . هنا تدخل المحامون الحاضرون عن المتهمين الآخرين وأدخلوا بعض الاطمئنان إلى قلوبنا حين قالوا إنه بالرغم من قبول نيابة النقض لبعض أسباب الطعن بالنقض ، إلا أن قوة نقض «أستاذنا الكبير رجائي بيه عطيه» هي التى ستخلصك وبالتالي ستخلص موكلينا من قبضة أفراد الشرطة المحيطة بنا .

وفي تمام الساعة الثامنة وخمس وخمسين دقيقة حصل هرج ومرج في قاعة المحكمة حيث دخلت من باب القاعة فتركنا المحامون بسرعة وتهللت وجوههم بالفرحة وهم يسلمون عليك ولسان حالهم يقول بأن «المُخلَّص» «قد وصل والحمد لله» ، وأخذك مساعدوك إلى حيث كنت أجلس مع باقي المتهمين لأسلم عليك .

كانت هذه هي المرة الأولى التى أراك فيها شخصيا .. علما بأننى كنت أرى صورتك صباح كل يوم تتصدر عمودك اليومى في جريدة المال .. ولاحظت أنها مطابقة للواقع مع اختلاف واضح وهو ابتسامتك العريضة التى تغطى وجهك والتى أدخلت الطمأنينة والأمان علينا جميعا .

رأيت فيك ذلك الرجل الواصل من نفسه ذا الابتسامة العريضة والطبيعية

والصابرة من القلب الصافي الذى ترعاه عناية السماء لما يحمله من مسئولية كبيرة فى تلبية نداء الواجب للدفاع عن الناس الذين يلجئون إليه لتخليصهم من أحكام مغلوطة تكون نتيجتها السجن غير المبرر .

لقد أثلجت صدرى وأدخلت فيه طمأنينة وثيقة وإيماناً صادقاً ، وتيقنت أن حكم النقض سيكون فى صالحنا بإذن الله مشفوعاً بعناية السماء التى لا حدود لها .

ذهبت بخطوات ثابتة نحو منصة المداولة وأنا أرى معظم من كان فى قاعة المحكمة من محامين أو موظفين أو متهمين إما يسلمون عليك أو يرمقونك بنظرات حب واحترام وتقدير ، فزاد يقينى بنجاح مهمتك الصعبة التى ترعاها عناية السماء . دخلت غرفة المداولة لبعض الوقت وخرجت بعد حين وابتسامتك العريضة تغطى وجهك السمع وقمت بمصافحة زوجتى وابتنتى وابنى الجالسين فى الصفوف الأولى وطمأنتهم .. ثم جاء دورى لأتلقى الخبر السار بأن عناية السماء قد استجابت لنداء الواجب وسأكون طليقاً خلال ساعة أو ساعتين ، فشكرتك شكراً جزيلاً وبقيت أرمقك بنظرات الحب والتقدير إلى أن غادرت قاعة المحكمة وابتسامتك العريضة الواثقة لم تفارق وجهك الصبوح .

هنا فقط أخبرتنى ابنتى الصغرى بأنك كنت قد خضعت لعملية أخرى فى القلب - يوم الجمعة الماضى ٢٦ فبراير ، أى قبل جلسة النقض هذه بأربعة أيام ، فزاد شكرى وتقديرى واحترامى وامتنانى لشخصك الكريم لأنك جئت بنفسك إلى المحكمة متحملاً الأخطار الصحية لتلبى نداء الواجب .

وجال بخاطرى على الفور تفاصيل عمودك ٤ / ١ / ٢٠١٠ «نداء الواجب

وعناية السماء» (والذى سردت فيه كيف أن عناية السماء كانت قد كللت جهودك بالنجاح فى إطلاق سراح موكلك من السجن) وقلت لنفسى إن صاحب الواجب هذا قد جاء بنفسه إلى المحكمة متحملاً الأخطار الصحية ليلى نداء الواجب ويتأكد من أن موكله المظلوم قد أطلق سراحه فغمرته عناية السماء برعايتها وخففت من مرضه لتزيد فرحته ورضاه بنجاح مهمته الإنسانية العادلة.

«فلترعك السماء بعنايتها يا صاحب الواجب ، وتعنك لتأدية نداء الواجب مرة ... تلو المرة ... تلو المرة ... بإذنه تعالى» .

صبحى أبو حمده

من تراب الطريق

مع الله ! (*)

(٤٣٢)

(١)

دعتنى بعض التعليقات ، على ما كتبتهُ للأهرام بعدديهِ ١ ، ١٥ / ٤ / ٢٠١٠
عن التوحيد والوحدانية ، إلى العودة إلى الكتاب الضافي : «الله» - بحث في
العقيدة الإلهية ، للأستاذ المفكر الجليل عباس محمود العقاد .

في تقديمه للكتاب يقول العقاد : «موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة
الإلهية ، منذ اتخذ الإنسان ربًّا إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة
التوحيد . وقد بدأناه بأصل الاعتقاد في الأقوام البدائية ، ثم لخصنا عقائد
الأقوام التي تقدمت في عصور الحضارة ، ثم عقائد المؤمنين بالكتب
السمائية ، وشفعنا ذلك بمذاهب الفلاسفة الأسبقين ، ومذاهب الفلاسفة
التابعين ، وختمناه بمذاهب الفلسفة العصرية ، وكلمة العلم الحديث في
مسألة الإيمان . وكانت عنايتنا فيه بالعقيدة الإلهية دون غيرها . فلم نقصد
فيه إلى تفصيل شعائر الأديان ولا إلى تقسيم أصول العبادات ، لأن الموضوع
على حصره في نطاقه هذا أوسع من أن يستقصى كل الاستقصاء في كتاب .
وأن موضوعاً كهذا الموضوع المحيط لعرضه للتشعب والتطويل كيفما تناوله
الكاتب ومن أى جانب تحراه ، فلا بد فيه من إيجاز ، ولا بد فيه من اكتفاء .
غير أننا تحررنا الإيجاز وتحررنا معه أن يغنيا فيما قصدناه ، وذاك هو الإمام
بأطوار العقيدة الإلهية على وجهتها إلى التوحيد ، وإن تكن هذه الأطوار
مفهومه العلل والمقدمات وأن الله الذى هدى الأمم كافة على هذا النهج

(*) المال ١٤ / ٤ / ٢٠١٠ .

البعيد ، لكفيل أن يهدينا عليه ، وأن يوفقنا لسداد النظر فيه . فلا هداية إلا به ، ولا معول إلا عليه . إنه سميع بصير مجيب » .

إيمان العقاد ، ودعاؤه إلى ربه أن يهديه فيما يكتبه ، لم يتعارض بداهة مع خطته في بحث أطوار العقيدة الإلهية .. فالإنسان ترقى في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات .. فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته . فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى . وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات ، لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبًا وأطول طريقًا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى . وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة وهي أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الأغايز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكز وجود الشمس لأن العقول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام ، ولعلها لا تزال . فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد . في هذا الكتاب الضافي الذي صدرت منه عدة طبعات منذ نُشر لأول مرة في سبتمبر ١٩٥٤ في كتاب الهلال ، تناول العقاد بعد مقدمة ضافية في العقيدة الإلهية - تناول هذه العقيدة في دول الحضارة القديمة ، كما تناولها في الأديان السماوية ، وفي مذاهب الفلاسفة السابقين ، وفي آراء الفلاسفة المعاصرين ،

ثم فى رأى العلم الحديث . ولا تعارض فى هذا التناول ، ولا مساس بداهة ،
بالعقيدة الإلهية كما خلصت إليها الأديان واضحة جليلة مصفاة . فتاريخ
أطوار العقيدة شىء ، وجوهر العقيدة شىء آخر لم يرتق إليه الإنسان إلا
عبر رحلة طويلة .

يعرف علماء المقابلة بين الأديان ، فيما أورد العقاد ، أن العقيدة الإلهية
مرت لدى الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب - بثلاثة أطوار : دور
التعدد ، ودور التمييز والترجيح ، ودور الوحدةانية . وفى مرحلة التعدد
كانت الأرباب أنواعا شتى :

(١) أرباب الطبيعة ، كالشمس والقمر وقوى الطبيعة .

(٢) أرباب الإنسانية ، وهى الأرباب التى تقترن بأعمال الأبطال والقادة
المحبوبين أو المرهوبين .

(٣) أرباب الأسرة من الأسلاف الغابرين .

(٤) أرباب المعانى ، كرب الحرب أو العشق وما شابه .

(٥) أرباب البيت ، كرب الموقد أو البئر .

(٦) أرباب النسل والخصب ، وغالبيتها العامة صورة الإناث أو الأمهات
واهبات الخلود .

(٧) آلهة الخلق التى ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان
والكائنات .

(٨) الآلهة العليا ، وهى آلهة الخلق التى تدين عبادها بشرائع الخير
وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن والأخلاق ، وتضمن
السعادة الأبدية للأرواح فى عالم البقاء .

واختلفت الأمم والشعوب فيما أخذت أو لم تأخذ به - في عبادتها - من هذه الأرباب ، فكفار العرب كانوا قبل البعثة المحمدية يذكرون الله على ألسنتهم ، ويسمون أبناءهم عبد الله وتيم الله ، وبعضهم يعبد الأسلاف في صورة الأصنام ، وأناس آخرون دان بعضهم بالمسيحية ، وبعضهم باليهودية . وفي مصر وصل المصريون إلى التوحيد ، وبقيت أسماء الإله الواحد متعددة حسب التعدد في مظاهر التجلي ، فأوزوريس هو إله الشمس ، و«رع» الإله الخالق ، و«خنوم» الإله المعلم الحكيم ، وهكذا ..

ونعرف أن اليهود عبدوا العجل بعد عبادة الله الواحد ، وسموا الإله الواحد باسم الجمع وهو في العبرية «الوهيم» أو الآلهة .. ثم أصبح الجمع علامة التعظيم .

أما التوحيد فكان نهاية تلك الأطوار كافة في جميع الحضارات الكبرى ، ثم كانت الأديان الكتابية بعد كل هذا - هي التي بلغت بالتوحيد غاية مرتقاه .

من تراب الطريق

(٤٣٣)

مع الله ! (١٠)

(٢)

ويبدو أن ديانة الشمس ، كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح ؛ لأنها كانت - فيما أورد العقاد - أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليفة والحياة . وأغلب الظنون المدعمة بقرائن معقولة - أن مصر القديمة بدأت بتوحيد الدين كما بدأت بتوحيد الدولة .

وبعد فصل ممتع عن الملكات النفسية تمهيداً لاستكشاف صلتها بالاعتقاد ، انتقل العقاد للحديث تفصيلاً عن العقيدة الإلهية في دول الحضارة القديمة ، في مصر ، ولدى العبرانيين ، وفي الهند التي تعززت فيها عبادة «الطواطم» بعقيدتهم في وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول .. فعبدوا الحيوان على اعتباره جدّاً حقيقياً أو رمزياً للأسرة ثم القبيلة ، ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى في كل موجود أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه وآمنوا بتناسخ الأرواح حتى جاز عندهم أن يكون الحيوان جدّاً قديماً أو صديقاً عائداً للحياة . لكنهم خلصوا كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الإيمان بالآله الواحد ، وإن اختلفوا في المنهج الذي سلكوه .

تحدث العقاد في هذا السياق عن الكارما Karma أى القانون الأبدي ، وعما قامت عليه البوذية التي بَشَّرَ بها البوذا جوتاما قبل الميلاد المسيحي بحوالى خمسة قرون . ومن قبله آمن البرهميون بالدورة في وجود الكون والدورة في

(*) المال ١٥/٤/٢٠١٠ .

وجود الإنسان ، وخلاصة البوذية التي لا تعتبر إضافة في صميم العقائد بل إضافة في آداب السلوك وفلسفة الحياة - خلاصتها أن هناك عذاباً وشقاءً ، وأن لذلك سبباً ، وأنه قابل للزوال ، وأن الوصول إلى هذه الغاية موجود لمن يختار . أما سبب الشقاء فهل الجهل الذي صرفنا بالأوهام عن لباب الأمور ، وجعلنا نعرض عن الجوهر الأصيل . وعلى هذا النحو ، ولأن العرض هو كل ما يزول ويتغير ، ينكر البوذا وحدة « الشخصية الإنسانية » ؛ لأنها لا تتجاوز أن تكون تلاحقاً مستمراً للأحاسيس يبدو لنا كأنه حزمة مضمومة في كيان واحد .

انتقل العقاد من الهند إلى الصين واليابان ، ملاحظاً ترامى وتنوع أنواع العبادات في الصين - من أدناها إلى أرقاها - تبعاً لضخامة الصين وكثرة شعوبها ، وأنها على كثرة العبادات التي دانت بها - لا تحسب من أمم الرسالات الدينية كمصر وبابل والهند وفارس وبلاد العرب وفلسطين ، لأنها لم تخرج للعالم قيماً دينية يتلقاها منها . وليس لأهل الصين رسل وأنبياء بل لهم معلمون ومربون ، مثل «كونفوشيوس» ، وأصل اسمه «كنج فو» وأضيفت إليه «بلاوتسى» أى : المعلم لاو . وهو يوصى بمقابلة السيئة بالعدل والإحسان بالإحسان . فشعائر الدين بين أهل الصين هي شعائر الطريق أو شعائر «السلوك» وفرائض التهذيب والتثقيف ومحورها الحلم والسلم والتحذير من العنف والغضب والإفراط والإسراف .

وموقف اليابان من الرسالة الدينية كموقف الصين على الإجمال ، ولا مخالفة بينهما إلا إفراط أهل اليابان في تأليه صاحب العرش واعتدال أهل الصين في تقديسه كاعتدالهم في جميع الشئون . وإذا كان لأهل اليابان سمة

خصوصية في العبادات ، فهي أنهم اختاروا ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى . حين وحدوا الأسلاف في أكبرها وأعلاها ، وتلك الربة هي «أميراسوا - أموكامي» ، ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها ربة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ على جزيرة كيوشو وأخضعوا أهلها وطردوهم منهزمين إلى الجبال . ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون أو خلقت الإنسان ؛ لأنهم يعتقدون أن عهدها قد سبقته عهود عديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب .. وهذه الأرباب عندهم هي بمثابة الملائكة واللجنة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية ، ويسمّون الواحد منها «كامي» .

أما الخلق فهو منسوب عند اليابانيين إلى إله السماء «أزانا جي - نوميكوتو» وزوجته وأخته إلهة الأرض «أزانا مي - نوميكوتو» . فولدا جزر اليابان وألحقها ببذور الآلهة وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة الآلهة .

أما تاريخ الديانة في فارس ، فتوجد وشائج بينه وبين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية ، ومرتبطة هذا التاريخ بالسابق له واللاحق به ، واقتبست الديانة الفارسية من غيرها واقتبس غيرها منها ، وتقدمت الفكرة الإلهية عندهم على يد «زرادشت» صاحب الشريعة القومية في بلاد فارس . وبسبب السلالات التقى الأقدمون من فارس مع الهند في عبارة «مترا» إله النور وفي تسميات الإله وإن اختلفوا في إطلاقه على عناصر الخير والشر . واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم ، ولم تخل الديانة المجوية لدى فارس من عقائد الطورانيين ، لأن «زرادشت» عاش بينهم زمنًا وبشرهم بديانته . وقد آمن المجوس بالعالم الآخر كما آمن به المصريون القدماء ،

وبالثواب والعقاب في الدار الآخرة على تفصيلات يستتبع العقاد جذورها ومظاهرها وصورها ورواياتها .

وعلى قدم الحضارة البابلية ، فإنه لم يكتب لها أن تؤدي رسالة ممتازة في تاريخ الوحدةانية ، لأسباب فصل العقاد الحديث فيها ، ملاحظاً أن قصص الخلق عندهم مناسبة لموقع بلادهم واشتغال أهلها من قديم برصد الكواكب ومراقبة الأنواء . وتدل قصة الطوفان على أنها من ماثورات قوم عريقين في سكنى تلك البلاد ، لأن الباحثين يعتبرون أن الطوفان قد غمر ما بين النهرين إلى الشمال ، وأن الجبل الذي استقرت عنده سفينة نوح - هو الجبل المعروف اليوم بجبل أرات . أما تاريخ العقيدة في بلاد اليونان ، فقد حفل بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب «الأوليمب» الذين خلدوا في أشعار هوميرو وهزيود ، فعبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ، ومزجوا هذه العبادات جميعاً بطلاسم السحر والشعوذة . فلما شاعت بين الإغريق عبادة «أرباب الأوليمب» - كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم السابقة . فالإله «زيوس» أكبر أرباب الأوليمب هو الإله «دموس» المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة ، والرّبة «أرتميس» ومثلها الرّبة أفروديت أو فينوس - هي الرّبة عشتار اليمانية البابلية .. ومنها كلمة «ستار» التي تدل على النجم في بعض اللغات الأوروبية الحديثة ، والرّبة «ديمتر» هي «إيزيس» المصرية كما قال هيرودوت ، وهي واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها في بلاد الإغريق وعبادتها بين قدماء المصريين . وبعد بيان ما تطرقت إليه كل هذه الديانات الغابرة ، يتوقف العقاد على أعتاب : العقيدة الإلهية في الأديان السماوية .

من تراب الطريق

مع الله (١٠)

(٤٣٤)

(٣)

في تجواله بعقيدة التوحيد بالأديان السماوية ، يبدأ العقاد ببني إسرائيل أو العبرانيين ، فيلاحظ أنهم مثل جميع الأمم الغابرة في تطور العقيدة - قد دانوا زمنًا بعبادة الأسلاف كما دانوا بعبادة الأوثان والكواكب وظواهر الطبيعة وطواطم الحجارة والأشجار والحيوان .

وقد دعاهم موسى عليه السلام إلى التوحيد ونبذ الأصنام والأوثان .
وقيل : إنه عليه السلام أول من سمى الإله «يهوا» ، وهو اسم لا يعرف اشتقاقه على التحقيق ، فيصح أن يكون من مادة الحياة ، ويصح أنه نداء لضمير الغائب ، أو غير ذلك من الفروض . وأنهم ظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته ، وقد خلت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث ، وأول إشارة إليه وردت في الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب أشعيا الذي عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد ، وجاءت إشارة أخرى - أصرح - إلى يوم البعث والدينونة في الإصحاح الثاني عشر من كتاب دانيال . وكان معنى الكفر في الإسرائيلية الأولى كمعنى الخيانة الوطنية هذه الأيام ، فكانت للشعوب آلهة يؤمن الإسرائيليون بوجودها ، ولكنهم يحرمون عبادتها كتحریم الانتماء إلى دولة أجنبية ، وظلوا على ذلك إلى أن فهموا «الوحدانية» التي تتعالى على الشبيه والنظير .. وذلك في أيام أشعيا الثاني

(*) المال ٢٠١٠ / ٤ / ١٩

القائل بلسان الرب : «بمن تشبهوننى وتسووننى وتمثلوننى لتشابه ؟» ..
وأشعيا هو الذى شدد النكير عليهم قائلاً إن الله هو الأول منذ القدم ، وهو
المخبر منذ البدء بالآخر ، ونعى عليهم أن يعبدوا صنماً «يرفعونه على الكتف
ويحملونه ويضعونه فى مكانه ليقف فى موضع لا يبرحه ، ويناديه الداعى فلا
يجيب !» .

والغالب فى وصفهم للإله - سبحانه وتعالى - عن هذه الأوصاف ! - بأنه
غيور شديد البطش متعطش إلى الدماء ، سريع الغضب ينتقم من شعبه كما
ينتقم من أعداء شعبه ، ولكن موسى عليه السلام وصفه بالرحمة وفريقاً من
أنبيائهم وصفوه بالحب والطف وعلموهم أنه يحب عباده ويطلب منهم أن
يحبوه . ويلاحظ العقاد أن العقائد الإسرائيلية شغلت حيزاً من مقارنات
الأديان ، لأنها نقطة التحول بين العبادات القديمة والعبادات فى الأديان
الكتابية ؛ ولأنها ثانياً قد صحبت التطور فى فكرة المسيح المنتظر من مبدئها ؛
ولأنها ثالثاً موضوع مقابلة مستفيضة بينها وبين عقائد البابليين والمصريين
والفرس والهنود الأقدمين ، ولها صلة قريبة بعقائد اليونان قبل عصر الفلسفة
وبعدها إلى عصر السيد المسيح عليه السلام . فكانت العقائد الإسرائيلية
نقطة تحول لأسباب يفصلها العقاد ، ثم يورد أنه هنا لا تعيننا مقارنات إلا
من جانب واحد ، هو جانب التطور البشرى فى إدراك صفات الله ، وأنه
متى قصرنا النظر على هذا الجانب فإن الثابت من تاريخ الديانة الإسرائيلية
أنها انقلبت بعد عصر إبراهيم عليه السلام إلى وثنية كالوثنية البابلية ، وأن
التوحيد الذى بشر به إخناتون فى مصر القديمة سابق لشيوع التوحيد فى
شعوب إسرائيل ، ولكن العقيدة الإسرائيلية عاشت بعد اختفاء عقيدة

إخناثون وبعد عصر موسى عليه السلام .. فكانت هى كما تقدم فى تطور
الاعتقاد بالله بين الأمم التى تؤمن اليوم بالأديان الكتابية .

هنا يتوقف الأستاذ عباس العقاد ليعقد فصلاً وافياً عن الفلسفة ، ملاحظاً
أنه كلما ترقى النوع الإنسانى بتفكيره وبأخلاقه وأحواله - تمياً لقبول عقيدة
التوحيد ، وترقى فى هذا الاتجاه من تنزيه إلى تنزيه ، ومن كمال إلى كمال ، وأن
ذلك تجلّى فى الأديان القديمة التى أتمت نضجها وبلغت مستقرها فى زمانها
واستكملت من قبل جميع شعائرها . وأنه من الدين تلقى الفلاسفة فكرتهم
عند الروح ، وفكرتهم عن بطلان الظواهر المادية ، ومنه تعلموا التفرقة بين
العقل والمادة فتعلموا كيف ينفذون إلى ما وراء الحس ويوغلون فى تصفية
كنه الموجودات إلى أعمال لا تغوص فيها الأجسام وآفاق لا تدركها الأبصار .
وهنا يقف العقاد عند بعض الفلاسفة فى اليونان وفى الشرق فيتحدث عن
«انكسماندر» القائل بالتطهير والتفكير فى دورات الخلق المتعاقبة ، وعند
تلميذه «أناكسمين» الذى لم يزد شيئاً يذكر عن أقوال أستاذه ، وما أنجبته
آسيا الصغرى وما حولها من فلاسفة فى الجيل التالى لجيل «طاليس» وزملائه ،
وعن رسالة «أكسينوفان» الكبرى التى أنحت بشدة على كل تشبيه أو تمثيل
توصف به الأرباب ، لأن حقيقة الإله من وراء خيال الإنسان ، كما يتوقف
العقاد عند «هيرقليطس» الذى يراه أعظم فلاسفة آسيا الصغرى وما حولها .
ولا ينهى العقاد هذا الفصل قبل أن يتحدث عن فيثاغوراس ومن بعده
«انكسغوراس» الذى عَمَّمَ كلام «هيرقليطس» عن الكلمة Logos وسماها
Nous أى العقل ووصفه بأنه جوهر مجرد خالد واحد لا يتعدد ، وأنه هو
مصدر حركة دوائر تدفع ما خف إلى أعلى الكون وتهبط بما أسفل إلى مركزه ،

وأنه ما من شيء إلا فيه امتداد - إلا العقل فإنه منزّه عن التعدد والتناقض .. وهو الله أو هو الصلة بين الله والعالم . ولا ينسى العقاد المدرسة الإيطالية التي يرجع نشاطها إلى مدارس آسيا الصغرى ، فيتحدث عن لباب مذهب بارمنيد ، وعن زينون الاليل أبسرع المدافعين عن مذهب أستاذه «بارمنيد» ، مجتزئاً أمثلة على طريقة هذه المدرسة في إثبات الوحدة الكونية ونفى التعدد والتغير . ثم يتحدث عن «كليانتس» Cleanthes الذى ولد على الأرجح سنة ٣٣١ ق . م بعد زينون بسنوات ، ورأيه فى أن الله روح يسرى فى جميع أجزاء الكون ، وأنه لا بدّ أن يكون الموجود الحى الكامل شيئاً غير الإنسان ، وأن يكون مستكملاً للفضائل منزهاً عن كل سوء . ومثل هذا الموجود يطابق صفات الإله . فالإله إذن موجود . ثم يتحدث العقاد من «شريسبس» Chrisippus ، ثم مدرسة أبيقور التى كانت وسطاً بين مدرسة الرواقيين ومدرسة أثينا الكبرى ، ثم المدرسة الأئينية : مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، ورأسها سقراط الذى كان من أصحاب الهوائف الخفية ، وأثر عنه إيمانه بخلود الروح وسلامتها من الفساد مع الجسد بعد الموت ، وأنها ترجع إلى معدنها الأول من الصفاء المنزهة عن التجسيد والتركيب . ومن بعده جاء أفلاطون الذى يرى أن العقل المطلق كمال لا يحده الزمان والمكان ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة . ومن بعده تلميذه العظيم «أرسطو» الذى توسع فيها بعد الطبيعة توسعاً غير مسبوق بين الفلاسفة الأوائل ، ووضع علم المنطق ، وقال إن الله هو العلة الأولى والمحرك الأول . محرك بذاته ، أو محرك لا يتحرك . وأن هذا المحرك الذى لا يتحرك لا بدّ أن يكون سرمداً لا أول له ولا آخر ، وأن يكون كاملاً منزهاً عن النقص والتركيب والتعدد ، وأن يكون

مستغنيا بوجوده عن كل موجود . هذا المحرك الأول سابق للعالم في وجوده سبق العلة لا سبق الزمان . وعلى هذا قال أرسطو بقدّم العالم على سبيل الترجيح الذى يقارب اليقين ، إلاّ أن إحداث العالم يستلزم تغييراً في إرادة الله والله - جل جلاله - منزّه عن ذلك . ويقول أرسطو بوجود الروح ولكنه لا يقول ببقاء الروح الفردية بعد الموت . فالروح من عالم العقل والفعل واحد في جميع الأفراد ، وهم إذا اختلفوا بالأذواق الجسدية لم يختلفوا بالمدرّكات العقلية . فلا اختلاف بين إنسانين في إدراك الحقائق المجردة ، ومؤدى هذا عنده أن العقل المجرد لا فردية فيه ، وأن الروح تعود إلى العقل العامل بعد فراقها للجسد . فلا فردية لها بعد الموت ، ولكنها لا تفنى ولا تقبل الفناء . وهنا نقف مع الأستاذ عباس العقاد على عتبة حديثه التالى عن المسيحية .

من تراب الطريق

مع الله! (١٠)

(٤٣٥)

(٤)

للعقاد كتاب ضاف عن المسيح عليه السلام ، ولكنه في كتاب : «الله» -
كبحث في نشأة وتطور وتاريخ العقيدة الإلهية ، يوجز الحديث في المقدمات ،
لينتقل إلى جوهر بحثه عن العقيدة الإلهية في المسيحية .. عند ميلاد المسيح
عليه السلام ، والأرجح أنه ولد قبل التاريخ المشهور بأربع سنوات ، كان
اليهود يترقبون المسيح المنتظر على رأس الألف الخامسة للخلقة ، وكان
الأردن وما حوله مفعماً بدعوة يحيى بن زكريا أو يوحنا المغطسل المشهور
بالمعمدان ، وراح النبي يحيى يدعوهم إلى التوبة والاعتسال من الذنوب ،
ويرمز إلى التطهر من الدنس بالتطهر في نهر الأردن على يديه ، ويبشرهم أو
ينذرهم بقرب «ملكوت الله» أو «ملكوت السماء» ، وكان اليهود قد فهموا
«ملكوت الله» على معنى غير الذى فهموه وتوارثوه من أيام السبي ، فقد
كانوا ينتظرون ملكاً «مسيحاً» من قبيل ملوكهم الذين كانوا يمسحونهم
بالزيت المقدس ويسمونهم من أجل ذلك بمسحاء الرب أو المسحاء . وتجدد
رجاء اليهود في مسيح من هذا القبيل بعد سقوط أعدائهم الأقوياء ، فلما
تطاول الزمن ووقعوا في قبضة الدولة الرومانية وعجزوا عن مقاومتها ،
وتحولوا إلى الرجاء في قيام مسيح غير مسحاء العروش والتيجان ، فترقبوه
في عالم الروح ، وعلم الصالحون منهم أن الخلاص المنتظر إنما هو خلاص
النفوس والضمائر بالتوبة والتطهير . ولكن بعد أن كان أنبياءهم قد بشروا

(*) المال ٢٠/٤/٢٠١٠ .

بذلك المسيح قبل عصر الميلاد بعدة قرون ، أوفت فلسفة الفلاسفة الذين تناوهم العقاد في الفصل السابق - أوفت على غايتها ، ومن هؤلاء الفلاسفة من بشر بالكلمة الإلهية وقال إن هذه الكلمة - ويعنى بها العقل الإلهى - هى مبعث كل حركة ومصدر كل وجود ، فتهياً للرسالة الجديدة تمهيد لها فى نطاق الفلسفة وفى نطاق الديانة فى وقت واحد ، فتقابلت دعوة «فيلون» الفيلسوف الإلهى المولود بالإسكندرية مع دعوة «يحيى» أو «يوحنا المعمدان» ، وفى هذا الجو المتطلع إلى الرسالة الروحية ولد السيد المسيح ﷺ ، وكان يستمع العظات من يوحنا المعمدان ويتقبل «العمادة» من يديه ، فلما قتل يوحنا لم يُرهبه مصرعه الأليم ، ونهض بأمانة الدعوة بعده فى بلاد الجليل ثم فى بيت المقدس .

فلم ينتظر المسيح ملكوت الله فى حادث من الحوادث الدنيوية ، بل علم الناس أن ملكوت الله قائم فى ضمايرهم وموجود فى كل حقبة وكل مكان : «ولا يأتى على موعد مرتقب . ولا يقولون هى ذا هنا أو هو ذا هناك . لأن ملكوت الله فيكم» .

ولم يشهد التاريخ - فيما يقول العقاد - قبل السيد المسيح عليه السلام - لم يشهد قبله رسولاً رفع الضمير الإنسانى كما رفعه ، ورد عليه العقيدة كلها كما ردها إليه .. فقد جعله كفوّاً للعالم بأسره بل يزيد عليه فلا نفع فيمن يربح العالم ويخسر ضميره .. فهذه صفقة خاسرة : «وماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، وماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه ؟!»

والطهر كل الطهر فى نقاء الضمير . فمناطق الخير كله فيه ومرجع اليقين كله إليه : «فليس من شئ من خارج الإنسان يدينه ، بل ما يخرج من الإنسان هو الذى يدين الإنسان» .

كان المسيح عليه السلام يقول لهم : «نَقُوا الكأس من داخلها» فظاهرها لا يضير ما فيها . وكان ينكر كل ما يُراد به الظاهر ولا ينبعث من أعماق الوجدان . فلا إحسان عنده لمن يرأى بالإحسان .. فذلك تاجر قد أخذ ربحه فلا حق له عند الله .. «احذروا من صدقة تصنعونها أمام الناس . وإلا فلا أجر لكم عند أبيكم (ربكم) الذى فى السموات . وإذا بذلت الصدقة فلا تنفخ أمامك بالأبواق كما يفعل المرءون تفاخراً بين الناس . فالحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم .. فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك .. فأبوك (ربك) الذى يراك فى الخفاء يجزيك فى العلانية» . كل شىء فى عالم الحس ينقاد لقوة الضمير .. فجانب الضمير هى الذى توجهت إليه رسالة السيد المسيح ، ورعاية الله لروح الإنسان هى الملاذ الذى رأى الناس منصرفين عنه فعاد بهم إليه .

نسى من آمنوا بالله وعبدوه وتوقفوا عند حسابهم على الطاعة والعصيان - نسوا رعاية الله ولم يريدوا أن يجبهه كما أرادوا أن يطيعوه ، فعلمهم المسيح عليه السلام أن الله محبة وأن أقرب الناس إلى الله من أحب الله وأحب خلق الله ، ومنهم المطرودون والعصاة ، ولا يستحق غفرانه - سبحانه وتعالى - من لم يتعلم كيف يغفر للمسيئين إليه : «.. إن أخطأ إليك أخوك فوبخه ، وإن تاب فاغفر له ، وإن أخطأ إليك سبعاً فى اليوم ، فاقبل توبته واغفر له» .

ينبغى أن تُفهم عبارة المسيح : «ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله» - على أنه عليه السلام لم يأت بإلغاء الشريعة أو إسقاط الجزاء ، ولكنه نقل الإيمان بالله من الحرف إلى المعنى ، ومن القشور إلى اللباب ، ومن ظواهر الرياء إلى حقائق الخير الذى لا رقابة عليه لغير الضمير .

وقد أشار السيد المسيح إلى نفسه بتعريفات كثيرة رواها عنه كتاب الأناجيل ، فكان إذا تكلم عن نفسه قال : «أنا ابن الإنسان» أو «أنا نور العالم» أو «أنا خبز الحياة» أو «أنا الطريق والحق والحياة» أو «أنا القيامة والحياة» أو «أنا الراعى الصالح ، وأنا المعلم والسيد» أو «أنا الكرمة الحقيقية» .. ولم يذكر نفسه باسم المسيح ولكنه بارك الخواري بطرس حين سماه به ، وقال له إنه اهتدى إلى حقيقته بنفحة من نفحات الروح .

ومن وراء العقاد ، قرأت الأناجيل بإمعان ، وعقدت فصلا في كتاب الأديان والزمن والناس (كتاب الهلال - العدد ٦٦٩ - سبتمبر ٢٠٠٦) - فوجدت عبارات صريحة للسيد المسيح عن وحدانية الله ، فأورد الإنجيل بقراءة مرقس إجابة يسوع : «الرب إلهنا رب واحد ، فأحب الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك وبكل فكرك وبكل قوتك» (مرقس ١٢ : ٢٩ ، ٣٠) . وفي الآية التالية قال له الكاتب : «صحيح يا معلم ! حسب الحق تكلمت . فإن الله واحد وليس آخر سواه» . (مرقس ١٢ : ٣٢) ، وفي نصوص الإنجيل - كثير من الآيات التى أفصحت فى عشرات المواضع أن لفظ «الأب» مستخدم بمعنى الرب .. وفى إنجيل متى على لسان السيد المسيح : «ولا تدعوا أحدا على الأرض أباً لكم : لأن أباكم واحد ، وهو الأب الذى فى السموات» . (متى ٢٣ : ٩ - ١٠) ، وأورد الأستاذ العقاد أن العلاقة بين الإنسان وخالقه فى بشارة السيد المسيح هى العلاقة بين الروح ومصدرها وبين الحياة وينبوعها وبين المكفول وكافله ، وبين الرعية وراعيتها ، ولم تتفق هذه الصفة فى ديانة واحدة من ديانات ذلك العصر كما اتفقت فى الديانة المسيحية . وهنا نتوقف مع العقاد على أعتاب حديثه عن العقيدة الإلهية فى الإسلام ختام الأديان الكتابية والرسالات السماوية .

من تراب الطريق

مع الله! (٥)

(٤٣٦)

(٥)

يستهل العقاد حديثه عن الإسلام بأنه جاء بعد مرور نحو ستة قرون على مولد السيد المسيح ، تشعبت خلالها المذاهب المسيحية بين قائل بطبيعة واحدة للسيد المسيح وقائل بطبيعتين اثنتين : هما الإنسانية والإلهية ، أو الناسوت واللاهوت ، وبين مؤله للسيدة مريم ومنكر لهذا التأليه ، وبين مفسر لنبوة السيد المسيح بأنه ابن الله ، ولكنها بنوة على المجاز بمعنى القرب والإيثار على سائر المخلوقات ، وقائل بأنه ابن الله على الحقيقة التى يفهمها المؤمن على نحو يليق بالذات الإلهية .

وتسربت هذه المذاهب جميعا للجزيرة العربية مقرونة بالبراهين الجدلية التى يستند إليها أو يستدل بها كل فريق ، وكثير من هذه البراهين مستمد من المنطق ومذاهب حكماء اليونان ، فقد كان أوريجين ونسطور وآريوس أصحاب الآراء الفلسفية واللاهوتية التى جاءت بها الفرق المختلفة - كانوا من المطلعين على الفلسفة الإغريقية وعلى التخصيص بآراء هيرقليطس وأفلاطون وأرسطو وزينون .

وعن هذه الخلافات والمهرطقات التى قيلت فى طبيعة السيد المسيح ، أورد قداسة البابا شنودة الثالث فى مقدمة كتابه «طبيعة المسيح» (ط ٩ مارس ٢٠٠٤) : «موضوع طبيعة المسيح موضوع هام جدا ، كان سبب انقسام

(*) المال ٢١/٤ / ٢٠١٠ .

خطير في الكنيسة فى منتصف القرن الخامس (سنة ٤٥١ م) ، وأنه بعد الشقاق الذى حدث سنة ٤٥١ م ، رفضت الكنيسة الأرثوذكسية مجمع خلقيدونية وتحديداته اللاهوتية ، وعرفت فيمن عرفوا بأصحاب «الطبيعة الواحدة» MONOPHYSITES .

وتحدث قداسته عن هرطقة أريوس التى شجبها مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥ م ، وعن نسطور الذى حرمه مجمع أفسس المسكونى (سنة ٤١٨ م) ومع ذلك امتدت جذور النسطورية إلى مجمع خلقيدونية الذى ظهر فيه انفصال الطبيعتين ، وتلاه انشقاق ضخم تبعه لاختلاف الرؤى والتفاسير تحدث عنه قداسته وعن الاتفاق الذى حررت بشأنه عام ١٩٨٨ وثيقة مشتركة بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الكاثوليكية . (طبيعة المسيح للبابا شنودة الثالث ص ٨ - ١٢) .

ومن الانتقال والترحال والهجرات ، عرف العرب أطرافاً من هذه المذاهب ، كما تسربت إلى الجزيرة العربية مذاهب اليهودية ، وظلت تتسرب بعد ظهور المسيحية واحتكاك اليهود بالنصارى ، وكانت لليهود مذاهب فى الدين تمتزج بالفلسفة حيناً وبالتأويلات اللاهوتية حيناً آخر ، كما أن العرب لم يتلقوا المسيحية من مصدر واحد ، أو من الشمال فقط ، فقد كانت للحبشة نصرانية ممزوجة بالوثنية التى تخلفت عن عقائدها الأولى ، ودان قليل من العرب بهذه الديانات الوافدة على أوضاعها الكثيرة التى يندر فيها الإيمان بالوحدانية وعقيدة التنزيه والتجريد ، بينما كان الأكثرون يعبدون الأسلاف فى صور الأصنام ، وبعضهم يعرفون الله ويقولون إنهم يعبدون الأصنام ليتقربوا بها إلى الله .

فلما ظهر الإسلام في الجزيرة العربية ، كان عليه أن يصحح أفكارا كثيرة لا فكرة واحدة عن الذات الإلهية ، وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط شتى من بقايا العبادات الأولى وزيادات المتنازعين على تأويل الديانات الكتابية .

ويورد العقاد كيف أن الإسلام كان أول دين تم الفكرة الإلهية وصححها مما عرض لها في أطوار الديانات الغابرة . فالفكرة الإلهية في الإسلام «فكرة تامة» لا يتغلب فيها جانب على جانب ، ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلا في الحس ولا في الضمير ، بل له «المثل الأعلى» وليس كمثلته شيء . فالله وحده «لا شريك له» .. «ولم يكن له شركاء في الملك» .. فتعالى الله عما يشركون» .

والإسلام رفض الأصنام على أى وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب ، والله المثل الأعلى من كافة صفات الكمال وله الأسماء الحسنى ، ولا تغلب لديه سبحانه صفة على صفة أو قوة على قوة ، فهو سبحانه عزيز ذو انتقام ، وهو أيضا رحمن رحيم وغفور كريم .

ومن صفاته **الْعَلَمُ** ، فهو سبحانه **﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** .. و **﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾** .. و **﴿عَلِيمُ ذَاتِ الصُّدُورِ﴾** .. **﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾** . وهو كذلك مرید فعال لما يريد ، فكانت العقيدة الإلهية في الإسلام هي التامة المتممة لأفكار كثيرة موزعة في العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية . وجملة ما يقال في عقيدة الذات الإلهية التي جاء بها الإسلام - إن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال في أشرف الصفات . فالله تعالى هو «المثل الأعلى» .. وهو الواحد الأحد الصمد

الذى لا يحيط به الزمان والمكان ، وهو سبحانه المحيط بالزمان والمكان ، و
﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ .. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ..
وهو ۞ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ .. والله تعالى هو ﴿الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ ..
﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .. و ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ﴾
[القصص: ٨٨] .

قد اقتضت خاتمة وعموم وشمول رسالة الإسلام ، أن تكون من رب
العالمين إلى العالمين .. الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد ، الصمد ،
لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد .. هو سبحانه الحى الذى لا يموت
، الموجود من الأزل ، والباقي إلى الأبد .. كل من عليها فان إلا وجهه
سبحانه ذو الجلال والإكرام .. الله تعالى رب العالمين ، فليس الرب كما يقول
العهد القديم : «رب إسرائيل» ، أو رب قوم آخرين من مخلوقات الله ،
وإنما هو - عز شأنه - «رب العالمين» .. وهذا التعبير متعدد التكرار في
القرآن المبين ، وتردد في آياته أكثر من سبعين مرة .. واقتضت النبوة الخاتمة ،
العامة الشاملة ، أن تكون الرسالة للعالمين وللناس كافة ، لا يختص به قوم
ولا عرق ولا زمان ولا مكان .. هذه الرسالة العامة الشاملة التى بعث بها
الله تعالى محمدا ۞ : «في أم القرى» - لم تكن رسالة لأهل مكة فقط ، ولا
للقرشيين بخاصة ، ولا لأهل الجزيرة العربية دون سواهم - وإنما هى نبوة
هداية عامة شاملة تتجه بخطابها إلى الناس كافة ، وإلى العالمين إلى يوم الدين !
كان العالم فى حاجة إلى هذه العقيدة كما كان فى حاجة إلى العقيدة المسيحية
من قبلها ، وتلقى العالم كلا منهما فى أوانه المقدور ، فكانت المسيحية هى رسالة
الحب وأول ديانة تقيم العبادة على «الضمير الإنسانى» ، وكان الإسلام رسالة

الحق التى أتمت الفكرة الألوهية ، وربما تلخصت المسيحية فى كلمة واحدة هى «الحب» ، وربما تلخص الإسلام فى كلمة واحدة هى : «الحق» .. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ .. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾ .. ﴿فَفَعَلَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ ، فإذا بقى الإيمان بالحق فقد بقى أساس الشريعة لكل جيل ، وفى كل حال . فماذا تداخلت به مذاهب الفلاسفة فى الأديان الكتابية : اليهودية والمسيحية والإسلام ، وماذا صار حال الفلسفة بعد الأديان الكتابية ؟ وما هى البراهين القرآنية على إثبات وجود الله ووحدانيته ، وما هى آراء الفلاسفة المعاصرين ؟ هذه الفصول أفاض فيها العقاد على تفصيل لا يتسع له هذا الحيز ، قبل أن يتوقف عند الفصل الأخير : «خاتمة المطاف» .

من تراب الطريق

(٤٣٧)

مع الله (٥)
(٦)

في ختام كتاب : «الله» ، عقد الأستاذ المفكر الجليل عباس محمود العقاد - فصلا بعنوان : «نهاية المطاف» .. يورد في مستهله أنه مهما يكن من تشعب الرحلة التي قضيناها على صفحات هذا الكتاب ، فهي نقلة يسيرة بالقياس إلى الرحلة الإنسانية الكبرى في هذا السبيل . وأنه قد أوجز ما لا بد من إيجاز توخى فيه ألا يتخطى حد الضرورة ، وحد الضرورة أن يكون البيان كافيا للإشارة إلى الوجهة العامة وكافيا لتقرير النتائج التي يرتضيها العقل ويتطلبها الضمير .

وخاتمة المطاف ، انتهت بالعقاد إلى النتائج الآتية :

- إن التوحيد هو أشرف العقائد الإلهية وأجدرها بالإنسان في أرفع حالاته العقلية والخلقية . ولكن الإنسان لم يصل إلى التوحيد دفعة واحدة . ولم يفهمه على وجهه الأقوم عندما وصل إليه . بل تعثر في سعيه ، وأخطأ في وعيه ، ولم يزل مقيدا بأطوار الاجتماع وحدود المعرفة عصر بعد عصر وحالا بعد حال . فلم يلهم من هذه العقيدة إلا بمقدار ما يفهم ، ولم يهتد إلى خطوة جديدة فيها إلا بعد تمهيد أسبابها وتثبيت مقدماتها ، فكان الإيمان مساويا للخلق والعرفان .

(*) المال ٢٢ / ٤ / ٢٠١٠ .

• إن الإله الأحد «ذات» ولا يسوغ في العقل أن يراه غير ذلك . وقد مرت بنا أقوال تضاربت فيها الآراء ، وأحكام تنوعت فيها المقاييس ، ولكننا وجدنا بينها إجماعاً على شيء واحد مع صعوبة الإجماع في هذه الأمور . وهو أن «الذاتية» أعلى ما نتصوره من مراتب الكائنات على الإطلاق . والكائن الأكمل لن يكون مجرداً من الذات ، ولن يتخيله العقل عقلاً مجرداً من الذاتية كما توهم بعض أصحاب الديانات ، وناقضوا أنفسهم فيما توهموه . فالعقل يعقل وجوده لا محالة . ومتى عقل وجوده فهو ذات .

• إن كل شرط يذهب إليه الزاهبون لتقييد «الذات» الإلهية بصفة من الصفات المعهودة لدينا ، فهو شرط يقوم على غير أساس . فلا أساس للقول بأن «الله» لا تكون له صفات متعددة لأنه جوهر بسيط ، ولا أساس للقول بأن الله لا يريد لأن الإرادة اختيار بين أحوال والله منزّه عن الأحوال ، ولا أساس للقول بأن «الله» لا يعلم الجزئيات لأنه يعلم أشرف المعقولات وهو ذات الله .

فمن أين لنا أن إرادة الله من قبيل إرادتنا ؟ وأن علم الله من قبيل علمنا ؟ وكيف يكون الوجود إن لم يكن وجوداً يفعل ويخالف العدم ؟ وكيف يخالف العدم إذا كان سلباً لا أثر له على سبيل الثبوت .

هنا نعلم - فيما يقول العقاد - أن الله جلّ وعلا «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» . فكل ما نعلمه أنه جلّ وعلا «كمال مطلق» وأن العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذي ليست له حدود . وليس لهذا العقل (المحدود) أن يقول للكمال المطلق كيف يكون وكيف يفعل وكيف يريد .

إن هذا كله يفضى إلى نتيجة رابعة ، وهى الصلة بين العقل والإيمان . ذلك أنه غير معقول أن يستحيل الإيمان مع وجود الإله الذى يتصف بأكمل الصفات . والصلة بين الخالق وخلقه لا تتوقف على العقل وحده . فهل يعنى هذا أن العقل الإنسانى لا عمل له فى مسألة الإيمان ؟ كلا .. بل له عمل كبير ، ولكنه ليس بالعمل الوحيد . وفرق بين أن يعرف العقل حدوده وبين أن يبطل عمله .. فإن العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ، ويستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وأدلة التعطيل ، ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير عطل من الإيمان ، ويستطيع - أى عقل الإنسان - أن يبلغ غاية حدوده ثم لا ينكر ما وراءها لأنه وراء تلك الحدود . وهنا لابد من الاعتراف «بالوعى الدينى» ؛ لأنه ضرورة لا محيص عنها ، ولأنه واقع ملازم للإنسان فى محاولاته الأولى ، ولن يزال ملازماً له فى مقبل عصوره إلى أبد الآبدين .

هناك من تساءلوا فى سياق الكلام عن كمال الذات الإلهية : كيف يتفق هذا الكمال وما نحسه فى هذا العالم من النقص والشر والعذاب ؟ وهو سؤال عجيب ، لأن الكمال المطلق صفة الخالق جل شأنه وليس صفة المخلوقات ، وكل مخلوق محدود فلا بد فيه من نقص على صورة من الصور : صورة قبح أو صورة شر أو صورة عذاب .

ومن أين لنا أن نعرف أن النقص الذى يرضينا هو أقرب إلى الكمال من النقص الذى نرضاه .

إن الواقع يشهد أننا نرى هذه الآلام وسيلة الارتقاء بتنازع أو تدافع الأحياء ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ ، ويشهد أيضا بأن هذا التدافع هو وسيلة التهذيب والازدياد فى نمو فضائل الإنسان .

ويرى العقاد أننا نظلم نصيب الحس إذا قلنا إن مسألة الإيمان مسألة عقل ومسألة «وعى» ليس للحس فيها من نصيب . فنحن نستطيع أن نرى بأعيننا أن الإيمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة ، وأن غير المؤمن هو «غير طبيعى» .. نعاين ذلك من حيرته واضطرابه وانعزاله عن المحيط الذى يعيش فيه . فهذا هو الشذوذ ، وليس هو القاعدة فى الحياة الإنسانية وفى الظواهر الطبيعية . ومن أعجب العجب أن يقال إن الإنسان خلق فى هذا الكون ليستقر على الإيمان من الوهم المحض ، أو يسلب هذا القرار أو الاستقرار .



من تراب الطريق

(٤٣٨)

مع الله ! (٥)

(٧)

حول منطق المنكرين ، يتابع العقاد فيما يتابعه في خاتمة المطاف لكتابه :
«الله» حول نشأة وتطور وتاريخ العقيدة الإلهية ، يورد العقاد أنه ليست حجة
للمنكر أن يقول إن الإنكار ممكن في العقول . بل حجة للمؤمن أن يقول إن
حال المنكر ليست بأحسن الأحوال ، وإنه إذا أنكر عن اضطرار تبين لنا على
الفور أنه في حال «غير الحال الطبيعي» الذي يستقيم عليه وجود الأحياء .

وخاتمة المطاف ، فيما يقول العقاد ، أن الحس والعقل والوعى والبدية
جميعا - تستقيم على سواء الخلق حين تستقيم على الإيمان بالذات الإلهية ،
وأن هذا الإيمان الرشيد - بالواحد الأحد - هو خير تفسير لسر الخليقة يعقله
المؤمن ويدين به الفكر والضمير ويتطلبه الطبع السليم .

لقد جاء القرآن المجيد بكل برهان من البراهين التي تقنع العقل والوعى
والحس والضمير ، وجعل الهدى من الله عن طريق العقل والإلهام والصواب .

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ .

﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَمَا لَهُ هَدًى..﴾

﴿وَمَا كُنَّا لِنُفْسِ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا
يَعْقِلُونَ﴾ .

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ فَمَنْ يَهْدِيهِ فَمَا لَهُ مَدْرُجٌ لِلْإِسْلَامِ﴾ .

(*) المال ٢٦ / ٤ / ٢٠١٠ .

وآيات الله مكشوفة لمن يريد بها ويستقيم إلى مغزاها ، ولكنها هي وحدها لا تقنع من لا يريد ولا يستقيم ، وفي ذلك يقول رب العزة في القرآن المجيد : ﴿ وَلَوْ فَشَخْنَا عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا لَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ (١٤) ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْفُسُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ (١٥) [الحجر] .

فحتى رؤية العين والمعاينة بالبصر والسمع ، لا تكفى لإقناع من صرف عقله في سبيل الإقناع ؛ لأنه يتهم بصره وسمعه فيما رأى بعينه وسمع بأذنيه ، وكل شيء في الأرض والسماء كان لمن جرد عقله من أسباب الإنكار والإصرار . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْلَفَ الْمَيزَانَ ﴾ (١٦) ﴿ وَلَوْ يَكْفُرُونَ إِلَّا فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَظِرُ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٧) [الروم] .

﴿ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴾ (١) ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (٢) ﴿ وَخَلَقْتُمْ أَزْوَاجًا ﴾ (٣) ﴿ وَجَعَلْنَا قَوْمَكَ سُبُلًا ﴾ (٤) ﴿ وَجَعَلْنَا الْإِيلَاسَ آسًا ﴾ (٥) ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (٦) ﴿ وَبَيْنَنَا وَفُوقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ (٧) ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ (٨) ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ (٩) ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾ (١٠) ﴿ وَجَنَّتِ الْغُلَامَاتُ ﴾ (١١) [النبا] .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَبٍ وَزَرْعٌ وَنَجِيلٌ صَنَوَانٌ وَغَيْرُ صَنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِيدٍ وَتُقْضَى بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) [الرعد] .

﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٧) [ق] .
 ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ (١٥) [النجم] .
 ﴿ فَاطَّرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لِيَغْنِيَ لَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١١) [الشورى] .
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ (١٢) [الروم] .

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم].

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١].

﴿ وَاللَّهُ أَفْرَحُكُمْ مِنْ بَطُونِ أَهْلَيْكُمْ لَا تَقْلُبُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ رِبًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف].

﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ [النحل: ٦٠].

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ليست هذه جميع الآيات التي وردت في القرآن الحكيم بإقامة البرهان على وجود الله ووحدانيته ، ولكنها أمثلة تجمع أنواعها ونرى منها - فيما يقول العقاد - إنها قد أحاطت بأهم البراهين التي يستدل بها على وجوده سبحانه ووحدانيته : براهين الخلق والإبداع ، وبراهين القصد والنظام ، وبراهين الكمال والاستعلاء والمثل الأعلى . سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ،

بقى أن أقول إن هذا الكتاب الذى عرضته لك فى سبعة أعمدة ، من أعمق وأروع ما قرأته فى بابهِ . فيه حلق العقاد تحليقاً لا يستطيعه سواه ، فإذا كان هذا ليس غريباً على العقاد ، إلا أنه سعد فى هذا الكتاب إلى قمة لا مرتقى بعدها لأحد . لقد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة ، ومع ذلك ما عدت مرة إلى قراءته إلا وأعطاني المزيد وكشف لى كل ممتع ومشيع فى موضوعه الجليل . اجتمع له جلال اسمه وجلال موضوعه وصدق عزيمة وعمق فكر الأستاذ عباس العقاد - ما جعله على قمة ما يرنجيه قارئ ينشد معرفة أطوار الاعتقاد حتى اهتدت إلى الواحد الأحد رب العالمين .



من تراب (٤٣٩) في التقليد والمحاكاة (١٠) الطريق

لا يوجد آدمى إلا ومارس بقدر أو بآخر التقليد والمحاكاة، إراديا أو غير إرادى، ومنا من يلحظ أو يضبط نفسه متلبسا بالمحاكاة والتقليد، ولكن قلما يفكر أحد في منبع وقدر الآلية النفسية لهذه المحاكاة. هل تحاكي آليات ما تدركه حواسنا بالسمع أو بالرؤية للأقوال والأفعال، بحيث تفرض هذه المحاكاة نفسها فرضا على أفكارنا أو خيالنا فنردد أو نمارس تلك الأقوال أو الأفعال. أم أن المحاكاة تنطوى على ما هو أعمق من ذلك؟!

إننا لوقت يقصر أو يطول، نقرأ أحيانا أفكار الغير ونبتناها، ولو تأملنا للاحظنا أننا نكرر ما يقول، ونأتى ما يفعله؟ هنا يكون التقليد قراءة ونقل أفكار أو محاكاة أفكار، يؤدي إلى تشابه أقوال وأفعال. وكثيرا ما ينتقل ذلك بين الجماهير بسرعة خاطفة تردد فيها بالتقليد والمحاكاة ذات الألفاظ والعبارات، وتمارس ذات الأفعال، بذات الاتجاهات.. ترى ذلك مثلا في المباريات الرياضية التى تغلب فيها على الجماهير - روح القطيع، فيصبح المجموع كالجوقة الموسيقية، أو جماعات المنشدين الذين يرددون على إيقاع واحد ذات مقاطع الأغاني أو التواشيح، وترى ذلك في مظاهرات الاحتجاج الغفيرة، وفي تجمعات الطلبة والعمال والموظفين لغرض من الأغراض التى أهاجتهم وحركت مجاميعهم فانفقت أقوالهم وأفعالهم على محاكاة تسرى بينهم كما تسرى النار فى الهشيم. وشيء قريب من ذلك تراه

في احتشاد حجيج مبتهل إلى الله بدعائه وتضرعه ، أو في صيحة الجنود عند التآزر على الدفاع أو عند القيام بالهجوم ، وأيضا في أثناء الفرار . هذه الجموع تتبع المحاكاة باللاوعى ، مسمولة بروح القطيع ، لا تتخذ للتقليد أو المحاكاة قرارا ، ولا تقبل عليه قاصدة متعمدة مقررة ، بل تداعى الجموع إليه تداعيا تلقائيا ، كأن الجموع تقرأ أفكار بعضها البعض في لا وقت ، أى بالتداعى أو التحاكى التلقائى الذى لم تتح له فرصة للتفكير واتخاذ قرار ، وإنما عن طريق ما تدركه الحواس .. أولا وأخيرا .

إذا صح هذا التأويل ، فإنه يكشف لنا عن أن التقليد الذى لا ينقطع بين البشر في كافة مجتمعاتهم ، هو أظهر وأبلغ الظواهر على أن أفكار البشر تتخاطب أحيانا وفي ظروف ومناسبات خاصة ، بغير إثارة مادية من السماع والرؤية ، وأن وجود أو عدم وجود هذه الإثارة لا يحقق عملية التقليد التى هى بدءا وانتهاء - تَخَاطَبُ بالفكر بين البشر ، ونشاط في الفكر لدى البشر .

وقد تقرأ كتابا لأفلاطون أو جوستاف فلوبير أو الجاحظ ، فيغير في نظرتك لما معك وما حولك .. وهؤلاء قد ماتوا وفارقوا دنيا الناس من قرون بعيدة قبل أن نولد . ومع ذلك فإن عقولهم تخاطب عقلك ، لأن بعض أفكارهم مدونة فى كتبهم التى تقربهم إليك ، وربما كان هذا شأن بعض من كانوا يسمعونهم حال حياتهم . فالكتاب من حيث مادته ، والصوت من حيث صفاته وطبقاته وأسلوبه ، ومن حيث هو وسيلة تقارب مادية بين اثنين أو أكثر من الأحياء . هو ضمن عناصر مادية واسعة الاستعمال كدافع إلى التخاطب ، ولكنها ليست عناصر في ذات التخاطب ، لأنه تخاطب عقول لا ينهيه الموت ، ما دام يوجد حتى يشترك في المخاطبة والخطاب . بل

لا ضرورة لمعرفة صاحب الفكرة .. فكم من الأفكار والأقوال متداولة بين البشر في مختلف الأزمنة ولا نعرف ولا يعرفون أصحابها . لأن المهم هو بقاء الأفكار في أدمغة الأحياء من الآدميين أو تحت تصرفهم ، أو يكون في وسع الأحياء العثور عليها في بحثهم عنها ما جدوا في البحث عنها فيما يثيرهم إلى البحث من محيطهم .

إن الذى لا يقرأ ولا يكتب إطلاقاً ، شأنه شأن الذى يجهل لغة كتاب يزين مكتبه ، فلا تثير رؤيته في دماغه شيئاً ، اللهم إلا الحسرة والتنبه إلى أنه كان يمكن أن يزداد وعياً لو أمكنه أن يقرأه ، أو وجد على الأقل من يترجمه له إلى لغة يعرفها . فها هنا قد وجدت مظنة إثارة فقط ، ولكن لم توجد إثارة يترتب عليها تخاطب وتخاطر أفكار وتلاقحها ثم انتقالها وتفاعلها في أدمغة بشر أحياء .

بعض الحواة والمنجمين - قد يقرأ بعض أفكار من يتعاملون معه وهم في حال توترهم وقلقهم واستشراقهم ولهفتهم ، فينبثهم ببعض ما يدور حينئذ في خلدهم ؛ لأنه مرن نفسه وعودها على مراقبة أمثالهم بمزيد من الالتفات والتنبه ، وقد أغتته هذه المراقبة عن الحاجة إلى الرؤية والسماع التى يحتاجها الإنسان العادى الذى يعول دائماً على عينيه وأذنيه ، وهؤلاء الحواة والمنجمون لا يستطيعون قراءة أفكار من يتعامل معهم ما لم يعرفوا لغته ، ويعرف هو الآخر لغتهم . فاللغة هى جسر التواصل في قراءة الأفكار ، لا تتاح هذه القراءة ما لم يكن الطرفان على دراية بلغة مشتركة بينهما . فالعميل الذى يفكر بلغته ، يتعذر على المستقبل - أن يقرأ أفكاره ما لم يكن على معرفة بهذه اللغة . لذلك لوحظ إخفاق أمثال هؤلاء الحواة والمنجمين في قراءة أفكار

من يختلفون معهم لغةً . ذلك أن الواقع أن هؤلاء «القراء» لا يخمنون ولا يستنبطون، ولكن يقرأون فعلاً بعض ما يدور في رؤوس المتعاملين معهم، أو بعبارة أدق : يقلدون ويحاكون أفكارهم ، ويتقاضون ثمن هذا التقليد أو المحاكاة وهم على يقين من ذلك ، ومن أنهم لا ينجمون ولا يتنبأون !!

وربما وجدنا ذلك في بعض الأطفال حادى التنبه والالتفات ، فهم في حدة تنبههم والتفاتهم إلى الأب والأم - يعرفون ما يدور في ذهن الوالدين من الأفكار التى لا يصرحان بها ، ويقلدونها تقليدًا إراديا أو غير إرادى .. ويظهر ذلك في بعض تصرفات الطفل وحركاته .. وتظن الأسرة أن ذلك قد جاءه من طريق الوراثة ، بينما هو تقليد لأمر تدور في رأس الأب أو الأم دون أن يفصحا عنها ، يراها الطفل وتنتقل إلى ذهنه فتظهر في أحلامه وقد تتسلط على سلوكه ، وقد يعرف أو لا يعرف مصدرها ، أو لعله يخاف أن يبوح به أو بها لأحد !! . التقليد والمحاكاة دائرة دوارة في حياتنا ، لا يخلو منها الفرد كما لا تخلو منها الجماعات !

من تراب (٤٤٠) أفكار للتأمل (*) الطريق

يبدو الوعى - لدى المتأمل فيه - أنه نتف تشبه السحاب . نتف مدركة تتجمع وتنفرد بغير انقطاع ما دامت الأنا وحواسها فى حالة يقظة .

يقول علماء الاجتماع إن الإنسان حيوان عاقل ، وتسعة أعشار شقاء أو متاعب الآدمى ، مصدرها عدم اعترافه بهذه الحقيقة ، وبأن عقله وذكاؤه - ميزتان أضيفتا إلى حيوانيته أولاً وأخيراً ، لخدمتها خدمة أفضل أمتع وأكمل - مما تهيأ لسائر شركائها فى الحيوانية . لماذا ؟ ولماذا جاءت تلك الإضافة بذلك الحجم والسخاء الزائدين عن حاجات وظائف الحيوان ؟ الله تعالى وحده يعلم !! الواقع أن هذا الجانب الغريزى فى الآدمى لا يأخذ ولا يستعمل مما فى حقيقته العقلية الهائلة - إلا أقل القليل . وهو يعيش ويموت ولا يكاد يستفيد منها بشيء ذى بال - فلماذا الكبرياء ؟!

ليس للخالق جل وعلا اسم ؛ لأنه سبحانه وتعالى ليس موضوعاً ولا محلاً ولا مُسَمًّى للأسماء . واسم الله عز وجل ، هو تذكره سبحانه وليس إلا تذكره من جانب المخلوق الآدمى الذى يذكره على قدر استطاعته الآدمية ، وعلى قدر إمكانه البشرى المحدود بحدود جزئية ، سواء من حيث وعيه أو فهمه أو إحساسه الذى يعبر عنه بلغته البشرية . وهذا التذكر هو عن طريق تذكر قدرته سبحانه وتعالى وصفاته وآثاره وأفعاله المختلفة المعروفة لنا ،

(*) المال ٢٩/٤/٢٠١٠ .

القابلة للإشارة والتعريف والتسمية بلغاتنا البشرية ، وتذكر موافقنا نحن
إزاءه عز وجل ، وأفعاله سبحانه فينا وفي حياتنا ، وتذكر نتائج وعينا لها فينا
وفي حياتنا .

السعة ضد الضيق .. هذه السعة هي الفسحة والانتساع المكانى
والإمكانى ، وهى الغنى والكثرة والإحاطة والقدرة والطاقة .. يُوصَف بها
المكان والزمان والماديات والمعنويات ، ويتصف بها المبدأ والقاعدة والأصل
والعلم والتفكير والتصور والخيال والحيلة والخطة والتدبير والصبر والمصدر
والخطو والقفز والأفق والأرض والسماء والكون والعالم ، وتطلق على اللفظة
والعبارة والإشارة ، وعلى الحقوق والحريات والرخص والإطلاقات . هى
انفساح الحدود والمحدود أيا كانت وكان وابتعاد الضيق والتضييق والتحديد
والتوقف والخطر والتحریم ، وهى انفراج الشروط والأسوار والقيود ، وهى
تراجع الموانع والسدود ، وانحسار الضعف والإعياء والعجز .

وقد فسروا عبارة : ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، بأنه - جل وعلا - الكثير
العتاء يسع لكل ما يُسأل ، أو المحيط بكل شئ . فى عطائه بكرمه سبحانه
وتعالى الذى لا حده ، أو بإحاطته واستغراقه لكل ما كان وما سيكون .. وهذا
الفهم يبقى معظم المراد من قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يبقيه مسكوتا
عنه .. لأن هذه العبارة تكاد تكون مرادفة معنى ومبنى لقوله سبحانه : «الله
أكبر» أو لقول : «الله أكبر كبيرا» .. فالخالق عز وجل أوسع الواسع فى أى
اتجاه وكل اتجاه .. لأنه جل شأنه خالق الكل ، بما فى ذلك السعة والضيق
والغنى والفقر والكثرة والقلة والإحاطة والانحصار والقدرة والعجز
والطاقة والإعياء والزمان والمكان والماديات كلها والمعنويات كلها .. ويجب

أن نعي جميعا ذلك حين نتوجه إليه سبحانه وحين نخاطبه وحين ننطق باسم من أسماه .. لأننا بغير ذلك نتعرض للغفلة .. لا عن اسمه عز وجل ، بل عن خالقيته وسعة خالقيته التي مع تذكرها يهبط كل سعى لدينا لتحديه سبحانه وتعالى ، أو لمخادعته في أعيننا !!

وعينا يولد مع ميلادنا وينمو مع نمونا . لكننا ننساه ! .. ننساه في بداياتنا وننسى وظيفته ومهمته وضرورته للعقل والإرادة والاختيار ، وننسى لذلك حاجته الدائمة إلى اليقظة والتيقظ وإلى مقاومة الإغفال والغفلة ، إذ منها يدخل ويتسبد في وعينا - الوهم والغرور والطمع والكبرياء ، أو عكس ذلك الشعور بالصغار أو الكآبة أو التشاؤم أو القنوط أو اليأس من أنفسنا !

اليقظة أو التيقظ اعتياد يحتاج الإحساس بوجوده إلى المحافظة على تنميته ؛ لأنه من المقومات الأساسية للوعى ... وعموم الآدميين يشتركون في عموم الوعى ، لكنهم على الدوام يختلفون في مقداره في كل عمر ومناسبة وموقف وربما أيضًا في كل مكان ! ودواعى اختلافهم فيه أفرادًا وجماعات - وهى لم تنقطع ولن تنقطع - تزيد كثيرًا عن دواعى اتفاقاتهم التى يضمن بقاءها غالبًا اعتيادهم على تنفيذها .. ولعل لهذه الاختلافات أصلًا فى خلقه الإنسان من أصول دفعه إلى الانتشار ومن ثم إلى التنوع !

فكر فى الثقة وتأملها . لأنك ستجدها ممتدة الجذور والفروع فى كل ما نسميه المكان والزمان ، وكل ما نسميه الماضى والحاضر والمستقبل ، والقريب والبعيد ، والفوق والتحت ، والظاهر والخفى ، والأول والآخر ، والأصل والفرع ، والسبب والنتيجة . ستجدها فى العقل والنفس والروح والعاطفة ، وفى الإنسان والحيوان والنبات . ستجدها فى الحياة كلها فى كل حى وفى كل خبرات الحى وكل ما هو موضوع لخبراته .

تأمل ما نسميه الخطأ والشر والرذيلة ، وما نسميه العصيان والتمرد والثورة والغضب ، وما نسميه الفشل والإخفاق والإحباط ، وما نسميه القلق والخوف والفرع والجزع والجبن والرياء والنفاق - تأمل صلة ذلك كله بالثقة ، تجد أنها أحوال اهتزت فيها الثقة أو اختفت من أفق الحى .

فالثقة المطلقة التى لا تفارق القلب والعقل قط - هى حضور المطلق على الدوام فيها ، وهى ما نسميه الإيمان العميق بالله .. هذا الإيمان العميق ليس مجرد معرفة أو مجرد فهم خاليين تمامًا من الثقة .. إذ يستحيل أن يكون كذلك ؛ لأنه يستحيل أن توجد خبرة بشرية أو خبرة حية خالية تمامًا من الثقة المطلقة التى لا تفارق القلب والعقل معًا فى أية لحظة فى أى خبرة .. حتى عند التعامل مع المجهول أو مواجهته .

من تراب الطريق

هل أنصفنا الناس (*)
في حياتهم؟!

(٤٤١)

تكرر أكثر من مرة ، في الآونة الأخيرة ، زخم من التقدير والإشادة والتكريم ، لأكثر من راحل تجاهله الناس في حياته ، بل تجاهله أصحاب التقدير والإشادة ، وتستطيع أن تأخذ الكاتب الصحفي الأستاذ محمود عوض مثلاً لهذه الملحوظة التي لفتت مع غيرها انتباهي .

الأستاذ محمود عوض كان ملء السمع والبصر لسنوات قريبة ، ولم يكن من ظهورات الصحافة أو الكتابة ، بل شهدت مقالاته وتحقيقاته الصحفية وكتبه وعبرت عن موهبة حاضرة ، وأستاذية لافتة أعطته مساحة كبيرة لدى القراء والمتلقين عنه بعامة ، وكان لازم ذلك أن تُفسح له مساحة أوسع في المواقع الصحفية الكبرى ، ولكنه لأسباب غير معروفة حُجب عن المواقع الجدير بتبوئها ، وحُجب أيضًا أو كاد - عن الكتابة سيما في الصحف القومية ، ويبدو أن الغيرة المهنية حالت بدورها دون إفراح المكانة والمساحة المكافئة لموهبته وقدراته - بل دون إعطائه أى مساحة على الإطلاق ، ولم يظهر إلا مؤخرًا - وعلى استحياء - في بعض الصحف المستقلة ، ثم فجأة ، رحل الأستاذ محمود عوض عن دنيانا وحيدًا في مسكنه ، ولم تُكتشف وفاته إلا بعد أيام ، وفجأة انهمرت الكتابات في كل موضع ، تشيد بالراحل العظيم ، وتضفى عليه من الأوصاف والصفات ما لو سمع معشاره في حياته لمات هائئًا سعيدًا قرير العين!!

(*) المال ٣/٥/٢٠١٠ .

ظنى أن معظم هذه الكتابات إقرارٌ بالذنب والتقصير في حق الراحل الذى لا يختلف أحد حول تميزه وموهبته وقدراته ، لم يكن الراحل مجهولاً حتى لا تذكره الأعلام إلا فجأة بعد رحيله عن الدنيا ، فذات هذه الأعلام ، ومنها أصحاب مواقع مؤثرة ، تعرف له قدره الذى ظل مطوياً لا يظهر ولا يُبدى ولا يُنصف إلى أن مات! فلماذا لا ننصف الناس أحياء ، ولماذا دائماً لا يأتى إنصاف الناس إلا بعد موتهم؟! حالة الأستاذ محمود عوض ليست هى المرة الأولى ، ولن تكون الأخيرة - لانفجار الرثاء وانهار ذكر محاسن وأفضال وآثار ومآثر الميت؟! وهو ما حدث أيضاً بعد وفاة الأستاذ الجليل الدكتور فؤاد زكريا الذى كابد العزلة في سنواته الأخيرة التى غلبه فيها جحود ونسيان الناس أكثر مما غلبه السن والمرض!! لماذا دائماً يأتى الإحساس بالواجب متأخراً عن مواعده حين لم يعد بوسع المزجى إليه الإطراء والثناء أن يتلقاه أو يسمعه؟! -

ترى كم شخص يحس الآن - في هذه اللحظة - بجحود أو نسيان الناس له؟! ما هو إحساس الوالدين حينها لا يتلقيان من الأبناء إلا الجحود أو إلقاء الفتات المادى أو المعنوى لهما من وقت لآخر أو في المناسبات؟! ما هى مشاعرهما وقدر ما يعانيانه من التعاسة حين يهملهما أولادهما ولا يعطونهما إلا ظهورهما؟! ما هى مشاعر المعلم الذى ينكره تلاميذه؟! ما هو إحساس الطبيب الذى بذل وداوى حين يحجده مريضه؟! أو المحامى الذى أعطى من فكره وعلمه ما أقال به مظلوماً من ظالميه أو جبر عثرته ، فلا يلقى إلا الجحود والإنكار؟! لازلت أذكر أسمى أستاذى الجليل محمد عبد الله محمد ، من مسلك طبيب كاتب ترفع عنه سبعة أيام كاملة ، شهدت فيها محكمة جنوب

القاهرة مرافعة رائعة أقاتلت المتهم الكاتب الطيب من تهمة الكفر والإلحاد ، فلما صادف محاميه هذا الرائع ، على متن رحلة إحدى الطائرات ، تجاهله كأنه لا يعرفه ! ذكر لي الأستاذ محمد عبد الله محمد هذه الواقعة بعد حصولها بسنوات لم تنجح في إزالة ما يشعر به من مرارة ، يومها واسيته بأن حال الطيب الكاتب المذكور شبيهة بالمرضى النفسى الذى ينكر - باللاوعى - طبيبه الذى عالج له لأنه يذكره بحالته المرضية التى كانت ويريد أن يهرب من ذكرها .. من العجيب اللافت أن الطيب الكاتب عاد بعد سنوات طويلة ، فى برنامج تليفزيونى بُث بعد رحيل الأستاذ محمد عبد الله محمد ، ليذكر للمتلقي عبقريته واقتداره ومآثره عليه حين أنقذه دفاعه المتميز الرائع من تهمة الإلحاد على هامش كتابه الذى كان قد أصدره وهو فى أول الطريق ! كان محمد عبد الله محمد قد مات وفارق الدنيا حين تذكره الكاتب الطيب وأثنى عليه ، بعد أن كان قد أنكره فى حياته !

لماذا تعدد فى الحكم والأمثال أوابد مثل : «إن أنت أكرمت الكريم ملكته ، وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا» !! ومثل : «علمته الرمى فلما اشتد ساعده رمانى» !! ترى كم من الأقلام التى تذكرت فجأة مآثر وموهبة الأستاذ محمود عوض ، أعطته ظهرها وأنكرته فى حياته ، وكم من أصحاب هذه الأقلام حججوا عنه المواقع التى يستحقها ، وحججوا كتاباته عن القراء .. عمداً مع سبق الإصرار ؟! ما الذى جعل عبقرية مثل الدكتور جمال حمدان تنطوى مغلفة على نفسها ، وتخاصم الدنيا حتى لاقت حتفها وحيدة بالسكن الذى تحول إلى سجن انفرادى اختياري .. فى حريق مأساوى عبثى ، ولكنه يستحضر ما درجنا عليه من جحود وإنكار الأحياء ، لا نذكرهم إلا بعد وفاتهم من باب إبراء الذمة وإراحة الضمير المتعب من الإحساس بالذنب والتقصير ؟!

الغريب اللافت ، أن المعطائين هم أكثر الناس معاناة من جحود وإنكار
وقلة إخلاص وربما خيانات الناس ! هل ذلك لأن حجم وتواصل عطائهم
يزيد - بالمقابلة ! إحساسهم بهذا الجحود ؟! لا مرأى في أن المقابلة تزيد
الإحساس بالمرارة ! ولكن المؤكد بغض النظر عن قدر هذا الإحساس المر ،
أننا نحجب الوفاء عن مستحقه إن لم نقابله بالإنكار والجحود ، وأن أفضل
الفروض أمام شرنقة الاعتقاد ، أننا اعتدنا أن نحجب العرفان ولا نتذكر
الجديرين به إلا بعد أن يطويهم الموت !!

هل هى عقدة الذنب التى تدفع إلى هذا التدارك وانهمار الشئ وإبراز
المزايا والمآثر بعد الرحيل ؟! ولكن بعض من أنصفوا فى حالة الأستاذ محمود
عوض - كمثال - لم يقارفوا ذنباً فى حقه يدعوهم إلى التكفير ؟!

هل هو الخوف من المنافسة التى تدفع أبناء الكار إلى تجاهل كفاءات الغير ؟!
ولكن بعض من تجاهلوا الرجل فى حياته لم يكونوا فى موقع منافسة معه
لفارق الكفاءة أو السن أو الظروف .

هل هى آفة النسيان التى تأخذ الأحياء إلى مراكز وبؤر الاهتمام فتنتظم
غيرها فى زوايا النسيان ويتراكم عليها التجاهل حتى ينساها الناس فعلاً ؟!
ولكن كيف يُنسى صاحب قلم لم تفارقه كفاءته وقدراته لحظة ؟!

يبدو أن حالة الأستاذ محمود عوض حالة مركبة ، تعددت فيها الأسباب
والنتيجة واحدة ، هى تجاهل هذا النابه لسنوات قبل أن يصحو الاهتمام بخبر
الموت الذى يفاجئ الجميع فيتشغل الناسين أو المتناسين من حالة النسيان ،
ويوقظ لدى من أخطأوا فى حقه - عقدة الذنب !

لا يعرف وحشة ومرارة النكران أو الصدود ، إلا من تميزوا وناضلوا
وجاهدوا وأوفوا وأعطوا ، فلم يلاقوا إلا صدودًا أو إنكارًا أو ألعاب
صغار أو خيانة نفوس طويت على الغدر وانعدم لديها الوفاء.

من آفاتنا الكبرى أننا لا ننتبه إلى قيمة من بيننا إلا بعد فوات الأوان !!!

من تراب الطريق

(٤٤٢) من المسئول الحقيقي؟ (*)

هل السيد المبجل نائب إطلاق الرصاص على أبناء الشعب ، هو المسئول وحده عما تورط فيه ؟! أى شيطان ركبه فجعله يطلق هذه الكلمات العبيطة التى يدرك هو نفسه أنها لن تتجاوز لسانه أو حلقه.. هل كان يعنى حقاً أن تقوم قوات الأمن المركزى بإطلاق النيران على المتظاهرين تظاهراً صامتاً ؟! هل كان يصدق نفسه فعلاً - أن من يناديهم بنداء لا يوجه إلا لقوات «الهاجانة» الإسرائيلية فى عصفها بالعرب .

هل كان يصدق نفسه فعلاً أن المصريين سينصاعون لندائه فيطلقون النيران فى المليان على بنى وطنهم ؟!

ظنى إن لم يكن يقينى ، أن السيد العضو المبجل كان يعرف - هو نفسه - أن قوات الشرطة لن تلقى بالألإ نداءه المقرز ، وكان على يقين - هو نفسه - أن نداءه لن يجاوز حنجرتة ، وأنه هو ذاته لم يعن غير إطلاق حنجرتة بهذه الكلمات الخائبة ؟! فلماذا إذن أطلقها ؟!

أطلقها لأنه يعرف أن الكلمات صارت تحمل لدينا محل الأفعال ، وأن لا أحد فى الغالب الأعم يعنى ما يقول ، فالكل يقول ، والكل لا يفعل ، ولا أحد يلوم أحداً أو يستوقفه إطلاق الكلمات وحلوها محل الأفعال ! هذه واحدة !

(*) المال ٤/٥/٢٠١٠ .

والثانية مناخ عام كرسه بعض الأقلام الملكية أكثر من الملك ، وأكثر مما يريد الملك ، تتسابق في إظهار الولاء ، إن لم يكن بالفعل ، فليكن بالكلام ، هناك أقزام تعالوا على عمالقة كبار بالسب والشتم والتحقير والإهانة ، وربما تمنى الواحد منهم أن ينعم ليتشرف بمجرد السلام وتبادل التحية مع من تطاول عليه بأقذع الألفاظ والشتائم والإهانات !! شاع في الجو العام نوع من إظهار الولاء الرخيص ، هذا الولاء الرخيص هو أس البلاء ، هو أساس المشكلة ، هو سبب ما تورط فيه العضو المبجل الذى أطلق لسانه للتعبير عن الولاء كما يطلقون ! وتسابق في إظهار الإخلاص بالكلام كما يتسابقون ! ولم يكن يدرك أنه جاوز الخطوط الحمراء ووقع في حومة الوغى حين أطلق ألفاظاً يرى كل يوم أنه لا يتوقف عندها أحد ، فلماذا إذن توقفوا في هذه المرة ؟!

توقفوا لأن الكلمات المدهانة المرائية المتزلفة - كلمات سفيهة حمقاء تترد بالسلب على من يتملقهم ويدهانهم ، ويوقن - حسب عقله - أنه يتزلف إليهم وينال رضاهم كلما أوغل في الحمقة والانفعال . الخطأ الذى وقع فيه هو الشعرة أو الحد الفاصل بين مدهانة يمكن قبولها لأنها إن لم تنفع فلن تضر ، وبين تزلف أحق يجلب النقد ووجع الدماغ لمن أراد إظهار الولاء لهم ونيل القربى منهم !

فما الذى أراده في هذه الهوة السحيقة ؟! أراده أنه رأى أقلاماً تشتط تزلفاً وتقذف القامات بالقاذورات دون أن يراجعها أحد ، مع أن سداد فاتورة هذا الشطط لا يدفعه المشتط بل يدفعه سواء ؛ لأنه يجلب للكبار عداوات ، وينقل الاختلاف فى الرأى ، إلى خصومات وتاربايت يتحمله غيره . هناك أقلام بالغة الجموح استحضرت إلى الساحة مناخاً عاماً فى الرياء والنفاق

والتزلف ، وهى فى ظنى المسئول الحقيقى عما تورط فيه النائب المبجل .. فهى التى حضته بما يراه ويعاينه - أن يدخل المعمران ليتسابق فيه دون أن يكون مالكاً لأدواته .. فخلط بجهالته بأصول اللعبة بين ما يقال أو يمر ، وبين ما لا يقال ولا يمكن أن يمر ! لم يدرك أنه مهما كان فى عبارته من تظاهر لفظى ونفاق ظاهرى - لن يستمع إليه أحد ، وأن اندفاعه الأحمق نقطة سلب بالغة الخطر لا يمكن للمسئولين تمريرها وإلاّ صارت طعنة نجلاء تدينهم وتحذف منهم ما تصور السيد العضو الموقر أنه سيضيفه إليهم !

السيد العضو المبجل أوقعه هواه فى الزلفى فيما لا تحمد عقباه ، وليس له أن يلوم إلاّ نفسه ؛ لأنه انزلق برعونته فيما لا يُحسّن الكلام فيه ، وظن أن كل من ركب حصان النفاق خيلاً ، وأورده هذا الظن السقيم موارد التهلكة ، فخسر الجلد والسقط .. ذلك أن حساب خسائره لم يتوقف عند إدانة الرأى العام وشجبه هذه السقطة النكراء ، وإنما امتد ليحول ما ظنه سوف يكون حساب أرباح ، إلى حساب خسائر . مشكلته الكبرى أن هذا الحساب الأخير الذى انقلب إلى التقيض ، كان هو هدفه ولا هدف له سواه ، وكان هو غايته ولا غاية له سواها . هو يفهم حين أطلق أعيرته بهذه العبارة الطائشة أنه لن يرضى المصريين ، وسيجلب عليه سخط الرأى العام ، بيد أنه لم يكن يبالي - فى سبيل هدفه المقصود - بعدم رضا المصريين ولا بسخط الرأى العام . إنه يعرف غايته ، وحدد غرضه ، وهو الإرضاء والتزلف والقربى ، وكلها فى ظنه ومقصوده رصيد أرباح ومكاسب لا تستوقفه أى خسائر جانبية خارج هذا الرصيد المهم الذى حدد فيه غرضه ، فلا مصر تعنيه ، ولا المصريون يشغلون له بالاً ، مادام يخوض الحمم لإظهار الولاء والإخلاص ! لذلك

جاءت نكبته مضاعفة ؛ لأنه خسر الجميع ، وأوجعه أكثر أنه خسر من أراد
بزلفاه التقرب إليهم ونيل رضاهم ، فإذا بهم على عكس ما تمناه ، يظهر
النكير له ولما فعل ، ويتعقبونه بالحساب والمساءلة !

قيل في الحكم والأمثال : «عدو عاقل خير من صديق جاهل» .. وتمثل
العقلاء «بالدبة» التي قتلت صاحبها وهي تريد مداعبته ، ولو تمثل السيد
العضو المبجل هذه الحكمة ، لأدرك أن السلاح الحقيقي الذي يحقق له
طموحه ، هو التزام العقل والموضوعية والوقار . الإخلاص هو إخلاص
للقيم وليس تزلفاً للأشخاص . في حديث رسول القرآن - عليه الصلاة
والسلام : «من أسخط الله في رضا الناس ، سخط الله عليه وأسخط عليه من
أرضاه في سخطه ، ومن أرضى الله في سخط الناس ، رضى الله عنه وأرضى
عنه من أسخطهم في رضاه» .. وفي عبارة السيد المسيح عليه السلام : «لن تربح شيئاً
إذا كسبت كل شيء وخسرت نفسك» ؟!

ظنى أن السيد العضو المبجل قد خسر كل شيء ، خسر الناس ، وخسر
من أراد إرضاءهم بسخط الناس ، وخسر نفسه .. لن يفارقه صعد أم هبط في
سلم الترقى الذي ينشده ، أنه في لحظة عقيمة معتمة تقياً عبارة مجنونة ينادى
فيها بإطلاق الرصاص على المصريين !

ظنى أن المسئول الحقيقي عن هذا النشاط ، هم صناع النغمة أو التيمة
العامة ، التي جعلت الوصولية والتزلف والنفاق سمة عامة ، يتسابق في
إطارها طلاب الوصول من ضعاف النفوس ، نعم . ما انطلق من السيد
العضو المبجل نشاط زاعق ، ولكنه نشاطٌ ظهر أنه لم ينفرد به ، وكشفت
المناقشات التي أديرت في البرلمان ، وتصريحات السيد العضو صاحب

اقترح إطلاق النار في المليون ، أنه لم يكن الوحيد صاحب هذا النشاز ، وكان
هناك آخرون جعل يذكرهم ولسان حاله يقول : «اشمعنى أنا؟؟!!» .
مفجع ومؤسف وموجع .. أن يسود منطق : لماذا يحاسب الناشز عن
نشازه مع أن الجميع في الهم نشاز؟؟!!

من

تراب (٤٤٣) على هامش معالم التقريب (*)

الطريق

حدثتكم مرارا عن أبى الروحى، وأستاذى الجليل محمد عبدالله محمد، ومن درره التى حدثتكم عنها فى مناسبات مختلفة كتابه الرائع : «معالم التقريب» بين المذاهب الإسلامية .. كان هو الكتاب الوحيد الذى أخذته مع القرآن المجيد فى رحلتى لإجراء جراحة فى القلب بالولايات المتحدة فى يوليو ١٩٩٠ .. ما رجعت إلى هذا الكتاب إلا وازداد إعجابى بما فيه من عمق ونفاذ بصيرة ..

يبدو فيما نستخلصه من معالم التقريب - من محمد عبد الله محمد ، أننا أحوج الأمم إلى تذكير أنفسنا بأن مخاطبة الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال ، أقوى كثيرا وأبعد أثرا وتأثيرا من مخاطبتهم بالكلام . الكلام بغير أفعال تصادقه وسلوك يشهد به ، أشبه بالحرث فى البحر ، لا صدق حقيقيا ولا طحن له . يسهل علينا الكلام لأنه لا يقتضينا مجهودا ولا يلزمنا بالتزام ، ومن الناس من يعشق التشديق به خطيبا أو متحدثا أو متخايلا ، لا يلقي بالأثر كلامه الذى لم يجاوز فى مقصده إبهار السامعين ببلاغته وفصاحته !

وقد يبدو للوهلة الأولى ، أن الدعوة القولية هى وحدها التى تقبل الإعداد والتخطيط والتنظيم واتباع المناهج وتعديلها حسب ظروف الزمان والمكان ، وأن الدعوة عن طريق مخاطبة الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال ، تستعصى على فكرة الإعداد والتخطيط والتنظيم والمناهج ؛ لأن زمام هذا النوع من الخطاب فى يد آحاد ، يتوقف على سلوك كل منهم الشخصى ، بيد

(*) المال ٢٠١٠/٥/٦ .

أن هذا الظن غير صحيح ، فالسلوكيات والتصرفات والأفعال تقبل بدورها الدراسة والإعداد والتنظيم ، ولكنها تحتاج إلى مزيد من الصدق ، ومزيد من شجاعة القلب وقوة التماسك والثبات .

ومهما سلمنا بوجود قدر في خطاب الدعوة يجرى بالمواقف والتصرفات والأفعال ، إلا أن الدعوة القولية هي الطاغية ، فهي أقل مشقة وأيسر أداءً ، فلا يقتضى بذل الكلام جهداً كثيراً ولا عناءً ، ولا يكلف صاحبه في الأغلب تضحية في أطعاه أو في أمواله ، ولا يقتضيه تغييراً في عاداته وأسلوب حياته ، في الوقت الذى يجذب إليه الأنظار ، ويحقق له السمعة ، ويشهد له بين الناس بالعلم والفضل .

ويبدو أن اعتقادنا المبالغ فيه في قوة الكلام وقدرته ، نابع من كوننا قد عشنا أحقاباً على الأمانى ، ففقدنا ثقتنا بالمحدود المعين المقدور في التنفيذ ، وفقدنا الاستعداد النفسى لبذل الجهد . والصوفية على سواء حين يفرقون بين «الرجاء» باعتباره الثقة فيما عند الله التى تحدث للعامل الناشط ، وبين «الأمنية» من حيث احتمال تحقق المراد المأمول بغير اتخاذ أسبابه . ونحن بين يدى الأمنية نتخلى عن الإرادة أو ما يتصل بها من عمل ورجاء معقود بالله طى هذا العمل ، ونستسلم استسلاماً تاماً مريحاً لما ستجىء به الأيام كيفما تجىء . على أن فقدان الرجاء يعطل معظم إرادة الإنسان ، فيعاف ويكره كثيراً مما يحتاج إلى جهد ومثابرة ووقت . لذلك ففقدان الرجاء معناه فقدان أهم وأشرف حافز - يحفز إرادة الأدمى ويحركها إلى العمل والمثابرة عليه وإتقانه وتجويده . وقد تحول ذلك مع الزمن إلى داء مزمن ضمرت معه الإرادة البشرية ، واستغنى الناس بالأمنية عن الرجاء ، واكتفوا في ظل

الإرادة الضامرة بالانتظار ، واعتادوا عليه ، هارين دائماً من الرجاء الخصب إلى غرور الأمانى الجذباء .

وخلال ذلك وقع الخلط بين بساطة الإسلام وبين السهولة ، فاعتقد البعض أن الإسلام بسيط بمعنى أنه سهل لا يتقاضى من المسلم جهداً ولا عزيمة ولا تضحيات ، وأدى هذا ومهد ووطد لسيادة الكلام والفصاحة وحلولهما محل الأعمال والأفعال .

لا ينبغي لعاقل أن يتصور أن الإخلاص لله تعالى أمر هين لين ، فكيف يتصور أن يكون الإسلام سهلاً هيناً ؟!

بساطة الإسلام معناها أنه قادر قدرة عجيبة على إبراز ما هو جوهرى ومفيد فى أغراضه ، وعلى استبعاد كل ما يحجب الجوهر من الحواشى والتفصيلات . فبساطة الإسلام ترجع إلى أدائه لمضمونه ، ومقدرته على أداء هذا المضمون أداءً ناصعاً مباشراً . وهذه البساطة نقيض تلك السهولة الكلامية البدائية التى تكتسح ما هو جوهرى وأساسى . فالإسلام بسيط من جهة حرصه الشديد على رؤية ما هو جوهرى وما هو مفيد فى الحياة ، مرتسماً بقوة على سلوك المؤمن وتصرفاته فى حياته الخاصة والعامة .

وكما حصل الخلط بين بساطة الإسلام وبين السهولة ، حصل التمييز بين المتدين والمستقيم ، فلم تعد البيئات الإسلامية تعتبر التدين مرادفاً للاستقامة ملازماً لها لا ينفك عنها .

وقد نتج عن طول سيادة الكلام وانفصال الدعوة القولية عن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال والسلوك - نتج عن ذلك أن ضعفت قدرة اللغة الإسلامية عن التوصيل ، وانفصلت فى الغالب عن الواقع والحقيقة !

إن وراء ميل معظمنا إلى الاشتغال بالأغراض الضخمة والإصلاحات الكلية، وراءها فضلاً عن جاذبيتها - بقية من فقدان الرجاء وضمور الإرادة والحرب من ملاقة الواقع والتعامل معه ومعاناته . ولن يستطيع أفراد المسلمين أن يصلحوا واقعهم - مع المحافظة على حرياتهم وحقوقهم - إلا إذا لاقوا هذا الواقع بأنفسهم ، وعانوه بأشخاصهم منفردين ومشركين في إصلاحات جزئية وأغراض معينة محددة يكون في استطاعتهم هم التعرف عليها والقيام بتنفيذها .

وهذا يأخذنا إلى قضية أخرى هي قضية اتجاه الإسلام : هل هو يتجه إلى الماضي كما ينعى عليه خصومه ، أم أنه يتجه إلى الأمام نحو المستقبل متخذاً من الماضي قوة تؤيده وتسدد خطاه ؟

والملاحظ أن الناس يقبضون على ماضيهم بعناد وإصرار وتعصب حين لا ينجح الحاضر في اكتساب ثقتهم ، وحين ينفرهم هذا الحاضر ويزعجهم ، وحين يحسون أن القيم اللازمة للحياة الكريمة - غير مصنونة ولا محترمة . وهذه آفة خطيرة ؛ لأن الإنسان ابن مستقبله ، وليس ابن ماضيه أو حاضره .. لكنه يتخوف من غده دائماً بالالتفات إلى الحاضر وتصوره للماضي !



من تراب الطريق

(٤٤٤) في عالم الكتب! (*)

وقعت في أرشيفى على مخطوطة ترجمة ترجع إلى أكثر من ثلاثين عاما ،
لخاتمة كتاب: «الماشون وهم نائمون» أو «الماشون نيامًا» «Sleep walkers» ،
وهو واحد من أروع كتب الكاتب المجرى الإنجليزى «آرثر كوستلر» Arthur
Koestler .. كتبه عن تاريخ تغير فكرة الإنسان عن الكون : A History
Of Man,s changing vision Of The Universe .

وصدرت أولى طبعاته سنة ١٩٥٩ ، وأعيد نشره عدة مرات . وأعادت
نشره دار بنجوين الشهيرة مرتين فى سنة ١٩٦٤ ثم فى سنة ١٩٦٨ ، ثم
عادت بنجوين أركاننا إلى نشره للمرة الثالثة سنة ١٩٨٩ ..

وآرثر كوستلر كاتب ذائع الصيت ، عمل مراسلا حريبا ، وخاض حياة
ملئية بالأحداث والمغامرات ، بالإسهام وبالأفعال والكتابات .. ولد فى
بودابست بالمجر سنة ١٩٠٥ وتوفى ١٩٨٣ ، درس فى جامعة فيينا بالنمسا
قبل أن ينخرط فى الصحافة - وعمل كمراسل أجنبى متنقل ما بين الشرق
الأوسط وباريس وموسكو . وفى سنة ١٩٣٧ أثناء تغطيته لأخبار الحرب
الأهلية الإسبانية لمجلة نيوز كرونيكل - وقع فى أسر قوات الجنرال فرانكو ،
وعاش فترة فى السجن انتظارًا لإرساله للموت ، ثم أطلق سراحه بتدخل
من الحكومة البريطانية ، وعاد إلى لندن حيث استمر فى الحياة فيها منذ عام
١٩٤١ ، وكتب عن الحرب الأهلية الإسبانية ، ومن مؤلفاته : «الوصية

(*) المال ١٠/٥/٢٠١٠ .

الإسبانية» (١٩٣٧) ، وفي أثناء الحرب خدم في الفيلق الفرنسي الخارجى ، وخدم في الجيش الإنجليزى ، وفي سنة ١٩٤٥ اشتغل مراسلا خاصا لجريدة التايمز في فلسطين . وطوال السنوات العشرين ستى ١٩٤٠ ، و ١٩٥٠ صار ريبا أكثر كتاب الروايات السياسية انتشارا . واعتبرت روايته «ظلام في القمر» Darkness at moon درته الكبرى ، ونشرت في عام ١٩٤٠ ، أتبعها برواية «الوصول والرحيل» (١٩٤٣) ، ومن مؤلفاته : «محاورة مع الموت» (١٩٤٢) ، و «المصارع» (١٩٣٩) ، و «حشالة الأرض» (١٩٤١) ، و «ظلام في الظهيرة» (١٩٤١) ، و «للصوص والليل» (١٩٤٦) ، وكتب : «الاستبصار والنظرة العامة» بحث في الأسس المشتركة للعلم والفن والأخلاق الاجتماعية (١٩٤٩) ، ثم «عمر الشوق (أو الرغبة)» The age of longing (١٩٥١) ثم «The call Girls» (١٩٧٢) .

ومنذ سنة ١٩٥٦ بدأ غوصه في مسائل العلم والتصوف ، وصارت له شعبية كبيرة بين الشباب ، وفي إيضاح اهتماماته المتنوعة ، كتب أنه صنع رواياته من خلال معاركه مع الأحوال الإنسانية ، وأن كتبه سعت إلى تحليل هذه الأحوال والظروف في صياغة علمية ، وأن الإعلام كان له أثر بالغ في انتشاره ، وأنه على أية حال كان يمكن - بدون الإعلام - ألا يشعر إلا بنصف حياته !

وكتاب الماشون وهم نائمون ، أو الماشون نياما The Sleep Walkers الصادر سنة (١٩٥٩) ، هو بداية ثلاثية حول العقل البشرى ، أعقبها كتاب «عملية الخلق» Act of creation (١٩٦٤) ، وانتهت بكتابه الثالث : «الشبح في الآلة» The Ghost in the machine (١٩٦٧) .

وفاز كوستلر بجائزة جامعة كوبنهاجن سنة ١٩٦٨ ، وبكثير من
شهادات التكريم ، واحتل مكانه كأحد الكتاب المرموقين عالميا ، والمتميزين
في الكتابات الأدبية والإنسانية .

والخاتمة أو الختام Epilogue - التى عثرت فى أرشيفى على مخطوطة
ترجمتها ، هى كما حدثتلك لكتابه «الماشون وهم نائمون» أو «الماشون نياما» The
Sleep Walkers .. وجمعت هذه الخاتمة خلاصة فكره عن تاريخ تغير
فكرة الإنسان عن الكون ، وقد عَنَى عندما عاودت قراءتها بعد هذه السنين ،
أن أقدمها للهِلال الشهرى الذى قدمت له سلفا ترجمة فصول «قد تكون
الديانة تجسيدا للعقل» من كتاب سانتاينا الكبير «حياة العقل» The life
of Reason ، ونُشِرَت على عشرة أشهر ثم صدرت فى كتاب الهلال نوفمبر
٢٠٠٩ ، وانتويت أن أقترحها على الأستاذ عادل عبد الصمد رئيس التحرير
القدير لمجموعة كتاب وروايات ومجلة الهلال ، لتُنشر بالهِلال الشهرى بعد
انتهاء نشر المقالات السبعة المترجمة الجارى نشرها الآن عن كتاب العالم
الإنجليزى آرثر ستانلى إدينجتون : «الواقع أو الحقيقة» Reality .

وأزمنت توطئة لهذه الفكرة ، أن أعاود النظر فى الترجمة على الأصل
الإنجليزى ، ولكنى للأسف لم أعثر على الكتاب فى مكتبتى ، ولعله فقد أثناء
تقلاتى المتكررة ، أو باستعارة لم تُرد كما جرى معظم الناس حتى أقفلت
تماما عن إعارة أى كتاب ، مهما كانت الصداقة أو الثقة ، لأن الشائع فى
الغالب الأعم أن عدم رد الكتاب يدخل فى المباحات غير المحظورة ، سيما
بين الأقارب والأصدقاء .

حاولت أن أعثر على نسخة من الكتاب The Sleep Walkers في مكتبات القاهرة التي أخذت في الانقراض لتحل محلها متاجر الأحذية التي تكاثرت تكاثراً لا يتفق مع معدلات البيع مما يستلفت النظر ويشير علامات استفهام قد يجب البحث لها عن جواب أو تفسير ! المهم أنني لم أعثر على الكتاب بالقاهرة ، فیممت بمساعدة ابنتي وبعض زملائي بالمكتب شطر شبكة الانترنت ، فوجدت مواد كثيرة منشورة عن المؤلف آرثر كوستلر ، وعن مؤلفاته المتنوعة ، وعن كتابه The Sleep Walkers - فيما عدا مادة هذا الكتاب ، فلا بد للحصول عليها من أن أشتري الكتاب ، من دار بنجوين أركانا في لندن ، وبالجنیه الاسترلینی ، وإلا فلا سبیل للمراجعة النهائية التي أرجو بها تحقيق مخطوطة الترجمة القديمة قبل أن أبعث بها إلى مجلة الهلال الشهري .

كان لا بد مما ليس منه بد ، الكتاب سعره بالجنیه الإسترلینی ١٦,٩٩ U.k كنظام «باتا» زمان . السعر إذن ١٧ جنیه إسترلینی ، تكلف بحسبة بسيطة قرابة ١٦٠ جنیه مصرياً ، كان على أن أرسلها - بالاسترلینی - إلى دار بنجوين . وقد كان . واستعوضت الله في المائة وستين جنیه ضريبةً واجبة لضبط وتدقيق الترجمة . فلما وصل الكتاب ، رزئت بأكثر من مائة جنیه أخرى ما بين سعر الشحن والضريبة الجمركية التي تأتي مصلحة الجمارك إلا أن تفرضها على الكتاب . هل هذا معقول في زمن نتنادى فيه بوجوب العودة إلى الثقافة وإنارة العقول ؟

كنت قد كتبت لك من عدة شهور مستجيراً من ارتفاع أسعار الكتب - مع تناقص المكتبات في مصر المحروسة ، فجاءني درس عبر البحار : «ألا

فهوّن عليك» ها هو كتاب من بلاد الإنجليز كَبَدَّكَ قَرَابَة (٢٧٠) جنيها
مصريا ، فاحمد ربك على أسعار الكتب في مصر» !!!

حمدت ربى ، وراودنى الأمل وأنا ألتهم صفحات الكتاب ، أن أترجمه
كاملا لأهمية وتميز موضوعه ، فوجدت عدد صفحاته قد بلغ بالإنجليزية
(٦٢٣) صفحة ، تحتاج إلى وقت وجهد كبيرين لم يعد في الوسع توفيرهما بين
أعباء المحاماة والمقالات والكتابات شبه اليومية ، فارتددت قانعا بختام أو
خاتمة الكتاب ، الواقعة في نحو (٩٠) صفحة ، معزيا نفسى بأن بها خلاصة
وعصارة ما في هذا الكتاب الذى أرجو أن يتصدى لترجمته أحد مترجمينا
الكبار ، يشفع لرجائى أن به ما يستحق أن ينقل إلى قراء العربية !

من تراب الطريق

(٤٤٥) الشَّص (١٠)
(١)

وقفت متأملاً حائراً في هذا العنوان : « الشَّص » .. الذى اتخذته أستاذى وأبى الروجى صاحب الأفضال التى لا تعد ولا تحصى ، الأستاذ الكبير المحامى الشاعر الأديب محمد عبدالله محمد .. واتخذته عنواناً لإحدى قصائده فى ديوان « العارف » .. وزادت حيرتى حين طفقت أقرأ أبياتها ، محاولاً أن أستخلص سبب اختيار الأستاذ محمد عبدالله محمد « للشَّص » عنواناً لقصيدته التى يبدوها بلغة العيون وإطراء المحاسن ، فجعلت أتساءل أى عيون يقصد ، وإلى أى حلاوة يرمى ، وإلى أى مجد يرمز ، فهو على الدوام عميق الأغوار يلزمك التأمل الطويل حتى تستخلص رؤيته من الأعماق لتطفو فى النهاية إلى ما يريد محمد عبدالله محمد أن يديه لك . يقول :

عَيْنُكَ الْحُلُوءُ مَجْدٌ فَاحْمِلِي ذَلِكَ الْمَجْدَ بِقَلْبِ الشَّاكِرِ
تِيهِي مَا شِئْتَ هَنِيئًا إِنَّمَا جَنَّبِي الْعَيْنَ حِسَابَ التَّاجِرِ
لَا تَخَافِي السَّنَّ فَالْسَّنُّ رُقَى تَمَلَّأُ الْعَيْنَ بِسِخْرِ السَّاجِرِ
رُقَّةُ الْعَيْنِ عَجِيبٌ أَمْرُهَا حُلُوءُهَا الْأَوَّلُ عَذْبُ الْآخِرِ

ذَلِكَ الْمَجْدُ مِنَ الرَّبِّ أَلَا
تَشْكُرِينَ الرَّبَّ شُكْرَ الزَّهْرَةِ

(*) المال ١٢ / ٥ / ٢٠١٠ .

هَيَّا الْجَوَّ لَكِنِّي تَحْظَى بِهِ وَاَنْتَقَى الْبَذْرَةَ تَلَوُ الْبَذْرَةَ
لِيُبْوَحَ الْحُسْنُ فِي دَهْشَتِهِ بِالَّذِي تُخْفَى دُهُورُ الْقُدْرَةِ
حَتَّى هَمَسَ الْحُسْنُ فِي نَشْوَتِهِ مِنْ بَرِيقِ الطَّرْفِ حُلُوِ النَّظَرَةِ

مُعْظَمُ الْقَسْوَةِ فَهَمُّ يَا أُخَى يَتَغَاضَى عَنْ مَكَانِ الْأَلَمِ
وَالَّذِي يَأْكُلُ لَحْمًا مِثْلُنَا يُقْنِعُ الْعَقْلَ بِذَبْحِ النَّعَمِ
قَدْ قَسَا فِي الذَّنْبِ قَلْبُ الْآدَمِيِّ وَقَسَا عِنْدَ اشْتِدَادِ النَّدَمِ
شَوْءَ الْمُحْبُوبِ فِي الْحُبِّ وَقَدْ غَازَلَ الْغَيْبَ بِنَحْرِ وَدَمِ.

عِشْتَ بِالتَّكَرَّارِ مِنْهُ نَشَائِكَ وَعَلَى التَّكَرَّارِ تَبْنَى دَوْلَتِكَ
أَتَيْهَا الرَّاقِصُ يَقْفُو رَاقِصًا ذَلِكَ الصَّافِقُ يُنْهَى رَقِصَتَكَ
نَظَّمَ الْوَحْدَةَ إِذْ رَدَّدَهَا وَمَضَى الْمَاضِيَ لِتَقْرَأَ قِصَّتَكَ
وَأَشَاعَ الْخَوْفَ مِنْ قَلَّتِهَا لَنْ يُطِيلَ الْقِصَّ فَاغْنِمِ فُرْصَتَكَ.

عَقَلِي الْبَدَوِيُّ كَمْ جَالَ سُدًى فِي فَيَافِي الشُّوقِ لَا يَبْغَى الْقَرَى
ذَلِكَ الشَّارِدُ يَقْفِرُ شَارِدًا يَطْلُبُ الْعَنَمَةَ حُبًّا فِي السَّرَى
لَمْ يَزَلْ يَتْرُكُ صُبْحًا لُدْجِي صَاعِدَ النَّجْمِ بَطْءَ الْقَهْقَرَى
لَا تَرَاهُ فِي مَبَانِيهَا الْقَرَى الْكَرَى كَرِيَّةً وَالسَّقْفَ وَعَافَ الْحَجَرَا

لا تَقِفْ مِنِّي بَعِيدًا كَيْالِه تَمْنَحُ الإِزْشَادَ وَالنُّصَحَ الثَّمِينُ
كُلُّ نُصْحٍ يَا طَبِيبِي وَصَفَةٌ قَلَمًا يَنْجَعُ فِي دَاءٍ دَفِينِ
قِفْ مَعِيَ فِعْلًا عَلَى أَرْضِ الشَّقَا وَافْهَمِ الْإِنْسَانَ فَهَمَ الْبَائِسِينَ
وَلَتَكُنْ أَوْسَعَ مِنِّي خُلُقًا وَرِحَابًا فِي عِتَابِ الْآخِرِينَ

قَدْ تَحَسَّسْتُ طَرِيقِي صَوْبَهُ رُبَّمَا حَارَ طَرِيقِي وَعَرِجُ
وَهُوَ قَدْ لَفَّتْ شُرَيْطَى كَفَّهُ يَحْذَرُ الْأَعْمَى عَلَى الدَّوْرِ دَرَجُ
لَا مَتَّ الْعِمْيَانُ أَعْمَى مِثْلَهَا وَسَّعَ الْخَطْوُ قَلِيلًا فَخَرَجُ
قُلْ لِمَنْ غَابَ طَرِيقِي نَحْوُهُ مَا عَلَى الْأَعْمَى حَنَانِيكَ حَرَجُ

لَا تُفَسِّرْ لِي لِمَاذَا جِئْتَ بِي لَيْسَ يُجَدِّدُنِي فَإِنِّي هَا هُنَا
أَحْفَظُ الْوَهْمَ مِنَ الْوَهْمِ وَلَا أَقْبَلُ الْوَاقِعَ مَنْ غَيْرِ مُنَى
هَلْ يُوَدِّي لِي حِسَابٌ عِنْدَمَا يُتْتَهَى بِالْمَوْتِ ذَاكَ الْمُتَحَنَّى
مَا الَّذِي أَهْرِفُ - إِنِّي مُسْرِفٌ قَدْ تَحَيَّلْتُ حِوَارًا بَيْنَنَا

من تراب الطريق

(٤٤٦) الشَّص (١)
(٢)

يواصل الأستاذ المحامي الشاعر الأديب ، محمد عبدالله محمد ، في قصيدته
«الشَّص» من ديوانه العارف ، فيقول استئنافاً لما وقفنا عنده بالأمس :

الْعَمَى الْجَزْئِيُّ شَيْءٌ لَا زِمٌ لَوْجُودِ الْكَوْنِ ذِي النِّظْمِ الْعَجِيبِ
هَذِهِ النَّبْتَةُ مَدَّتْ حَيْطَهَا تَطْلُبُ الْمَاءَ فَتُخْطِي وَتُصِيبُ
يَنْجَحُ النَّسْرُ إِذَا انْقَضَ هُنَا وَهُنَاكَ النَّسْرُ يُكْدِي وَيَحْيِبُ
مَا بَدَأَ خَطًّا سَيَغْدُو قَدْرًا بَعِيدُ الْمَوْجِ يَلْهُو بِقَرِيبِ

نَامَ وَالشَّصُّ تَدَلَّى جَنْبُهُ صَادَ حُوتًا لَمْ يَصِدْهُ يَقْظُ
هَذِهِ الْأَسْبَابُ سَارَتْ دَرْبَهَا لَا تَعِي وَعَظَ الَّذِي قَدْ يَعِظُ
غَاضَتَا مِنْهَا تَغَابِيهَا إِذَا أَقْلَقْتُ قَوْمًا عَلَى مَا حَفِظُوا
لَا تَرَى الْعَدْلَ الَّذِي قَدْ رَعَمُوا لَا وَلَا الْحَقَّ الَّذِي قَدْ لَفَظُوا

لَا تُجَرَّبْ فِي الْمَجَانِينِ فَمَا يَكْرَهُ الْمَجْنُونُ إِلَّا عَاقِلَكَ
لَا تَنَازِعْهُ عَلَى أَمْرٍ وَلَا تَجْعَلِ الْمَجْنُونُ يَخْطُو دَاخِلَكَ

(*) المال ١٣/٥/٢٠١٠ .

فَلَكُمْ تَغْدُو بِغِيْضًا عِنْدَهُ حِيْنَهَا يَغْدُو رِضَاً شَاغِلَكَ
سَوْفَ لَا تَرْضَى بَتَاتًا وَخَزَهُ عِنْدَمَا يَرْقَى سَرِيْعًا كَاهِلَكَ.

مَا الَّذِي يَعْنِيكَ مِنْ هَذَا وَذَاكَ عَاشَ هَذَا نَفْسَهُ أَوْ ذَالِكَا
رَأْيَهُ فِيكَ وَلَا رَأَى هُنَاكَ بَتَّ يَا صَاحِ هُنَا أَوْ هَالِكَا
عَيْنُهُ تَرْقُبُ لَهْفَى نَجْمَهُ فَكَّرْتُ فِي حَالِهَا لَا حَالِكَا
أَنْتَ لَا تَمْلِكُ بِالْحُبِّ أَخَاكَ صَاحِ تَجْعَلُهُ يَوْمًا مَالِكَا

اِفْتَقَدْتَ الْحُبَّ وَالْحُبُّ هُنَا حَوْلَكَ الْمَاءُ وَلِلْمَاءِ عَطَشْتُ
لَمْ تَسِرْ يَوْمًا إِلَيْهِ خَطْوَةً أَنْتَ فِي الْفِكْرَةِ وَالْوَحْدَةِ عِشْتُ
كَلِمَا أَسْمِعْتَ ذِكْرِي ظَمًا حَرَكْتُ شَوْقًا دَفِينًا فَجَهَشْتُ
وَالَهُ النُّورِ مِثْرًا لَمْ يَرْقُ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ عَيْنِي زَرَادِشْتُ

لَسْتُ أُخْرَى مِنْ بِلَايِن مَضَوْا بَبَقَاءِ تَشْتَهِيهِ وَقِيَامِ
إِنَّمَا أَوْلَى بِذَاتِ عِشَّتِهَا لَمْ يُفَرِّقْهَا افْتِرَاقٌ وَالتَّامِ
لَمْ تَكُنْ يَوْمًا لَدَيْهَا عَدَمًا بَلْ دَوَامًا دَائِمًا إِثْرَ دَوَامِ
لَا تَرَى بَعْدَكَ شَيْئًا أَبَدًا لَا يَرَى الْمُصْبَاحُ إطبَاقَ الظَّلَامِ

مَنْ يَرَى لَا بُدَّ أَنْ يَحْيَا وَلَا يَشْهَدُ الْمَوْتَ رَمَادٌ وَرَمَالُ
مَوْجَةِ الْحَسِّ لَدَى آخِرِهَا آخِرُ الشُّوْلَةِ فِي نَفْسِ الْمَقَالِ

يَبْحَثُ الْحَيُّ عَلَى عَادَتِهِ مَوْلِدَ الْأَرْضِ وَأَغْصَارَ الْجِبَالِ
وَهُوَ لَا يَنْفَكُ يَشْكُو قَلْقًا أَنَّ هَذَا الْكَوْنُ يَمْضِي لِزَوَالِ

لَا تُحَدِّقُ فِي الْعَلَاقَاتِ فَقَدْ يَفْصِلُ التَّحْدِيقُ أَسْلَاكَ الْحَيَاةِ
فِي ابْنِهِ حَدَقَ زَيْدٌ بَاحِثًا فَقَدَّ الطِّفْلُ مَعَ الْبَحْثِ أَبَاهُ
وَكَذَا فِي الرَّبِّ قَدْ تَحَسَّرُهُ عِنْدَ مَا تَسْأَلُ هَلْ تَمَّ إِلَهٌ ؟
مَاتَ شَيْخِي لَمْ أَفْتَشْ قَلْبَهُ عَاشَ فِي قَلْبِي دُعَاةُ وَرِضَاةُ

من تراب الطريق

(٤٤٧)

على هامش (*)
محمد عبد الله محمد!

على هامش قصيدة: الشَّص ، للأستاذ المحامي الشاعر الأديب محمد عبد الله محمد ، عشت اليومين السابقين وأنا أتأمل في أبياتها التي نقلتها إليك .. ترى أى معشوقة هى حلوة العينين التى يخاطبها محمد عبد الله محمد فى مطلع القصيدة ؟ ويصف حلاوتها بأنها مجَّد عليها أن تلتفت إليه بقلب شاكر . يبدو أن الشاعر يخاطب نفسه داعياً إياها ألا يصرفها التيه عن التفطن إلى ما حباها الخالق به ، ولا أن يغلب عليها حساب التاجر فى تعامله مع الدنيا ، ولا أن تحشى تقدم السن وانصرام العمر !

هو إذن يخاطب نفسه ، ولكنه يخاطبها كاللائم العاتب .. يعاتبها أن تقعد عن التمثل بالزهرة التى تشكر ربها على نعمائه ، وعلى البذرة التى أنبتتها ، والجو الذى نشأت وعاشت ونمت وترعرعت فيه . فهذا هو حال النفس .. لم يكن لها فى إيجادها يد ، ولا اختيار لها فى المحيط الذى من حولها ، ومع ذلك تنصرف عن التفطن لنعمة الخالق الذى جاء بها إلى هذه الدنيا ووفر ما وفره لها ولكافة الخلائق فيها !

عاش الإنسان بالتركرار منذ نشأته ، وعلى هذا التكرار بنى دوله وحضاراته .. حال الفرد فى الدنيا كحال الراقص فى حلبة الرقص .. راقص يقفو خطوات وتصفيقات راقص ، ويجذو حذوه ، يتابع معه الإيقاع على

(*) المال ١٧ / ٥ / ٢٠١٠ .

«الوَحدة» .. فهل تظن الإنسان لتمثل معنى دوره في الحياة قبل نهاية
«القص» وإسدال الستار؟!

كم جال عقله سدّى في فياق وبحور الأشواق لا يبغى سوى شاطئ
اليقين، ولكن ما بال الشارد يقفو شاردًا مثله؟ ولماذا يقع في الظلام من ينشد
النور، ولماذا يعطى ظهره للضياء؟!

يعاتب الشاعر محمد عبد الله محمد كل من يتعامل معه بكبرياء، ويقف
منه بعيدا كأنه إله، مغترًا بما يطلقه من إرشادات ونصائح يعتقد أنها ثمينة،
مع أن كل ما يزجيه لا يعدو أن يكون «وَصْفَةً».. قلما تنجح في علاج الداء
الدفين المتجذر في الأعماق. ينادى محمد عبد الله محمد على مرشده بأن يقف
معه على أرض الشقاء التي يقف عليها، وأن يعاين ما يكابده البائسون، أملًا
أن يكون معه أكثر سخاءً وأوسع خلقًا ورحابًا.

ها هو الشاعر يتحسس طريقه صوب الحقيقة التي ينشدها، وربما عرج
وانحرف في طريقه، وربما بالغ في الحذر كشأن الأعمى الذي يتحسس بكفه
الدرج، ومع ذلك فإن العماء مستفحل فيمن حوله، وها هم العميان يلومون
أعمى مثلهم على اضطراب خطاه، ولا ينجو من عيبتهم وعيب سواهم عليه،
مع أنه ليس على الأعمى حرج!

إنه لا يسأل ربه تفسيرًا لماذا جرى به إلى هذه الحياة، فإن الحقيقة الكبرى
أنه ها هنا بالفعل. يحفظ الوهم ولا يقبل الواقع! أليس هذيانا وتخريفًا أن
يتوقع المخلوق عند انتهاء منحني حياته - كشف حساب من خالقه؟!

يبدو أن العماء الجزئي نصيب مقدور أمام نظام هذا الكون العجيب .
تأمل هذه التنبئة التي مدت جذورها لتطلب الماء . فتخطى وتصيب! وهذا

النَّشْر الذى ينقض على هدفه ويغنم غنيمة ، بينما غيره من النُشُور تكذب وتكابد ومع ذلك يخيب سعيها ! إن ما يبدو لنا الآن حظاً سيغدو فى المستقبل قدراً بعيد الموح يلهو بقريب !

ما بال الشَّخص النائم صاحبه ، يصطاد حوتاً لم يصده اليقظ ، أو كما قال الأمير الأندلسى عبد الرحمن الناصر الأموى :

كم مقيم فازت يداه بغنم لم تنله بالركض كف مغير
كلما تأمل الإنسان فيما حوله ، هاله ألا يرى العدل المزعوم ، فلا ينبغي للعاقل أن يجرب أو ينازع المجانين ، فسوف تبدو بغيصا عندهم إذا كان رضاهم شاغلك !

ما للإنسان يفتقد الحب ، والحب هنا ، وما باله عاطش والماء من حوله ؟! أو كما قال الشاعر القديم :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول
الإنسان مشغول بفكره ووحدته عن الخطو إلى الحقيقة الكبرى القريبة منه . إنه ليس أخرى من بلايين سبقوه ومضوا دون أن يتفطنوا إلى سر الوجود وغاية الحياة ، ولكن عليه أن يتمعن ويتأمل ليرى ، فغداً سوف تمضى حياته كما مضت حياة الغابرين ، وهو لن يرى بعد رحيله شيئاً ، فليس فى وسع المصباح أن يرى إطباق الظلام . من يريد أن يرى لابد أن يحيا ويبحث ويتأمل : إن الحى يبحث على عادته - مولد الأرض وأعمار الجبال ، وهو مع ذلك لا ينفك يشكو قلقه من أن الكون يمضى لزوال !!

كما من محقق فى العلاقات فصله التحديق عن أسلاك الحياة وعن فهم مغزاها وحكمتها وغايتها ، وكم من طفل فقد فى البحث والتحديق أباه !

كحال الذى يفقد طريقه إلى الله وهو يتساءل فى تيهه : هل من ثم إله ؟ وفى البيت الأخير ينهى محمد عبد الله إبحاره ببيت مفعم بالرمز :

مات شَيْخِي لم أَفْتَشْ قَلْبَهُ عَاشَ فى قَلْبِي دُعَاة وَرِضَاة
هذا الشاعر المفكر تراه مشغولاً فى كل ما نظمته من أشعار - بقضايا
الإنسان والكون والحياة .. ومن المؤسف أن مزية محمد عبد الله محمد ، وأعنى
بها عمق فكره وأغوار ما يغوص فيه ، هى التى فوتت على الكثيرين التحليق
معه لفهم ما يومئ أو يشير إليه . لقد عشت قرابة ثلاثين عاماً أتلقى رُطْبًا
جنيًا من هذا المفكر العالم الشاعر الأديب .

لم أصادف وقد قاربت حياتى ثلاثة أرباع قرن - عقلاً كعقل محمد عبد الله
محمد ، ولا فكرًا كفكره ، ولا صفاء كصفاء نفسه .. هذا الصفاء الذى حفظ
ملايح وجهه حتى عامه الثانى والتسعين من أن تحفر فى أساريه أخايد
العمر ، ففارق الحياة راضياً فاهماً بسيطاً بساطة المفكرين والعلماء الكبار
الذين عاشوا حياتهم فى عطاء فياض مستمر لا ينتظر جزاء ولا تنويها ولا
شكورا .

رحم الله أبى الروحى محمد عبد الله محمد .

من تراب الطريق

(٤٤٨) الإرادة الحقيقية والمجازية (١) عند الصوفية

التحقيق أن من تمحضت إرادته لعبودية الله بمراعاة حقوقه لأجل ما وجب عليه من ذلك ليتوصل به إلى نيل حظها - هو الذى يسمى مريدًا .. فلم يتسم بذلك إلا لأنه يتصف بالإرادة الحقيقية المتعلقة بأشرف المطالب ، وقد سُمى مريدًا لأجل ما سلب عنه من الإرادة المجازية المتعلقة بحظوظه . وبهذا يتبين لك صحة كلام أبي يزيد البسطامى حيث قيل له : ما تريد ؟ فقال : أريد أن لا أريد .

قال فى التنوير : أراد أبو يزيد أن لا يريد .. لأن الله تعالى اختار له وللعباد أجمع عدم الإرادة معه .. فهو فى إرادته أن لا يريد موافق لإرادة الله جل وعلا . فأنت مطالب أن تخرج عن تدبيرك لنفسك واختيارك لها .

والحديث القدسى : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها » فيه إشارة إلى أنه عند ذلك ليس للعبد إرادة ولا اختيار .. إلا ما اختاره له مولاه وأراده . قال ابن عطاء الله السكندرى : « أنت إلى حلمه إذا أطعته ، أحوج منك إلى حلمه إن عصيته » .

(٢)

قال الحارث المحاسبى : « إنما أراد الله من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعًا لقلوبهم ، فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف ، وتواضع الجاهل أو القاضى

(*) المال ١٩/٥/٢٠١٠ .

وذَلَّ هِيئَةً لله ، فإن من ذَلَّ هِيئَةً لربه أطوع لله من العابد أو العالم الذى تكبر وأنف .

قال أبو طالب المكى ومن أفضل ما أعطانا الله نعمة الإيمان .. فلو قَلَبَ قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب ، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نيائنا فى الأعمال .. فأى شىء كنا نصنع ، وعلى أى شىء كنا نعول ، وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو ؟

فالعبد مضطر إلى الله أبداً .. ولا يزايل العبد هذا الاضطراب .. لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .. ولو دخل الجنة فهو محتاج إلى الله فيها .

وهذا هو حكم الحقائق .. إذ لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة .. لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .. فالعلم صفة الكشف ، أى علم كان فى أى وقت كان .. والإرادة صفتها التخصيص ، أى إرادة كانت فى أى وقت كان .. ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطرابه .

ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم ، سلط الحق الأسباب المثيرة للاضطراب ليعرف (العبد) قهر ربوبيته وعظمة إلهيته .

(٣)

المطلوب من العبد شيئان : إقامة الأمر فى الظاهر والتعلق بالله فى الباطن وهو الاستغناء عن غيره .. فإذا رزق الله العبد هذين الأمرين فقد أسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة .

(٤)

قال أبو عمرو وإسماعيل بن نجيد : لا يصفو لأحد قدم فى العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء وأحواله كلها عنده دعاوى .

وقال أبو يزيد البسطامي : لو صفت لى تهليلة واحدة ما باليت بعدها
بشيء .

وإلى هذين تشير الحكاية التى تروى عن الواسطى .. وذلك أنه لما دخل
نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم ، فقالوا :
كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها ، فقال : أمركم بالمجوسية
المحضة . هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها . قال الأستاذ أبو القاسم
القشيري إنما أراد الواسطى بهذا صيانتهم عن محل الإعجاب لا تعريجاً على
أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب .

(٥)

الوارد عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية واللطائف الروحانية ،
ليظهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه والدخول إلى حضرته ..
لأن الحضرة منزهة عن كل قلب متكدر بالآثار متلوث بأقذار الأغيار .
قال ابن عطاء الله السكندرى : «أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد
الأغيار وليحررك من رق الآثار .. لأن الآثار والأغيار غاصبة ومسترقة لك ،
وذلك لوجود حبك لها وسكونك إليها واعتمادك عليها! » .
وقال أيضاً : «أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى قضاء
شهودك» .

(٦)

لابن عطاء الله السكندرى .
«الأكوان ثابتة بإثباته محوطة بأحدية ذاته» .

«الأكوان من ذاتها العدم المحض .. حصل لها وصف الثبوت بإثبات الله لها وجعلها أكوانا ، فالثبوت لها أمر عرضي ، والحق اللازم هو أحدية الله عز وجل ، والأحدية مبالغة في الوحدة لا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يكون أكمل ولا أشد منها .. فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان» .

من تراب (٤٤٩) نحن والوعي والفهم والحياة^(١) الطريق

في أحد فصول كتابي : «دولة الأيام» (كتاب الهلال - يونيو ٢٠٠٩) ،
تكلمت عن البشر والكون والإيمان ، وقادنى الحديث في خلق الإنسان
وصلته بربه ، إلى ما ينمو لدينا من الفهم والمعرفة مدى أعمارنا المقسومة لنا ..
وإلى التأمل فيما صار إليه هذا الفهم وتلك المعرفة . فما عندنا نحن الآدميين
من المعرفة مما يمكن أن نستند لأنفسنا هو حصاد الارتقاء من مرحلة الوعي
الساذجة إلى مرحلة أو مراحل الفهم .. وهذه لا آخر لها ولا نهاية .. لأن حياة
الآدمى منذ زمن تخالطها تطورات فهمه لحياته ومحيطه والكون ، وهى في
طريقها إلى الامتزاج والملازمة لهذا التطور الذى لا يمكن أن ينتهى .

وهو فهم مهما تعاظم وتعمق لا يُعقل أن يستوعب وعى ما يسميه
الآدميون بالمطلق والأزلى والأبدى وغير المحدود في أى اتجاه ؛ لأنه خلف
كل اتجاه وداخل أى اتجاه دون أن يتجدد .

ولا جدوى في هذا الصدد للإحالة على كلمات من مثل : خلق وصنع
وأنشأ وابتدع ، ولا إلى نتائجها من آلات وأدوات ومعدات ووسائل وطرق
ومنتجات .. من محاصيل وزراعات وأزهار وأشجار ، أو من أفكار وآراء
وأحكام ومذاهب وعقائد فاقدة الوعي بهذا الوجود ، وعديمة الفهم .. لأنها
لا وعى لها ولا إحساس بالذات ! ومصدقات ومعارف وعلوم وفنون
وآداب !.. فهذه كلها نواتج بشرية في ذاتها ، جمادات أو في حكم الجمادات .

(*) المال ٢٠/٥/٢٠١٠ .

فنحن مهما تناولنا ، مخلوقات أنعم عليها الخالق - جل شأنه - بالوعى والفهم دائمى النمو والتطور بلا نهاية ، ما دام النوع الإنسانى مصراً على احترام وعيه وفهمه والانتفاع بهما . نحن مخلوقات وسط قد يكون لنا أمثال فى هذه الوسطية فى الكون العظيم ، يمكننا بهذا أن نعى ونفهم على مقدار قابل للزيادة الهائلة وللنقص والتقص الهائلين ، يمكننا أن نعى ونفهم وجود الخالق عز وجل ووجود الكون العظيم الذى خلقه سبحانه وتعالى ونحن ضمنه .

ولكننا يستحيل علينا أن نعى أو نفهم الخالق جل شأنه .. حتى كما نعى ونفهم أنفسنا أو غيرنا من الآدميين أو غيرنا من الأحياء .. أو حتى كما نعى ونفهم الكون العظيم وما فيه . وهذه الاستحالة بديهية لدى المتأمل ، لكنها تبدو غريبة لدى الإنسان العادى .. برغم أنها لازمة من لوازم الخلق طبقاً للناضج من عقول الآدميين . إذ لا يعقل خلافها ويستحيل أن يكون الآدميون المخلوقون خالقين أبديين إلى جوار خالقهم تبارك وتعالى .

وإشارات القرآن المجيد إلى آدم تشير فى عمقها إلى هذا المقصود .. وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ [البقرة: ٣١] إشارة إلى آدم التام الذى زوده المولى عز وجل بالوعى والمعرفة والفهم ، والذى زود من روح خالقه - سبحانه - ما استحق به أن تسجد له الملائكة ، وما استحق به أن يعيش هو وزوجه فى رضا ورغد تامين .

لكن آدم منح مع تمام المعرفة والفهم ، منح حرية المشيئة والاختيار لما يستطيع ، فهيأت له نفسه أو خيلت إليه فى لحظة نسي فيها خالقه أن يطلب لنفسه أن يكون خالداً ذا ملك لا يبلى ، فسقط بذلك الطلب وزن كل ما كان

لديه من تمام الوعى والمعرفة والفهم ، فأخرج من حيث كان ، لتضييق عليه الأرض بما رحبت ، وليمضى حياته فى هداية نفسه وأهله ومن حوله فى محيطه ونسله حتى لا يقع منهم مثل ما وقع فيه حين أعطى ظهره للوعى والفهم فخر ما كان فيه من الإكرام والإنعام !

كان نجاح آدم فى أولاده محدودًا ، وقد نبه القرآن المجيد إلى أن الله تعالى ﴿صَطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] .. وذلك كأنبىاء هادين مهتدين أولهم آدم بعد تلك المحنة التى مرَّ بها .

ووجود الأنبياء كل فى زمنه ومحيطه كهادين واعين عارفين فاهمين ، قد استلزمه وجود الكثرة الكافرة من البشر ، الجاهلة الغافلة اللاهية المنصرفه فى بدائيتها وتأخرها فى عاداتها وأخلاقها ومفاهيمها وغاياتها وأغراضها .

ومع تطور المجتمعات فى القرنين الأخيرين ، والتفاتا واحتياجاها اقتصاديا وسياسيا إلى نشر التعليم فى جميع الطبقات ، ومع ما واكب ذلك من اتساع نطاق الإعلام والثقافة بين الجماهير ، كثر دعاة الهداية والتبشير ، وكثرت مراكزهم ووسائلهم وأساليبهم ، وقلت استجابة الجمهور إلى الدعاة الجدد ، ولم يعد ظهور بعض الزاعمين يجتذب الأنظار والاسماع والأنصار إلاّ بقدر محدود جدًا .. خاصة وقد اتسعت وتعددت ألوان الدعوات لاجتذاب الجماهير دينية ولا دينية ، وسياسية وغير سياسية ، ووطنية وثورية ، ومحافضة وراديكالية ، وصوفية ويوجية وكريشنامورية وثيوصوفية .. وظلت عامة الناس فى البلاد المتطورة وغير المتطورة ، متممة برغم ذلك إلى أنبيائها ودياناتها انتماء خاليًا فى الأغلب الأعم من الحماس والعمق !

هذا وأكثر أفكار الآدمى خواطر داخلية بلا واقع فعلى يحركها ويثيرها .. وهى فيما يبدو تستعجله إلى الحركة والتحرك .. وهو إذا اعتاد عليها دون أن يتحرك ، فقد أو كاد معظم ميله الغريزى إلى الحركة والفعل ، وأدمن ذلك النوع من التفكير العقيم ، وصار أسير الخيالات والخواطر الفارغة لا يتركها ولا تتركه ! ويبدو أن هذا فقدان للميل إلى الحركة والفعل .. هذا فقدان المتواتر السائد ، يرجع إليه معظم ما لدينا من مخالفة أفعالنا لأقوالنا ، وكثرة وسهولة وعودنا وعزومنا وعهودنا وقلة ما ننفذه ونلتزم به منها ، وتقلص التمسك بالإخلاص والأمانة والوفاء ، وتعذر الصبر الطويل على احترام كلمتنا والتزام حدود عقيدتنا فى الإصرار على الامثال الفعلى لمبادئنا المعلنة ، وهو المقصود الحقيقى من الاستقامة .

كما يبدو أن هذا فقدان سبب من الأسباب الرئيسية لما نصف به مما بلغناه من أنواع وصور القسوة وعدم المبالاة ، وقلة الشفقة والرحمة حتى لمن يستحقونها من أهلنا أو جيراننا ومعارفنا .. ثم يرجع أيضا لهذا فقدان - بعض أسباب ولع الآدمى بترديد العموميات أو التجريد والحكم والقواعد ، لأنها خالية بالنسبة له من الإلزام فى التطبيق الفعلى .. وهذا يغرى الآدمى بحفظ أمثال تلك المقولات العامة ، وقد يدفعه إلى تقصيصها وينتهى به إلى التعامل وسعة المعرفة والتبحر فى العلم .. وإلى اعتباره عند نفسه وفى بيئته متعلما أو عالما أو عارفا ، دون أن يتحقق لديه وفى أعماقه رسوخ الأمانة والإخلاص والتراحم . ومن هنا كانت تنفصل الأخلاق والتدين عن المعارف والعلوم ، بانفصال القصد الفعلى فى كل ما لدى البشر ، وذلك قبل أن تتداخل هذه فى تلك ، نتيجة الاحتراف والارتزاق !

من تراب الطريق

الإيمان والدافع الإيماني^(*) ودور العقل

(٤٥٠)

يجب ألا ننسى أن عواطفنا - حتى الآن - تعيش أكثر ما تعيش على ميلنا الذى يكاد يكون فطريا إلى الإيمان المريح ، وهو دائما مبنى على الاعتقادات ووجهات نظر دينية أو أخلاقية أو سياسية أو علمية أو اجتماعية أو أسرية . وهذا الإيمان بشيء ما لا تخلو منه نفس بشرية ، والذى يصعب على كل منا تركه ، يعطينا راحة التسليم والكف عن الانشغال والقلق لأمر من أمورنا موجود فعلا أو توها . وهذه الراحة تساوى عندنا وتريد على العناء الذى نكابه في استمرار البحث والتحقيق والتمحيص العقلى .. فهو من هذه الزاوية ينقذنا من حيرة العقل وشكوكه وتمرده على الغيب الذى يحتاجنا .. وهو أيضا سهل الانتشار واجتذاب المرافقين والأنصار والأتباع ، وتوفير المحيط أو البيئة التى تفسح لنا مجال الحركة الميسرة المواتية والمواتية ، ويعطينا فرصا طيبة للإنشاء والبناء إن أردنا ذلك بعزم .. كما قد يعطينا فرصا متسعة للهدم والتخريب والتدمير في تيارات الأحقاد والعداوات والفتن التى تجرى وتشتد في محيطنا !!

وللإيمان دوره في وجود الحضارة الحالية كما كان له دوره في كل حضارة سابقة وللاعتقاد في العقائد الملبوسة دور في الفتن والقلاقل والحروب في قرننا الحالى والقرن الماضى ، كما كان في كل القرون السابقة .. لأننا بالغين ما بلغنا من المعرفة والفهم والتطور والرقى ، لم نتخل عن الانصياع للعواطف والانزلاق في تياراتها إيجابا وسلبا .

ويدين تقدمنا وترقينا وتطورنا بالكثير للإيمان الصادق الصحيح الذى يدفعنا إلى المثابرة والإصرار على العمل والإلتقان ، والرضا ببذل الجهود وأحيانا بالمخاطرة بالحياة نفسها وببذلها .

فالإصرار والمثابرة على العمل الجاد فيها دائما ووراءهما ، دافع إيماني بشيء قد لا نعيه ، لكنه موجود وباق يؤدي مهمته فى صمت وبلا ضجيج . قد نفخر بنتائج أعمالنا وبما كلفتنا من عناء ومشقة ، لكن لا نتذكر القوة الداخلية الدافعة وراء رضانا بهذه المكارة . هذه القوة الدافقة هى إيماننا العميق بشيء معين اعتنقناه وأطعناه بلا أى تردد أو مناقشة .

وتصعيد الإيمان بهذا الشيء المعين ، إن جاز التعبير ، إلى الخالق - جل وعلا - خطوة ترقى .. ليس فقط فى إنجاز هذا أو ذاك من أعمالنا ، وإنما فى غاياتنا وأغراضنا ومقاصدنا من تلك الأعمال ، وفى ألا يشذ من أغراضنا ومقاصدنا هذه غرض أو مقصد إلى شر خاص أو عام نندم من أجله على ما أتينا به ونفذناه أو شرعنا فى تنفيذه فى سبيله !

وتعلقنا بالقيم العامة التى لا تخلو من ذكرها مناسبة ، وهى قيم بشرية أكثر بكثير من حيث العدد والأهمية من تعلق آبائنا وأجدادنا الذين لم يعرفوا الكثير منها .. وهذا التعلق ضرب من الإيمان ، يحفزنا ويقود كلا منا فى موقف ما إلى موقف معين أو تصرف من التصرفات ، وذلك دون أن نعرف بالدقة ما هى فعوى هذه القيمة ، مكتفين بأن نعرف مفهومها العام وإن كان غامضا مبهما غير محدد ، ودون أن نحتاج أو نشعر بالاحتياج إلى إزالة هذا الغموض والإبهام وعدم التحديد . لماذا ؟! .. لأننا فى صدد إيمان لا فى صدد واقع يفتقر إلى معرفة كاملة لشيء معين !

من منا يفكر في ماهية الوطنية والعدالة والعدالة الاجتماعية ، أو في تحديد معنى حقوق الإنسان أو الحرية الشخصية أو حق الجمهور في المعرفة بالشئون العامة ، أو حقه في التعليم ، أو الحق في الحصول على مستوى كاف ولائق لحياته كأدمى ، أو في مدلول الحق في المساواة وفي الديمقراطية ، أو مدلول الاشتراكية أو مشروعية الملكية الفردية ، أو كفالة حرية التنقل ، وحرية التعبير عن الرأي ، أو في حرية التجارة وحرية الهجرة ، أو في حرية الاعتقاد واختيار وممارسة شعائر وطقوس الملة أو المذهب أو الدين إلى غير ذلك مما يعتبره الناس من القيم الأساسية في حياة الأفراد والشعوب .

كل هذه إيمانيات نعيش بها وعليها .. لا يعلل إيماننا بها وانتماؤنا إليها واعتمادنا عليها وامثالنا لها ، لا يعلل ما يحيط بها من غموض وإبهام وعدم تحديد . هذه الغوامض أو المبهمات أو التجريدات التي تفسح المجال للخلط وما نسميه إساءة الفهم والتأويل وحدة الاختلاف والتعصب والخصومات والفتن والحروب وما وراءها من أغراض ومقاصد معظمها عند التأمل - إيمان اعتقادي .. دور العقل والتعقل فيه محدود محصور في كيفية التنفيذ إن سمح لهما به !

فالعلاقات البشرية خاصة وعامة ، القائمة على القيم البشرية ، ذات أساس إيماني مستحكم معرض في كل وقت ، لذلك الخلط وإساءة الفهم والتأويل والاختلاف والتعصب ، ومصير تلك الصلات دائما في كف الاحتمالات وتحت تصرف المقادير التي يتجاهلها الناس عادة ، ويفاجأون منها بما لا يتوقعون !

هذه ظاهرة مشتركة متفقة مع أصول حياة الأحياء جميعا ، هذه الحياة التي يدخلها البشر وغير البشر تسلا ويخرجون منها قسرا بلا مشيئة ولا مدخل لعقولهم وتعقلهم في ذلك الدخول أو الخروج ، وهما - الدخول والخروج - طرف كل حياة على هذه الأرض !

ويبدو أن ظهور عقل الآدمي - أى آدمي - يحتاج إلى خارج وإلى تعامل مع هذا الخارج ، وبقدر اتساع هذا التعامل يتسع بنموه نمو المخ ونمو العقل .. هذا النمو يحصل في وصاية الغرائز والعواطف والذاكرة ، وربما في وصاية نمو ذات الآدمي بصفة خاصة !

هذا هو الذى يفسر خضوع عقولنا لذواتنا ، ومطالبها وغرائزها وعواطفها ومتوارثاتها ، ويتوقف تقدم العقل وتطوره على تحرك هذه الوصايات الفطرية - هى الأخرى - فى طريق التطوير والترقى برغم ما تحمله من ماضيها الطويل وضعف قدرتها على التفتن والتبصر وحاجتها الدائمة إلى ما يعينها على هذا الضعف .. خاصة إذا لوحظ أن استعداداتنا العقلية والشعورية وذاكرتنا ومخيلتنا لا تعمل معادئا ، بل تتسابق إلى العمل لوقت يقصر أو يطول تنتظر بعده ناتج عمل كل منها ، هذا الناتج الذى قد يكون حصاد هذا أو ذاك من هذه الاستعدادات ، أو نتاج عون كل منها للآخر فى إنجازه أو فى وجوده أو فى الدفاع عن مواقفه . والتماس الأعذار له . قد تعزو إمكانيات القوة إخفاق عملها إلى قلة أو نفاد الصبر مثلا ، أو تعزو المخيلة تعثرها إلى تواضع الذاكرة .. وهكذا !

من تراب الطريق

(٤٥١) نفحات الخيال (٥)

في مستهل كتاب : الإنسان العاقل وزاده الخيال ، قلت إن الإنسان كائن عاقل ، بوصلته عقله ، وزاده الخيال .. فلم يتميز الآدمي بالعقل وحده عن سائر الكائنات ، وإنما تميز بالخيال ، زاد ومدد العقل الذي به يخلق في المكان والزمان .. ينقله في المكان بغير سفر . ويستحضر به الماضي ويتصور الغيب ويستشرف المستقبل دون أن يفارق اللحظة .. في خيال الآدمي - مع عقله - سر قدرته على الفكر والإبداع .. إن خواطرنا وأفكارنا تتلاحق في وعينا بلا انقطاع ، يتزاور في صنعها العقل والخيال . فالخيال قطعة من وعي الآدمي لا تفارقه إلى أن يرحل .

حماقة كبرى أن يستهين أى آدمي عاقل بوجود الخيال ودوره الأساسى في حياة كل منا ، فأوقات الآدميين ليست إلا ميادين اصطلاحية لحياتهم بالنسبة لحياتهم ، يقيسون بها حركات الزمان في المكان كما تصوروها .

إن فضائل الإنسان العظيمة ، كلها نبت لخيال الآدمي .. لولاه ما عرفها البشر .. ولولا هذا الخيال الذى جذب أفذاذاً فركبوا الصعب وكرسوا العمر وثابروا وقاموا وصبروا ، ما عرف تاريخ البشرية قيمة ومكانة وجدوى وكرامة. الإخلاص والصدق والاستقامة والشجاعة والمثابرة والبطولة والوفاء والتضحية والإيمان . فالآدمى مركب بالغ الدقة والإحكام والإتقان .. من حصاد هذه «الزواجة» والعلاقة الحميمة بين «البوصلة» و«الزاد» كتبت

(*) المال ٢٧/٥/٢٠١٠ .

هذه الصفحات ، شذوذًا معلقًا فيها بالمعنى الكلى ، واجب الوجود ،
وبالحياة والإنسان ..

وخيالنا يشغل في وعينا منطقة حرة من القيود التي تنقيد بها منطقة الواقع ..
فمنطقة الخيال لا تنقيد بالزمان والمكان على أى وجه لا أصالة وعمومًا ولا
فروعًا وتفصيلات .. ولا تبالى بالفوارق بين الممكن والمستحيل والحقى
والميت والوجود والعدم والصدق والكذب وما نسميه بالحق أو الباطل .
ومن ثم كان خيالنا سوقًا مفتوحة المنافذ والأبواب لعواطفنا ، لا تفارقها
الرغبات والأهواء والمطامع ، كما لا تفارقها الهموم والمخاوف والمخاطر ..
وهذه وتلك على درجات تتفاوت باختلاف طبائع الأفراد وعاداتهم وبيئاتهم .
ولم ينقطع قط بين البشر وجود من يحاول تحويل ما فى خياله إلى واقع مهما
كلفه ذلك من جهود ومعاناة .. والخائبون فى هذا السعى الذى لا يكف عنه
البشر لا عداد لهم .. وفيهم من يموت فى المحاولة أو يصير عاجزًا بسببها
إلى أن يموت ، ولكن ما بين يدي البشر من الاستكشافات والاختراعات
وتطويرها إلى الحد الذى وصلت إليه حتى الآن - هو فى الغالب نتيجة إصرار
وبجهد أفراد من هذه الفئة التى تصر وتدأب على تحويل الخيال والتمنى
إلى واقع .. معظمهم غير معروف ، وبعضهم قد يذكر التاريخ أو المؤلفات
أسماءهم ، وتسمى بأسمائهم ، النواميس والمقاييس والمعادلات والنظريات
وأحيانًا الأنهار والجزر والخلجان حتى القارات ..

والاستكشاف هو معرفة البشر عمومًا لشيء أو قوة أو طاقة أو علاقة
أو ارتباط أو ناموس عام لم يعرفه البشر أو يتقرر لديهم من قبل ، وإن كان
موجودًا أو يعتقد البشر وجوده منذ وجود العالم الخارجى .. فالاستكشاف

هو معرفة واتضاح قدرة الآدميين على الاستفادة من هذا الكشف في توسيع آفاق حياتهم وقدراتها . أما الاختراع فهو دائما أمر بشري صرف لا وجود له إلا بسبب وجود الآدمي وعقل الآدمي ولخدمة غرض أو أكثر من أغراض الآدميين .. نفعيا كان أو مثاليا .. به يتم للآدمي ابتداع أشياء من تخيله لم تكن موجودة .. لأنها أشياء كانت موجودة في الطبيعة على صورة أو صور مغايرة .. فجميع الأدوات والوسائل والأجهزة التي يستعملها الآدمي بدائيا كان أو متمدينا على اختلاف أشكالها وحظها من البساطة والتعقيد في حياته بدايةً ونهايةً ونومًا ويقظةً وجدًا ولعبًا وسلماً وحرباً منفردًا ومجتمعاً .. هذه الأدوات والوسائل والأجهزة مخترعات بشرية لا يمكن أن تخدم للنفع أو الضرر إلا آدميين .. ولا يبقى لها بعدهم إذا انقضوا أى معنى أو نفع .

ونحن نتوارث ما تعودناه من تلك المخترعات ، ونضيف إليها باستمرار ما يستجد من جديد ، بحيث صارت - بالنسبة لنا كبشر - تشكل في الواقع نوع وأسلوب وموضوع حياتنا الاجتماعية والفردية في نظرنا ..

ويستحيل على الآدمي أن يعيش إذا حرم من هذه اللوازم التي باتت أساسية عنده .. تشكل فيما تشكل مسكنه وملبسه وطعامه الملازم للحياة كما اعتادها وألفها في حدها الأدنى في اعتقاده !

هذا العالم من الاستكشافات والاختراعات البشرية يملأ أيام وأعمار كل آدمي ، ويغص به وعيه ويملا عقله وواقع عقله وخياله ، ويغذى ويستأسر عواطفه الطيبة والرديئة ، ويكون على الجملة حقيقة عالم الإنسان أو الغالبية الغالبة من عالمه !

فلا غرابة في أن يبقى الإنسان العادى إلى اليوم وإلى مستقبل - يقصر أو يطول - محصوراً في عالم الإنسان لا يفارقه ، ولا يكاد ينظر إلى الكون والعالم الخارجى إلا نظرة عابرة سطحية قد تكون هامشية لا تعنيه كثيراً ! .. وربما كان هذا من أسباب ضيق مساحة ميدانه الأخلاقى وصعوبة قبوله قبولاً فعلياً كاملاً أو شبه كامل للقانون الأخلاقى الذى تفرضه الديانات التى اعتنقها ويعتقها الآن .. مراعيًا فقط مراسمها وبعض طقوسها ومواسمها وأعيادها والتى لا ينظر إليها إلا من خلال عالمه المحصور حتى في تصورهِ للخالق عز وجل وللآخرة أو للحساب أو الثواب أو العقاب الأخرى .. إذ هو يدمج الكون والعالم الخارجى الهائل في عالم الإنسان الصغير المحدود بحدود وعيه وتصوراته واعتقاداته وعواطفه .. مفترضاً أن الكون كله جزء من عالمه وليس إلا جزءاً من عالمه يجرى عليه ما تخيله هو من حق أو صدق أو خلاف ذلك مما صح لديه في عالم الإنسان وحسب شرعة آدميين وأعرافهم ومألوف عاداتهم في حياتهم ووفق زمانهم وأحوالهم وظروفهم !!

من

تراب (٤٥٢) لماذا الحصانة للمحامين؟^(*)

الطريق

واجب ولا شك على نقابة المحامين أن ترعى تقاليد المحاماة ، وأن تحت على المحافظة عليها ، وأن تحاسب على الخروج عنها ، لأن ذلك هو الذى يحفظ للمحاماة احترامها الواجب فى عين نفسها ، وفى عيون الناس والسلطات . يقابل هذا الواجب واجب على المجتمع وكافة آلياته وأجهزته وسلطاته فى احترام المحاماة والمحامين الذين زادت حوادث التجاوز معهم والتعرض لهم هذه الأيام . توفير الحصانة للمحامين ليس محابة ولا مجاملة ، وإنما هو تحصين للعدالة ذاتها ولحقوق الناس التى ينهض المحامون للدفاع عنها حين تتعرض للعدوان أو الإهدار ..

من سنوات كتبت للأهرام عن الحصانة الواجبة للمحامى لقاء ما يتعرض له من مخاطر ، وضمته فيما بعد كتاب : «رسالة المحاماة» ، أن الحقيقة قد لا تصل إلى القاضى سهلة ميسورة ، بل قد لا تصل إليه على الإطلاق ، وقد يقيض لها من طلاب الزيف والبهتان من يجبرونها حجبا كثيفا ، وأن يطمسوا عليها ويطمسوا أدلتها ، وقد يصطنعون أدلة كاذبة للإيحاء بغير الحقيقة ، بينما القاضى على منصبه العالية - مع تقيده بحدود الخصومة - غير متاح له أن يطلع على ما جرى ويجرى وراء أستار الخفاء !

حُجِبَ الخفاء لطمس الحقيقة وإدخال الزيف عليها - تصاحب الخصومة ربما من منبتها - فيحتال رجل الضبط لإهدار الشرعية الإجرائية ، والافتئات

(*) المال ٢٠١٠/٥/٣١ .

بغير سند مشروع على حريات ومستودعات أسرار الناس ، وكثيرا ما يلزم ذلك قبض وتفتيش باطلان ، أو انتزاع اعتراف بالقسر والضغط والتعذيب والإرغام ، وهى وسائل من المحال معها أن تطمئن عدالة عادل إلى صدق الاعتراف ومطابقته للواقع ، سيما وهو كرهه إلى النفس ، لا تقبل عليه - إن أقبلت ! إلا مضطرة ، وتغدو صعوبة إثبات الإكراه للحمل على الاعتراف ، فى أنه قد يقف عند حد الإكراه المعنوى ولا يتعداه إلى إكراه مادى يمكن أن يترك علامات ، وقد تعددت فنون الإكراه المادى وابتدعت فيه أساليب شيطانية لا تترك أثرا يدل عليها ، فتغدو مهمة القاضى فى جميع هذه الأحوال مهمة بالغة العسر بل والاستحالة ، لأن التعذيب فضلا عن فنونه المستحدثة - يجرى على «أرض» أو «ملعب» فاعليه ، محدود بحدود يتحكمون فيها مكانا وزمانا وشهوذاً ، حتى ليكاد القاضى يحسه ويلمسه ولكنه لا يمسك دليلاً عليه !! .. هنالك تبدو وتتجلى إبداعات المحاماة التى تستطيع أن تهدى إلى الحقيقة بجمع الأدلة من مظانها ، واستخراج الدلالات والقرائن ، واستنباط المجهول من واقع معلوم يدل عليه .. على أن هذه المهمة التى يجاهد المحامى مجاهدة صعبة فيها ، محفوفة بأخطار الوقوع فيها قد يمسكه عليه زجل الضبط الذى من مصلحته أن يتصيد زلة لسان أو جموح عبارة أو سخونة وصف - ليدمغه بالسب والقذف أو البلاغ الكاذب !! ومن ثم يعرض المحامى الباذل فى إخلاص لمغبة المساءلة الجنائية عما عساه يمسكه عليه فى سعيه الدؤوب لكشف الحقيقة للقاضى !!

وليس حال شهود الدعوى بأيسر أو أهون مكابدة فى المعالجة من إجراءات الضبط ، فليس كل الشهود على شاكلة واحدة ، أو من معدن

واحد .. منهم الصادق والكاذب ، ومنهم المستقيم والملتوى ، ومنهم المتجرد والمغرض ، ومنهم المحايد والمنحاز ، ومنهم الأمين والخائن ، ومنهم البريء والخبيث ، وهم على أشكال شتى ، وأغراض شتى ، ومعادن شتى .. بل إن أكثر الناس للحق والإنصاف كارهون ، وبذلك وصفهم القرآن المجيد فقال : ﴿وَكَثُرَ لِمَنِ الْحَقُّ كَرِهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون] .. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف] .. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧] ، ومنهم من يجادل فى الباطل ولا يستحى من الحق كالذين وصفهم القرآن الحكيم فقال : ﴿يُحَدِّثُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال] .. ﴿يُحَدِّثُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٩] .. ومنهم من يجترئون على الكذب والزور ، ﴿وَلَا تَنْهَوْنَهُمْ عَنْ قَوْلِهِمْ كَذَبُوا مِنَّا قَوْلُهُمْ قَوْلُ الْكَاذِبِ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: ٢] .. فماذا يفعل القاضى إزاء هذه النوعيات بينما أوصاه القرآن ألا يقبل إلا شهادة ذوى العدل والصدق والاستقامة والأمانة ، فقال عز من قائل : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] .. على أن حرص القاضى على الاستشهاد بذوى العدل تقابله ظلال كثيفة على المحامى أن يجليها ، وجلاؤها يمرض ويوقع من يكشف الدفاع ستر كذبه أو خداعه أو ميله أو هواه أو بهتانه أو تزيفه أو تزويره أو انحيازه أو حثه بيمينه ، وإزاحة الستار عن هذا وذاك مخوفة هى الأخرى بالمخاطر ، يغدو أمامها المحامى كالقافز فوق الأشواك ، سواء فيما يجب أن يستقصيه ويحصله ويفسره ويكيّفه ، أم فيما يلقيه أمام النيابة أو القضاء من قول وحجة وبرهان لإثبات ما يمسكه على رجل الضبط أو الشاهد ويعرّيه به .. وهذا بدوره باب ملىء بالمخاطر والألغام ، فلن يرضى الشاهد أن ينعته

المحامى بما كشفه من ستره ، ولن يوافقه أن يفضح أمره ويعرى كذبه وزوره .
والتواءه ، وما أيسر أن ينزل المحامى - بأنه وقع فى وهدة السب أو القذف أو
البلاغ الكاذب ، فيغدو سيف الخطر مشهراً عليه فى جميع أحواله : محققاً أو
مستقصياً أو باحثاً أو مترافعاً !!

بل إن خطاب المحامى للنيابة أو للمحكمة ، لا يخلو من مخاطر زلل
اللفظ أو تجاوز العبارة التى ربما عرضته للمسئولية - لأنه وهو يسعى
للإقناع بما اقتنع به ووقر فى خلدته ، لا يتحدث حديث المحاضر الهادئ ،
وإنما يتكلم بحماس وتأثر وانفعال المدافع المندمج فى قضيته المتفاعل معها
الشاعر بأوجاع موكله وبالمخاطر التى يمكن أن تحرق به ، والحاتق أيضاً على
تراكمات الزيف والزور والحجب والطمس والالتواء التى يسلكها أعداء
الحق الرامون لتزييف الحقيقة والافتئات على الأبرياء أو الكيل لهم بمكايل
بعيدة عن سنن العدل والإنصاف - هذه المهمة الدقيقة لا يؤديها المحامى
ساكن النفس هادئ الخاطر أو متبذل الفؤاد ، وإنما هى شحنة من المشاعر
تموج فى صفحة وجدانه وتصاحبه فيما يقول ويومئ ويفعل .. وليس يدرك
هذه المكابدة إلا من يعانيها ، وهى مكابدة تفتح على المحامى أبواباً هائلة
من المحاذير والأخطار ، كم أودى بها ومنها محامون ، وكم انتهت الحيات المهنية
لمحاميين ، وكم دخل بسببها محامون فى أقضية انتقلوا فيها من موقع المحاماة
إلى موقف الاتهام ، فبذلوا من مصالحهم ومهنتهم وحاضرهم ومستقبلهم
ما ترويه مجلدات حكمت سير المحامين العظام - لعل من أكثرها دلالة سيرة
المحامى الفذ مارشال هول ، وأسلاف عظام تحمل سيرهم مدونات سير
المحاميين المصريين . خاض الأسلاف العظام معارك ضارية استرخصوا فيها

مصالحهم وحيواتهم قبل أن تلتفت المدونات التشريعية لإقامة
سياج من الضمانات لحماية المحامى وحق الدفاع - هذا السياج هو فى حقيقته
حماية للعدالة قبل أن يكون حماية لشخص المحامى ، لأن المحامى المرتجف
لن يقدر على حمل هموم البشر ناهيك بالمناضلة الصادقة من أجلها - وهذه
هى رسالة المحاماة !

من تراب الطريق

الذكاء الإنساني: (*) الاستعداد والحصاد

(٤٥٣)

لا يختلف أحد على أن العقل بملكاته وقدراته - هو أميز ما تميز به الإنسان عن باقي المخلوقات ، وأن الإنسان على قدر من الذكاء لا يدانيه فيه أحد على وجه الأرض .

والذكاء هو الاستعداد الداخلى الذى يواجه به الإنسان ما يعرض له فى الحياة وظروفها وأحداثها .. وهذه المواجهة تجرى بما يناسبها من استعداد وذكاء وملكات ، وتتوأكب طردياً وعكسياً مع مقدار الذكاء الذى يتفاوت من شخص لآخر ، ولا يوجد ولم يوجد لدى جميع الناس بمقدار واحد أو بقوة واحدة ، وتتجلى هذه الفوارق حين نقارن ذكاء البدائى بأوساط الناس ، أو حين نقارن ذكاء هؤلاء بذكاء أمثال نيوتن أو أرشميدس أو أينشتين !

واختيارات الشخص - أى شخص - تتبع ذكائه ، وهذه الاختيارات حتى لدى الأذكىاء دائماً احتمالية .. بمعنى أنها مقارنة وترجيح وتفضيل احتمال على غيره من الاحتمالات . ومن الملحوظ أن الذكاء يختلط بالمهارات ، والإتقان هو ثمرة وعلى قدر هذا الاختلاط .. فإذا كان البشر بعامة أذكىاء وإشباع حاجاتهم وتحقيق أغراضهم والوصول إلى غاياتهم أيًا كانت ، فإنهم لا يتقنون فى كل الأحوال أداء ما يفعلونه أو يؤثرونه أو يفضلونه !

ربما لأن الإتقان يحتاج إلى الجهد والمثابرة والمعاونة ، ومن ثم فإن الرغبة فى تحقيقه تقتطع بشكل أو بآخر من راحة أو حرية الساعى إلى الإتقان .

(*) المال ٢٠١٠ / ٦ / ٢ .

فالإتقان يحتاج بالضرورة إلى جهد واهتمام ، وإلى المزيد من الدقة في الأداء ،
وإلى تركيز الخيال وتقييد الحركة بقيود ضاغطة مما لا يرحب به أو يقوى عليه
غالبية الناس !

وأنت تستطيع أن تراقب هذا الإتقان - بهذا المعنى - في بعض النباتات من
الأشجار إلى الطحالب والأعشاب ، وفي الفيروسات والبكتريا والفطريات ،
وفي الحشرات والطيور ، وفي الثدييات والحيوانات العليا .

وربما كان وجود الاستعداد للإتقان قد سبق وجود الاستعداد للذكاء
في قاموس الحياة ، وهو قاموس بالغ السعة يبدو أنه يجمع عناصره فيتراكم
جديدها على قديمها ، وربما كان هذا التراكم والتراكم ضمن خطوات
الكون والحياة في النمو والترقى .. وقد نرى آية ذلك في «الأجهزة» التي
تؤدي وظائفها آليا بلا إرادة أو اختيار لدى كافة المخلوقات من إنسان وطيور
وحيوان .

ومن قديم الزمن ، عرف الإنسان الآلة التي تخضع في تشغيلها أو أدائها
لإرادته وقوته ، ثم عرف الآلة التي لا تخضع للقوة أو الإرادة إلا من بعيد ..
أو من بعيد جدا . لأن هذه الآلة من اختراع إنسان غيره ، ومن صناعة وإنتاج
إنسان آخر .. ومن ثم فلا تتدخل إرادة من يستعملها في مستوى دقتها أو
أدائها ، وإنما يكون ذلك موافقا لما كان عليه إتقان مبتكرها أو صانعها
ومنتجها . بل لم يعد إتقان أداء الآلة في يد صاحب الآلة أو الماكينة أو طوع
إرادته واختياره وتحت سيطرة ذكائه .. فلا شيء من ذلك يتدخل فيه راكب
أو قائد أو مستعمل السيارة أو القطار أو الطائرة .. لأن الإتقان قد سبق من
قبل - إن كان - إلى السيارة أو الطائرة أو القطار عند الصناعة والإنتاج ..

ولذلك فإن مهارة القائد أو المدير تقتصر على إتقان أو عدم إتقان التشغيل .. دون مواصفات الآلة أو الماكينة التى لازمها درجة ماهى عليه من إتقان منذ تصنيعها وإنتاجها . وكل ما على مدير الآلة هو مراعاة لوازمها وأوضاعها المرسومة لها مقدماً ، ومن ثم بات مالك الآلة ومن يستخدمها ومن يشرف عليها ومن ينتفع بها أو بإنتاجها - بات يدفع أو يستأدى أو ينتفع بدرجة إتقانها التى لا دخل له فيها .

قلت فيما سلف إننا إذا أمعنا النظر فى عمار ومدنية البشر وكما يبدو فى الأحياء الفاخرة من المدن الكبرى فى العالم - أو كما يبدو فى موانئها الزاهرة الباهرة أو فى مطاراتها أو محطاتها أو فى معالمها الباذخة من قصور ودور للحكم ومتاحف ومعاهد ومكاتب أو فى مرافقها من فاخر الفنادق والمطاعم والملاهى أو فى دفاعاتها التى تتحرك مع ضخامتها الهائلة كالساعات الدقيقة .. إذا أمعنا النظر فى هذا كله وأشباهه - وجدنا أن ذلك ومثله - ليس ذكاء من أجل الذكاء ولا هو ترحيب بإتقان يدرك ويقدر قيمته ويقابلها بما يليق بها أو لها .. وإنما هو كله أو جله وسيلة وشكل وقشرة من أجل اجتذاب النفع والربح والرواج لدى غالبية الآدميين الذين تجذبهم هذه الصور المجيدة المتقنة .. وهى تتقبلهم طالما كان معهم من المال ما يكفى للربح من قبلهم ، بغض النظر عن حظهم من الذكاء أو الذوق أو حتى الفهم أو الترقى والتطور !

هكذا يصنع ذكاء البشر أوعية وأكسية لاستيعاب أحلامهم وأشواقهم ومحاسنهم وغرورهم كجماعات وأفراد ليزدادوا - لا ذكاء على ذكاء - وإنما ثراء وشهرة .. بها يتحقق النفوذ فى أى جماعة .. فما فى تكوين مدينتنا الحالية هو قشرة سطحية ضخمة من الذكاء تستخدم إتقان المتقنين فى جذب

ملايين الناس من كل حذب وصوب ، من الأذكياء وغير الأذكياء ، ومن الأغبياء وأشباه الأغبياء !

وهذا أخطاره هائلة لا تكاد تحصى على الحمقى وعلى الأذكياء معا .
وذلك الميل البشرى الغريزي إلى الكسوة بلباس أو ظاهر أو قشرة أكثر طلاوة وبريقا ، يبدو متقدما في عيوننا أو متحضرا طبقا لتعبيرنا الحالى .. هذا الميل الذى يحشد ما يستطيعه ليسترعى الأنظار والإعجاب ، ويلفت الأعين ويصرفها صرفاً ضريراً عن التركيز على البشاعات الموجودة والمستشرية نتيجة للغفلة والتخلف السائدين بين الناس .. هذا الواقع المرثىء معروف يتردد ذكره وأثره من آلاف السنين فيما نسميه بالحضارات القديمة أو السالفة أو نسميه باللياقة والقيمة بالنسبة للأفراد !



من تراب الطريق

هذا هورد فعل العالم^(*)
فماذا عن رد فعلنا؟!

(٤٥٤)

حملت أنباء الخميس والجمعة ٣ ، ٤ يونية ، تداعيات وردود أفعال عالمية حارة ساخنة للمذبحة الإسرائيلية الغشومة التي حصدت الأرواح في المياه الدولية في عرض البحر المتوسط ! . فإلى جانب الإدانات التي لم يتخلف عنها أحد ، فيما عدا ميوعة الموقف الأمريكي - طفقت إلى السطح جريمة الحصار ذاته على قطاع غزة ، وإبادة من فيه جوعاً وعطشاً ، فضلاً عن الغارات أو الإغارات ، والسجن والعصف والتنكيل .. وتصاعدت الأصوات التي تطالب بضرورة رفع الحصار . وفي هذا الإطار - العالمي - أعلن بان كي مون الأمين العام للأمم المتحدة عن وجوب رفع الحصار الذي تفرضه إسرائيل على قطاع غزة فوراً ، وأنه فضلاً عن عدم مشروعيته - فإنه غير مقبول أخلاقياً ، بينما دعا وليم هيج وزير الخارجية البريطانية إلى مواجهة دولية توجب اتخاذ قرار دولي بشأن هذه المذبحة ، وطالب برفع قيود الحصار المفروضة على تقديم المعونات الإنسانية لغزة ، ودعا الحكومة الإسرائيلية إلى وجوب فتح نقاط العبور للسماح غير المشروط بالمعونات لغزة ، بينما تصاعدت موجات الاحتجاج الشعبية والرسمية أيضاً في كافة دول العالم ، حتى تلك المعروفة بعلاقات خاصة دافئة مع الدولة الصهيونية .

ولست أجد جدوى من مناقشة ميوعة الموقف الأمريكي ، وسعيه للإجهاض أو بعثرة الجهود الدولية وصرفها عن الموقف الحازم الواجب

(*) المال ٦/٧/٢٠١٠ .

اتخاذها ، وتوسلها - أمريكا ! - إلى منطق «إعطاء اللص مفتاح الكرار» !
باقتراحها على إسرائيل أن تشكل لجنة تحقيق مستقلة - عن ماذا لست أدري !
- مطعنة بمراقبين أمريكيين !! للتحقيق في الحادث ، مع أنه ليس بحادث بل
مجزرة مع سبق الإصرار والترصد تستهدف بالرعب تعقيم أى محاولة إنسانية
للحيلولة بينها وبين إبادة الشعب الفلسطيني المحاصر فى قطاع غزة !

ينحطى جدًا من يحضر المجزرة فى عشرات الأرواح التى حصدت فى عرض
البحر ، فالهدف البعيد هو فرض ميزان رعب لتمضى خطة إبادة الفلسطينيين
إلى غايتها . لم تكن الأرواح التى حُصِدت للأبرياء على متن السفن هى كل
المرام الإسرائيلي ، وإنما هى رسالة للعالم أن «إبادة» الفلسطينيين ينبغى أن
تمضى - ليس فقط تحت نظر العالم ، وإنما مقرونة بسكوته وصمته ومنعه من
أى اعتراض أو حتى إطلاق مقولة : «لا» !!!

دعنا من إسرائيل التى رفضت يباء وشمم الاقتراح الأمريكى المائع ،
مثلما رفضت تشكيل لجنة تحقيق دولية ، وأكدت - يباء أيضًا وشمم !! - أنها
لن تتعاون مع أعضاء لجنة مجلس حقوق الإنسان !!!

وإنما السؤال الواجب طرحه والإجابة عليه ، هو ماذا فعلنا نحن العرب
إزاء هذه المصيبة فى حبات عقد متتال متلاحق من المصائب التى تنزلها
إسرائيل بنا وبأرواحنا وبكرامتنا وشرفنا ؟! ما معنى الاعتراض على ما سُمى
القوة «المفرطة» ؟! هل نحن نوافق على استعمال هذه القوة إن لم تكن مفرطة
؟؟! هل أعيتنا القواميس الدبلوماسية أن نجد تعبير احتجاج ورفض يتفق
مع دموية وجسامة المذبحة وفداحة المصيبة ؟!

هل لم يجد رئيس تحرير إحدى الصحف القومية ، المتحدث - أو هكذا

يوحى - بلسان السياسات ، بُدأ من أن يعاير بهانثيت عريض في الصفحة الأولى - يعاير الإخوان المسلمين - والآن !! - بأنهم استفادوا ويستفيدون مما أسماه «التطبيع» «المصرى» مع إسرائيل ؟! ألا يوجد في الإدارة الحاكمة عاقل يراجع هذا الصحفى الذى تبوأ رئاسة تحرير إصدارات دار صحفية حفر الأسلاف فى الصخر حتى أقاموا صرحها الذى يعبث فيه سيادته بما عَنَّ له من ادعاءات الحكمة بمنطق الدبة ؟! أليس من الخيبة أن يصدر عن رئيس تحرير حكومى - والآن !! - أن مصر عينى عينك تطبيع مع إسرائيل التى تغتال الأخضر واليابس وتسف أعواد الحياة فى وطننا بغض النظر عن الحدود التى اصطنعها الاستعمار لتقسيم بلادنا ؟! ألم يفتح الله عليه بشىء لمعايرة الإخوان المسلمين سوى التلويح الخائب المعيب غير العاقل بأنهم استفادوا ويستفيدون من «تطبيع» مصر مع إسرائيل ؟! ألم ينم إلى غلمه أنها خيبة قوية أن يلوح بذلك بينما دول كجنوب أفريقيا والإكوادور تعلن استدعاء سفيريهما لدى إسرائيل ؟! ألم يلاحظ سيادته أن هذا المانثيت - الآن !! يحبط المجتمع الدولى الذى نهض برمته لشجب ورفض المذبحة الإسرائيلية وتتصاعد مواقفه لرفع الحصار الإسرائيلى الغاشم عن قطاع غزة ؟!!

يكاد المتابع لا يلاحظ على المسرح العربى سوى الانتفاضات والمظاهرات والاحتجاجات الشعبية ، ولم تجد الحكومات شيئا تفعله سوى أن تقول .. بإطلاق عبارة أو أخرى ، دون أن تفعل شيئا أو تتخذ موقفا يجب على الدول الحرة اتخاذه بها يناسب فداحة ما تعرض له من إهانة فضلا عن الإبادة !

ظننى أن كارثة وتداعيات العجز العربى ، أفدح وأشد وقعا وأثرا علينا من المذبحة الإسرائيلية ذاتها ، فكم من اعتداءات ومذابح ذهبت فى النهاية

إلى مزبلة التاريخ أمام صمود ومقاومة الشعوب والحكومات والأوطان .
العجز العربى مصيبة حقيقية تبث رسالة إلى الأجيال أن أديروا ظهوركم
للقضية ولحريتكم وكرامتكم وعرضكم وسلموا إلى إسرائيل بما تريد !!!
ماذا يبقى لنا من بعد ١٩

لماذا لا تترك الحكومات العربية - على الأقل - مهمة الخطاب الواجب
للقوى الشعبية مادام الخطاب الرسمى قعيدًا عاجزًا حبيسًا .. فى عهد الملكية
البائد فى مصر المحروسة ، أطلقت الحكومات المصرية لبنيتها حرية المقاومة
الشعبية المسلحة للقوات الإنجليزية المحتلة على طول قناة السويس ، ولم
يتوجس أحد أو يتذرع أيامها بأن إطلاق الحرية للقوى الشعبية فى المقاومة
يؤثر أو يمكن أن يؤثر على أمان النظام الحاكم فى مصر !!
لماذا قتلنا الكرامة فى بلادنا !!!

من تراب الطريق

هل ولي زمن^(*)
(٤٥٥)
البسالة والشجاعة؟!

راودنى هذا الخاطر ، أو قل عاد إلى الذاكرة ، فهو خاطر قديم ، حين قرأت بأهرام الجمعة ٦/٤ عن الطائرات العمياء التى تهدد أخلاقيات الحروب . فقد انطلقت تحذيرات نقلتها وكالات الأنباء ، بوجوب وضع حد لاستخدام ما يسمى بالطائرات «العمياء» التى تطير بدون طيار ، فى حصد أرواح المئات من المدنيين العزل فى باكستان وأفغانستان بنيران هذه الطائرات الأمريكية .. العمياء !!

استخدام أمثال هذه الطائرات لم يعد جديداً ، فقد نفذت بها المخابرات المركزية الأمريكية عشرات الهجمات لتصفية قيادات إسلامية فى باكستان وأفغانستان ، فشل أكثرها فى تحقيق أهدافها المقصودة ، ولكنها أودت بحياة مئات المدنيين من الأبرياء .. وتفعل إسرائيل شيئا من ذلك ، بمنتجات الترسانة الأمريكية المتقدمة ، فى اصطيد وحصد قيادات المقاومة الفلسطينية .. والغريب أن يتأخر للآن الالتفات إلى غيبة البسالة والشجاعة عن هذه العمليات وتهديدها لأخلاقيات الحروب !

غابت الشجاعة من زمن طويل ، حين حلت الطائرات ثم الصواريخ بعد المدافع والدبابات فى حصد الأرواح ، ليس فقط فى ميادين القتال ، وإنما حيث يوجد أى عمران .. ربما كانت فكرة المواجهة حاضرة فى حروب الدبابات والمدفعية التى لا تخلو من مواجهات تتبادل فيها النيران وتفصح

(*) المال ٦/٨/٢٠١٠ .

عملياتها مجالاً بنحوٍ ما للشجاعة والبسالة ، وربما وجدت شيئاً من ذلك في
تصدى الدفاع الجوى بأسلحته المختلفة للطائرات المغيرة .. فقد أباحت
أسلحة الدفاع الجوى وأفسحت قدراً ما من المواجهة إزاء الحروب الجوية
التي كانت الغلبة فيها لا تزال إلى قوات الجو !

ومع ذلك فغياب البسالة والشجاعة صاحب معظم عمليات الجو ، فماذا
عساها تكون شجاعة أو بسالة الطيار الذى قاد الطائرة الأمريكية وأسقط
القنبلة الذرية على هيروشيما في ٦ أغسطس ١٩٤٥؟! أو زميله الأمريكى
الذى قاد طائرة أخرى بعده بثلاثة أيام ليلقيها في ٩ أغسطس على نجازاكى
، ليحصدا أرواح مئات الألوف - بل الملايين، من أبناء اليابان التى لم تجد بدا
من التسليم! وماذا كان فى وسع المحصودة أرواحهم على الأرض من بسالة
أو شجاعة ترد أو تقاوم القنبلة الذرية الملقاة على مدينتهم من أعلى الجو!!
فى حروب الصواريخ ، ناهيك بعبارة القارات أو ألوف الكيلومترات ،
لا مجال للبسالة أو الشجاعة ، ولا لأخلاقيات الحروب التى ولت مع انقضاء
عهد المنازلات والمبارزات التى كانت تتقارع فيها سيوف ورماح وسواعد
وقلوب .. ذهبت سير الأبطال الذين كانوا يجندلون العشرات من الفرسان
والمشاة فى المعارك الحربية أو المنازلات الشعبية أو القبلية .. لم يعد لأخلاق
الفروسية مجال بعد مواجهات الصواريخ .. لازلت أذكر - فيما أذكر - موقف
الفارس على بن أبى طالب فى موقعة صفين حينما ضرب عمرو بن العاص
ضربةً هائلة أسقطته من على جواده ، ولم يعد باقيا سوى الإجهاز - اليسير!
- عليه بضربة واحدة ، وربما إنهاء الحرب الضروس التى أشعلها معاوية بن
أبى سفيان اعتراضاً - لتحقيق أطماعه - على ولاية أمير المؤمنين على بن أبى

طالب التى انعقدت عليها مبايعة أهل الحل والعقد وعامة الناس فى المدينة ومكة ومصر والعراق ، ومع ذلك أبى معاوية إلا أن يستنفر الشام التى كان يتولى إمارتها لسنوات لمحاربة الإمام !! أى عظمة تلك الفروسية التى أبى على الفارس على بن أبى طالب أن يجهز على مبارزه عندما كشف عن سواته ، فآثر الفارس أن يلوى عنق جواده ويتركه ويمضى !!!

نعم ، ولت أخلاقيات الحروب ، بالصواريخ والطائرات ، والمدفعية والدبابات ، وولت بشيوع الحروب الكيماوية والجرثومية والميكروبية والقنابل الذرية وكافة أسلحة الدمار الشامل !

لم يقتصر أثر ذلك على ضياع أخلاقيات الحروب ، وإنما هزّ مع ضياع أثر البسالة والشجاعة - موازين القوى ، فصار حامل البندقية قادراً على حصد أرواح المئات ، وقائد الدبابة قادراً على هدم وتدمير عشرات البيوت وقتل العشرات والمئات ، وصار الصاروخ الأعمى ، وليس فقط الطائرة العمياء ، قادراً على تدمير مدن بكاملها ونسف العمائر وقتل الألوف ، وأكثر إذا ما حمل رأساً ذرية لم يعد نزولها على مدينة رهنا بطائرة عمياء أو مبصرة يقودها طيار ، وإنما صارت الرؤوس الذرية متاحة على الصواريخ العابرة للقارات التى تُطلق من قاعدتها بلا مخاطرة وبلا حاجة إلى بسالة وشجاعة !

لم تضع فقط وتذهب أخلاقيات الحروب ، ولم يقتصر الأمر على ضياع فرصة لأى كثرة لتغلب الشجاعة كما كان يقال ، ولا عاد للشجاع مكنة صد وأبل الطلقات أو القنابل أو الصواريخ .. وإنما اختلت تماماً موازين القوى ، وركب العالم من استطاعوا تدبير وصناعة وإنتاج الأسلحة ذات القوة التدميرية العالية ، انتهاء بأسلحة الدمار الشامل !!!

أعرفتم لماذا إذن تصادر أمريكا على إيران ؟!

ولماذا تتغاضي عما في ترسانة إسرائيل من أسلحة دمار شامل وقنابل ذرية

يقال إنها كافية لتدمير نصف العالم !!!

تتضاءل فرص الأمم والشعوب حين يقلت منها التقدم وتتأخر عن
ركب الحضارة ، وتترك للطامعين في أوطانها مجال السبق في التسلح الحديث
نوعاً وكيفاً .. وحين تغفل عن مخططات عالم الكبار في احتكار السلاح
واختصاص نفسها والحيلولة دون غيرها بامتلاك الأسلحة ذات الدمار
الشامل والقوة التدميرية الهائلة . لم يعد من الفطنة أن تثق الشعوب في حسن
نوايا الكبار .. لو حسنت نواياهم لكان المسعى إلى تعميم تحريم أسلحة
الدمار الشامل ، ولما ميزوا بين ربائب يترك لها الحبل على الغارب لتكريس
ترسانة نووية ، ومطاردة باقى الأمم لحصرها فيما يراود أن تبقى تحته بلا فرصة
ولا حقوق ولا كرامة !

من تراب الطريق

(٤٥٦) عماد الحقيقية (*)

في وقت لم تكن الألقاب تطلق إلا على قامات حقيقية ، ومعطيات شاهدة ،
درج جيلنا ومن قبلنا على إضفاء إمارة الشعر وإطلاق لقب أمير الشعراء
على الشاعر أحمد شوقي ، وخص الأستاذ أحمد لطفى السيد بلقب أستاذ
الجيل ، وأقر للدكتور طه حسين بعمادة الأدب العربي .. لم يكن يطلق أيامها
لقب الكاتب الكبير على كل من خط سطرًا أو أمسك قلمًا ، ولا كانت مثل
هذه الألقاب تضاف بلا حساب على أنصاف الفنانين أو على كل ممثل ومثلة
أو راقصة .. تذكرت ذلك وأنا أقع بالصدفة في أوراق أرشيفي على عرض
كنت قد كتبت في ستينيات القرن الماضي لكتاب كان قد صدر عام ١٩٥٩
للدكتور طه حسين بعنوان : «من أدبنا المعاصر» لفت نظري أيامها أنه على
كثرة شواغل عميد الأدب العربي بأمهات الكتب والمؤلفات التي أثرى بها
المكتبة العربية ، لم ينسلخ عن الاهتمام بمن حوله من الأدباء والكتاب الكبار
والأواسط والناشئة ، فيقرأ أعمالهم ويعقب عليها مقدما ومنوها ومشيرا
وناقدا ، ليقدم إلى الناس من وما يرى أنه جدير بالتقديم .

على مدار عقد الخمسينيات من القرن الماضي كتب الأستاذ الدكتور
العميد طه حسين إلى قراء جريدة الجمهورية (أيام زمان !) جملة مقالات
في النقد الأدبي .. صور فيها انطباعاته وتقييمه لعدة أعمال أدبية كانت قد
صدرت أيامها في مصر وفي بعض الأقطار العربية فضلا عن بعض البلاد

(*) المال ٢٠١٠/٦/٩ .

الأوروبية .. كما تناول في هذه المقالات بعض القضايا التي شغلت الأدباء والمفكرين ، فأدلى بدلوه فيما اختلفت أو تباينت فيه الآراء والاتجاهات أو الاختلافات ، جمعها في هذا الكتاب : «من أدبنا المعاصر» الذي صدرت أولى طبعاته سنة ١٩٥٩ فسارعت بالكتابة عنه إلى إذاعة صوت العرب في وقت كان فيه الإعلام حافظاً لدوره الجاد الوقور في خدمة الفكر والأدب والثقافة .

بين دفتي هذا الكتاب لعميد الأدب العربي ، وقد مضى الآن على صدوره نصف قرن بالتمام والكمال ، ستة عشر مقالا عرض فيها لعدة كتاب وكتابات ، فكتب عن «هكذا خلقت» للدكتور محمد حسين هيكل صاحب القامة الرفيعة والكتابات المتميزة عن «حياة محمد» و«الفاروق عمر» و«عثمان» و«الصادق أبو بكر» .. و«جان جاك روسو» ، و«جان دارك» ، و« في أوقات الفراغ» ، وقائمة طويلة من المؤلفات القيمة التي لم تمنعه المحاماة ولا الحقائق الوزارية العديدة التي حملها ولا رئاسته لحزب الأحرار الدستوريين ومجلس الشيوخ ، عن تأليفها وتقديمها للمكتبة العربية. وتابع عميد الأدب العربي وكتب - في ذلك الوقت - عن ثروت أباطة - وكان أيامها من الناشئة - وعن روايته التي جسدت تليفزيونياً : «هارب من الأيام» .. ومثلها فيما أذكر الممثل الراحل الموهوب عبد الله غيث الشقيق الأصغر للأستاذ حمدي غيث المسرحي الكبير .. وكتب الأستاذ الدكتور والعميد ناقداً ولافتاً ومنوهاً بالأستاذ نجيب محفوظ وروايته المتميزة «بين القصرين» .. وكتب عن الأديب التونسي محمود المسعدي وقصته التمثيلية «السد» .. وتناول بأستاذيته المعهودة ما كان مثاراً وقتها من آراء متباينة حول الفصحى والعامية كأسلوب للكتابة الأدبية ، ولقضية التجديد في الشعر ، وأزمة الفن

في عصرنا ، فضلاً عن بعض الترجمات والأشعار والأعمال الأدبية لشعراء
وكتاب قدامى ومحدثين.

في توقفه مع : «هكذا خلقت» للدكتور محمد حسين هيكل ، يهنئ الكاتب
على عودته إلى القصة العربية التي كان من السابقين إليها ، في روايته : «زينب» ،
ثم هجرها هجراً طويلاً فأوحشها وأوحشته .

يزجى العميد إلى الكاتب الكبير أنه لاف في قصته الجديدة ، أنه يخاطب
القلب والشعور ، ويخاطب العقل .. في صياغة سهلة عذبة بريئة من التبذل
والابتذال جميعاً ، ويتحدث إلى القلب والشعور بحديث الحب الذي يشقى
به الغير كما يشقى صاحبه ، ويتحدث إلى العقل بما تناوله من قيم لأعمال
لاءمت الحق تارة وخالفته تارة أخرى ..

والقصة التي عنى العميد بتلخيصها تدور حول حياة فتاة أعطاهها الله
سبحانه وتعالى منذ صباها كل شيء .. ولكن الأمور دفعت بها في مدارج
الحياة إلى عبادة ذاتها ، فانتهى بها ذلك إلى الوقوع في هاوية الخطأ غير مرة ..
تمضي بها الحياة ، أو تمضي هي بها في سلسلة متتابعة من اللطمات حتى تثوب
في النهاية إلى رشدها ، وتشد بالتوبة غفران ومسح جرائرها!

لم تمنع صلة العميد بالدكتور هيكل ، من أن يأخذ على قصته ببطء الإيقاع
والإسراف في تفاصيل قد تدعو إلى السأم ، فضلاً عن مأخذ يسيرة تتعلق
بموضوع التبنى وقليل من الخطأ في اللغة ، ولكنها ملاحظات لا يخفى
العميد أنها لا تغضى من قدر الكتاب ، ولا تنتقص من قيمته الفنية ، ولا
ترهد - على حد قوله - محباً للفن شغوفاً بالأدب الجدير بهذا الاسم في أن يقرأ
الكتاب حفيماً به حريصاً على الاستمتاع بدقائقه.

لم أقصد بهذه السطور التعريف بطله حسين ، ولا بالكتاب والأعمال التي كتب عنها ، وإنما قصدت أن أسترعى العناية إلى الفارق الهائل بين ما كانت عليه صحيفة حكومية (الجمهورية) في ذلك الأوان ، وما صارت إليه بعض النشرات الرسمية التي ابتعدت في أيامنا بعدا كلياً عن الفن والأدب والثقافة ، وعن الجد والوقار ، وأوغلت في أغراض صغيرة ونفاق رخيص .. ومع ذلك لست أحب أن أنهى هذه الكلمات دون عرض وجيز لرأى الدكتور طه حسين في نقده وتقريظه - آنذاك - لرواية «بين القصرين» أول ثلاثية نجيب محفوظ . سجل الأستاذ العميد للرواية أنها على طولها لا تثير ملالة ، ولا يشعر القارئ لها بضعف أو نفور ، واستطاع نجيب محفوظ أن يحقق فيها تحقيقاً رائعاً : خصلتين .. يبلغ بهما الأثر الأدبي أقصى ما يقدر له من النُجح .. وهما «الوحدة» التي لا تغيب ، و«التنوع» الذي يدرأ السأم ويأخذ القارئ إلى حياة خصبة حافلة مختلفة المظاهر والمناظر والأحداث ، في إطار صور البيئة المصرية في ذلك العصر أصدق تصوير .

هكذا كانوا وكانت الصحافة!!

فانظر إلام صرنا وصارت بعض الصحافة هذه الأيام !!



من تراب الطريق

الدكتور عبد الغفار مكاوي (*)
(٤٥٧) وقراءته في جذور الاستبداد

عرفت الأستاذ الدكتور عبد الغفار مكاوي عالماً أديباً متميزاً - في الندوة الأسبوعية للمصديق العزيز الأديب الراحل فاروق خورشيد .. افتقدنا حضوره الندوة في السنوات الأخيرة السابقة على رحيل فاروق خورشيد ، ولكن لم تنقطع اهتماماتنا بمتابعة كتاباته ومؤلفاته ومقالاته في الدوريات الأدبية والثقافية ..

أحتفظ في مكتبتى ضمن مؤلفاته بكتابه الرائع : «جذور الاستبداد - قراءة في أدب قديم» .. أصدرته له سلسلة عالم المعرفة (الكويتية) - بالعدد / ١٩٢ في ديسمبر ١٩٩٤ .. وهو كتاب يصادف عنوانه وموضوعه - يصادفان ما تنفسي في زماننا من استبداد لا بد أن له جذوراً في السابقين .. ويضم الكتاب نصوصاً كاملة لما يعرف بأدب الحكمة البابلية ، وهي التي اكتشف معظمها في مكتبة الملك الآشوري «آشور بانيال» .. واستطاع الأثريون وعلماء اللغتين السومرية والآكدية - أن يفكوا رموزها وأسرارها بعد جهود مضنية ورائعة ، هي التي أتاحت نشر أصولها وترجماتها إلى اللغات الحديثة .

يبدأ الدكتور عبد الغفار مكاوي كتابه الضافي بتمهيد عام يحدد فيه مفاهيم الحكمة ، والتاريخ ، والأدب ، والإبداع والأسطورة والدين والطاعة وغيرها - في الحضارة القديمة في وادي الرافدين .. هذا المدخل للحكمة البابلية ضروري جداً لكشف الأعماق الدفينة لأدب الحكمة البابلية ،

(*) المال ٢٠١٠ / ٦ / ١٤ .

والتي تراكت عليها «طبقات» متتالية في تاريخ طويل لنظم الحكم والقيم
والمعرفة عبر نحو ثلاثة آلاف سنة . فلا تزال جذور «اللا حرية» والظلم
والقهر التي كابدها القدماء - تلقى بظلالها وأصدائها المعتمة فيما ينبعث في
تلك النصوص من أنين وصرخات !

وإذا كان الكتاب كما قيل في تقديمه - محاولة لقراءة هذه النصوص
القديمة التي تعبر من داخلها عن جذور الاستبداد في إطار سياقاتها التاريخية
المختلفة ، وتهتدى في التعرف عليها - تعاطفًا أو نقدًا - بقراءة تهتدى بفلسفة
التفسير أو التأويل المعاصرة ومناهجها ، بحيث تتحول القراءة إلى تجربة حيّة
يتعانق فيها الحاضر والماضي ، وينصهر أفق القارئ المعاصر - بقدر الطاقة -
مع أفق الكاتب أو الكتاب القدامي المجهولين ، فإن الذي يجب الالتفات إليه
أن حضارتنا القديمة ليست هي «حضارات الموت والظلام» التي انقضت ،
وإنما هي تراث عريق وثقيل لا تزال جوانبه السلبية فعالة في تكويننا وفي
سلوكنا الحاضر ، ويتوجب علينا أن نستوعبه وننقده لكي نتجاوزه بإبداع
تراث جديد أكثر حرية وعدلاً وأملًا ، وأقل بؤسًا وظلمًا واستبدادًا .

احتوى كتاب الدكتور عبد الغفار مكاوى ، بعد التمهيد العام والمدخل إلى
الحكمة البابلية ، واللذين استغرقا (١٦٥) صفحة ، على أربعة فصول .. الأول
بعنوان : «لأمتدحن رب الحكمة» (لدلول - بيل - نيميقى) ، وفيه قصيدة
مكونة من (٢٧) مقطوعة : «المعذب والصديق» .. وهى قصيدة حوارية بين
معذب وصديقه الحكيم عُرفت بأنها «التهوديسية» البابلية ، والمراد بها تبرير
الشر والألم والظلم في هذا الوجود بالحكمة الخافية على عقول البشر !! أما
الشق الثاني في هذا الفصل فهو بعنوان «حوار السيد والعبد» .. ومضمون

هذا النص المذهل المحير المنحدر إلينا من نحو ألف عام قبل الميلاد ، يكشف الغطاء عن القضية الأزلية : ماذا يفعل الإنسان حين يجد أن القيم قد فقدت قيمتها ، ويهوله الاضطراب والخلل الذى اجتاح كل شىء ، ويفزعه خلو الساحة لعقارب الحسة والغدر وكلاب السلب والنهب ! ربما لم يقصد الكاتب المجهول هذه الأفكار ، ولكن قراءة النص كفيلة باستخراج هذه المعانى من خلال الحوار بين السيد الذى استولى عليه الملل ، والعبد المسكين الذى لا يسعه إلا تنفيذ ما يريده سيده فى جميع الأحوال !

والفصل الثانى لكتاب جذور الاستبداد ، ينطوى على جزئين : أولهما «نصائح ونواه» ، عرضت من خلال إرشادات «شوروباك» لابنه «زيوسودرا» ، و«نصائح حكيمة» عبارة عن مواعظ أخلاقية تتألف من نحو (١٦٠) سطرا ، ثم «نصائح متشائم» وجدت مدونة على لوح صغير ويبدو أنها مقتطفة من عمل أدبى أكبر ، وهى على هيئة خطاب موجه يتضمن النصائح التى يرى الدكتور عبد الغفار مكاوى أنها لا توحى بالتشاؤم كما يستفاد من صفة المؤلف ، آية ذلك أن النص يؤكد «الفناء» أو «التهاهى» كما يقول فلاسفة الوجود المعاصرون ، وأن ذلك لا يدل على التشاؤم بقدر ما يكشف عن تبصر هذا الحكيم البابلى القديم ، يتلو ذلك : «نصح ونذير الأمير» ، وهى نصائح مكتوبة بالأسلوب الذى كانت تُكتب به نبوءات التحذير مما سيقع فى المستقبل . أما الجزء الثانى لهذا الفصل الثانى للكتاب ، فبعنوان : «تراثيل للآلهة» .. احتوى على «ترتيلا للإله نيتورتا» ، و «ترتيلا للإله شمس» .

أما الفصل الثالث ، فهو عن مناظرات وحكايات خرافية على لسان الحيوان ، وهو يؤكد بإجمال كيف احتفظت هذه الحكايات على لسان الحيوان بشعبيتها في الشرق منذ القدم .. ولعل أشهر الأمثلة على ذلك كتاب «كليلة ودمنة» الذى ترجمه عبد الله بن المقفع عن «بيدبا» الفيلسوف الهندى .. أما حكايات النصوص البابلية القديمة فعن : الطرفاء والنخلة (الطرفاء نوع من الشجر وبها سُمى طرفة ابن العبد) ، وحكاية الصفصافة ، والحكاية الشعرية عن نيسابا إلهة الغلة ، والثور والحصان ، وحكاية الثعلب . أما الفصل الرابع والأخير فهو لحكم وأقوال سائرة وأمثال شعبية .

لا يخفى الدكتور عبد الغفار مكاوى ما حداه إلى تقديم هذا الكتاب الذى أنجزه عام ١٩٩٠ .. فكل من جرب مرارة المحنة لا بد أن يكون قد راوده السؤال المر فى أوقات الشدائد والأزمات : هل يعيد التاريخ نفسه ؟ ولا جدال أن «معرفة» التراث معرفة دقيقة و«استحضاره» ضرورة لا مفر منها للحاضر ، وفى مواجهة الإنسان لنفسه ، والحكمة الحقيقية من هذا كله - فيما يورد الدكتور مكاوى - أننا لم نسيطر بعد على مشكلة الطاغية ومأساة الطغيان فى تاريخنا القديم والحديث والمعاصر !!

من تراب الطريق

(٤٥٨) مع الجاحظ (*)

ورث جيلنا حب واحترام الجاحظ - عن أضلاع التنوير في القرن العشرين .. العقاد وطه حسين والمازني وتوفيق الحكيم ويحيى حقى وأحمد أمين وسلامة موسى وغيرهم .. وزاد احترامنا له وتعلقنا به عندما التهمنا أمهات مؤلفاته : البيان والتبيين ، والبخلاء ، والحيوان ، ورسائله العديدة التي امتلأت باهتماماته اللافتة بالفئات المهمشة أمثال : لصوص النهار ، ولصوص الليل ، ورسائل القيان ، والبرصان والعرجان والعميان ، ومن رسالته : « الترييع والتدوير » .. وهى الرسالة التى فتحت باب « الرسائل الأدبية » فى النثر العربى ، ونالت مع كتبه شهرة ، ظلت حاضرة لأكثر من ألف عام .. لم تفقد جدتها .. ينشدها الأدباء وطلاب المعرفة ودراسة التاريخ والآداب .

كان أبو عثمان عمرو بن بحر (٧٦٧-٨٦٨ م) الشهير بالجاحظ لجحوظ عينيه ، أشهر أدباء القرنين الثانى والثالث الهجريين (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) .. مات أبوه وهو صغير ، فقامت أمه على تربيته ، وضاق بعشقه الشديد للكراريس ودكاكين السوراقين ، وانصرافه التام للقراءة عن السعى إلى تدبير لقمة العيش .. فجأته يوما حين دخل الدار وطلب الطعام ، بالأطباق وقد أحضرت عليها أوراقا وكراريس ، فلما نظر إليها مدهوشا متعجبا ، قالت له : « دونك ما تحب فاشبع منه ! »

(*) المال ٢٠١٠/٦/١٥ .

حين روى لشيخه : أبو عمران موسى بن عمران ما فعلته أمه ، نفحه الشيخ خمسين دينارًا ليسرع إلى أمه بالدقيق والزبيب والزيت والتمر .. التفت الشيخ إلى نبوغه وامتياز فكهله برعايته ، وحضه على مجالسة أهل العلم والأدب ، والاغتراف من منابع المعرفة .. ووالاه بكتابات السابقين والمعاصرين ، ودفعه إلى حفظ قصائد صفوان الأنصارى وسليمان الأعمى في ردهما على بشار بن برد في تفضيله النار على الأرض وما وراء الطبيعة ، وأتاح له وشجعه على الاستماع إلى شيوخ عصره : الخليل بن أحمد ، وثمامة بن أشرس ، والعلاف ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ..

دخل الجاحظ يوما إلى داره لا يخفى انزعاجه لما حدث لمهدي ابن القصاب الذي عدا عليه كلب فعقره وأصابه إصابات بالغة في وجهه وتحت عينيه ، فانتهزتها أمه الضيقة بطباعه الغريبة - انتهزتها فرصةً لتحذيره من مداعباته الثقيلة مع الكلاب وانشغاله بمراقبة الثعابين والجردان ، والضفادع والفراشات ، وطفقت تقول له : «العاقل من يشغل نفسه بما يملأ كفه من أكياس الدراهم ! » وجعلت تحذره مما سوف يحيق بصديقه الذي لا بد سيصاب بداء الكلب ، وانطلقت الأم القلقة عليه تصف له الأعراض التي سوف تلم بصديقه .. وتقول له : «مادام الكلب قد عقره فلا بد أن يكون مكلوبا .. وسيبدأ صاحبك فيعطش أشد العطش ، وينج ويبول علقا في صورة الكلاب قبل أن يموت ! »

ولكن تحذير الأم لم ينه الجاحظ عن مراقبته للحيوان ، بل زاده نهما للدراسة والمراجعة التي أثمرت في النهاية موسوعته الكبرى : «الحيوان» .. وفيها جمع كل غريب ومفيد من معارف ونوادر وكتابات عن عالم الحيوان .

كانت ميزة الجاحظ في اقترابه من المجتمع وتأمله في حياة الناس ، وفئات المهمشين ، ودراسته لأحوالهم ، وفي روح الدعابة المتأصلة فيه ، فضلا عن تجديده اللافت في أسلوب الكتابة .. أما سخريته فقد تجلت في الكثير من كتاباته ، وتجلت في كتابه عن «البخلاء» الذي جمع فيه نوادرهم وتهكم على سلوكهم وتصرفاتهم وشحهم ، حتى وصف أحدهم بأنه يكاد من فرط بخله يتنفس من منخر واحد !

شهد له القدامى والمحدثون بالنجابة والتميز ، فقال ابن العميد عن كتبه : «إنها تعلم العقل أولا ، والأدب ثانيا» .. ونوه الأستاذ أحمد أمين إلى أن كتاباته مرآة للحياة الاجتماعية في عصره ، وفي الوقت الذي لم يدرك معاصروه أو يقدروا قيمة النقلة التي انتقل بها في أسلوب الكتابة الأدبية ، حتى رماه بعضهم بالعامية والركاكة والابتذال ، أنصفه الأستاذ توفيق الحكيم ، فوصف هؤلاء بالمتطعين ، وكتب غير مرة منها بنبوغ الجاحظ الذي سبق عصره ، ولافتا إلى أنه قام بعملية تجديد وبعث في اللغة العربية وحطم السدود بين عالم الأموات وعالم الأحياء ، وأنه لو سارت الأمور من بعده سيرها الطبيعي طبقا لشرعية التطور لكان للأدب واللغة العربية شأن آخر من زمن بعيد .

من كتاب «البيان والتبيين» عرفنا عن الجاحظ أنواع الدلالات من لفظ وإشارة وإيماء وخط وعقد ، ودلالة الأصوات ، وعناصر الكتابة والخطابة ، وضروب من أشهر وأبلغ الخطب والرسائل ، وبالصفات الواجبة في الخطيب ، وتلك الآفات التي يمكن أن تعوقه من عيوب في النطق أو اللسان .. كاللثغة (وهي تحول اللسان من حرف إلى حرف ، كقلب السين ثاء ، أو الراء غينا) ، والفاءة (وهي كثرة ترديد الفاء في الكلام) ، والتمتمة (وهي كثرة

ترديد التاء والميم ، فلا يكاد المتكلم يُفهم) وغيرها ، ومما نقله الكتّاب عنه - استفاد الإمام العالم أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) - فى كتابه المعروف «تقويم اللسان» .. ومن يقرأ الجاحظ يلاحظ فى معالجاته عنايته اللافتة بالمقابلة بين الجيد والردىء ، فيراه مثلا يضع الحمقى والمجانين ومن إليهم - أمام البلغاء والحكماء والمفوهين .

كنت أحب أن أحدثك أكثر عن ما تضمنه كتاب «البيان والتبيين» .. هذا الكتاب الضافى الذى تعلم جيلنا منه الكثير ، ويكفيك أن تعرف أنه ظل لأكثر من ألف عام مرجعا أساسيا لدارسى الأدب العربى .. أتاح للجاحظ كل هذا الإنتاج المتنوع الغزير المتميز ، معرفته الواسعة ومراقباته وملاحظاته الفاحصة ، وتجربته الحية .

كان الجاحظ إلى ذلك كله ، ساخرا كبيرا .. عرف إلى جوار ايقاعية أسلوبه وقصر عباراته واستطراداته ، بروحه الساخرة التى سخرت من كل أشكال القبح الحسى والمعنوى فى زمانه ، فاجتمعت له صفات وصبت فيه روافد يندر أن تجتمع لعبقري واحد .

من مفارقات المقادير أن يموت هذا الأديب العبقري ، عاشق المعرفة ، تحت أكوام الكتب التى سقطت برفوفها عليه فى داره وقد جاوز التسعين ، فأودت بحياته شهيدا للكتب !

حين نعى الجاحظ إلى الخليفة العباسى المعتز بالله ، قال مكبرا الملكاته وتنوع إمكانياته : «أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟» ، فقليل له من أحد الحاضرين فى بلاطه : «ليت شعري يا أمير المؤمنين .. وأى شىء كان الجاحظ لا يحسن ؟!» .

من تراب الطريق

استشهاد حديث (٥)
بتحيز قديم!

(٤٥٩)

في ١٩ أبريل ١٩٩٥ ، قبل أكثر من ست سنوات على حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، رُوِّعت الولايات المتحدة الأمريكية ، ورُوع وتعاطف معها العالم - بالانفجار المحزن الفاجع الذي وقع في مبنى الحكومة الفيدرالية في أوكلاهوما بالولايات المتحدة ، وراح ضحيته في التو واللحظة (١٦٨) شخصاً منهم (١٩) طفلاً ، فضلاً عن نحو أربعمئة جريح ربما لحق بعضهم بالضحايا الذين فارقوا الحياة !

كان الحادث مروّعاً في عدد ضحاياه ، وفي طريقة وقوعه وتنفيذه ، مثلما كان لافتاً في موضعه بقلب الولايات المتحدة التي لم يحدث سلفاً شيء يعكّر حصانة أمنها الداخلي ، فأوكلاهوما المدينة عاصمة ولاية باسمها ، تقع في الجزء الجنوبي الغربي ، وتقع عاصمتها شمال النهر الكندي بالقرب من المركز الجغرافي للولاية ، وتعد من المراكز الرئيسية لإنتاج الزيت في الولايات المتحدة ، ومركز تجارى وصناعى ضخم ، ونقطة توزيع زراعية واسعة ، ولا يوجد في ظروفها الاجتماعية أو الجغرافية أو الاقتصادية أو السياسية - ما يفسر هذا التفجير الذى عصّف عصفاً بأمان المدينة وبالولايات المتحدة الأمريكية بأسرها !

وفي حومة آثار الحادث المروّع ، وُجِّى البحث والتفتيش عن الفاعلين ، كان الغريب اللافت أن توجه كل الاتهامات في الساعات الأولى وقبل أى

(*) المال ٢٠١٠/٦/١٦ .

تحقق أو تثبت ، إلى المسلمين والعرب ، وانجرفت قنوات الإعلام والميديا الأمريكية ومن ورائها الرأى العام - إلى تبنى هذه الاتهامات المطلقة على عواهنها بلا أى سند ، قبل أن تسفر التحقيقات وتكشف عن أن المجرم الفاعل أمريكى قح ، ولا علاقة أو صلة له من أى نوع بأى عربى أو مسلم أو شرق أوسطى !

روى الدكتور جلال أمين فى مقال له بالهلال الشهرى (يونيو ١٩٩٥) ، أنه فى تلك الساعات التى انطلقت فيها تلك الاتهامات غير المتبصرة ، اختار أحد مراسلى الصحف الأمريكية - الكاتب الشهير الفلسطينى الأصل : الدكتور إدوارد سعيد ، الحامل للجنسية الأمريكية ، والمقيم بنيويورك ، والأستاذ بأكثر من جامعة أمريكية - اختاره ليوجه إليه سؤالاً - خبيثاً مستفزاً - عن «رد فعله» لحادث الانفجار المروع ، ومردّ الخبث والاستفزاز أنه خصّ الفكر الكبير بهذا السؤال الأعجف الغريب ، لمجرد أنه من أصل عربى ، وكأن المنتظر من العربى أن لا يأسى ولا يغضب ولا يحزن لهذا الحادث المؤسف الذى لا يختلف إنسان على شجبه وإدانتة والأسى له !

كان من ذكاء وفطنة الدكتور إدوارد سعيد أنه لم يجب ، ولم يعلق على هذه الصفاقة ، فأحياناً يكون الصمت أبلغ من أى كلام .. وأى إجابة تقال فى هذه الحالة - تعطى المراسل الصحفى الأمريكى حقاً فى توجيهه هذا السؤال المستفز ! والسؤال المهم ، لماذا هذا التحفز لتوجيه الاتهامات العشوائية للمسلمين والعرب ، ولماذا تسارع الأجهزة الأمنية والإعلامية الأمريكية - وقبل التحقيق والتحقيق - لنسبة مثل هذه الاتهامات المندفعة إليهم ؟! وما سر سوء الظن وهذا العداء القديم ، بينما لم يرفع المسلمون والعرب سلاحاً أو يشنوا

حرباً على أمريكا والأمريكيين .. والتاريخ القديم والحديث يورى بأن المنطقة العربية استقبلت العديد من الهجمات والحروب .. الصليبية وغيرها .. التي أنتها من الغرب ، فلماذا إذن هذه «الجاهزية» لتوجيه الاتهامات العشوائية إلى المسلمين والعرب ؟! هل للتوجس من الثارات ؟! ولكن للولايات المتحدة ثارات كثيرة في اليابان التي أبادت الملايين من مواطنيها بالقبيلتين الذريتين اللتين ألقيتا على هيروشيما ونجازاكي في ٦ و ٩ أغسطس ١٩٤٥ ، وفي ألمانيا التي ناصبتها العداء وتحالفت على تقسيمها وحالت بين الألمانى وبنى وطنه بسور برلين العظيم ، وفي فيتنام التي شنت أمريكا عليها حرباً لسنوات أتت فيها على الأخضر واليابس ، وأدت ضمير الأمريكيين أنفسهم حتى رفض بعضهم أداء الخدمة العسكرية احتجاجاً على هذه الحرب وتجنباً للاشتراك فيها ، وفي كوريا التي خاضت فيها حرباً ضروساً في أوائل الخمسينيات مع الجنوب ضد الشمال ! هذه كلها أوجدت ثارات ، زرعت وبثت عداءً لأمريكا في هذه البلاد - البعيدة عن العرب والمسلمين ! - فلماذا إذن المسارعة في كل مناسبة ، وبدون مناسبة ، إلى مهاجمة الإسلام والعرب والمسلمين ، ورميهم بكل نقيصة ؟! هل الانحياز الأمريكى لإسرائيل ومشروعها الصهيونى - يبرر هذا التجديف ومناصبة المسلمين والعرب العداء ؟!

لقد كشفت التحقيقات أن الجانى القاتل الأمريكى الذى لم يعدم إلا في ١٤ / ٥ / ٢٠٠١ ، ويدعى تيموثى ماكفاى ، من اللأ أدريين الذين لا ينكرون ولا يشنون الأمور الغيبية ، وأن الدافع وراء هذا التفجير كان بسبب أن التهديد الأكبر للحرية بالولايات المتحدة - ناشىء عن الحكومة الأمريكية ذاتها ، وأن موظفيها العموميين ينتهكون الحرية بدلاً من حمايتها ، وأن يوم ١٩ أبريل

الذى عصف فيه التفجير بأرواح ١٦٨ أمريكيا منهم ١٩ طفلاً - كان يوافق الذكرى الثانية للهجوم الذى شن ضد مجمع طائفة «ديفيدون» (Branch Davidian) ! حيث أورى «ماكفاى» أن الدافع وراء عملية التفجير ، كان الغضب المتراكم على الحكومة الأمريكية انتقاما من هذا الهجوم الذى شنته عام ١٩٩٣ على الطائفة الداوودية فى مدينة «واكو» بولاية تكساس !

العجيب أن تيموثى ماكفاى، طلب أن ينفذ فيه حكم الإعدام علنا.. متضامنا فى ذلك مع مطالبات المحامين المعارضين لعقوبة الإعدام، واعترض المدعى العام الأمريكى جون آشكروفت مبدئيا أن تصوير عمليات الإعدام ما هو إلا تمجيد لقتلة بسبب ارتكابهم جرائم دنيئة ! بينما صرح «ماكفاى» بأنه ليس خائفا من الموت ولا مما سيأتى بعده ، وأضاف متهمكما أنه إذا كان مشواه الجحيم فسوف يجد هناك رفقا كثيرين !!

على أنه منذ الحادث فى ١٩ أبريل ١٩٩٥ وما لازمه من اتهام ظالم للمسلمين والعرب ، وعبر التحقيقات وما كشفت عنه وحتى تنفذ حكم الإعدام فى القاتل الأمريكى يوم ١٤ مايو ٢٠٠١ - لم يعن أحد ، وللان ، بالاعتذار للمسلمين والعرب عن الاتهام الجائر الذى كان قد أشهر فى وجوههم على غير أساس ولا سند ولا منطق!!!

هذه خواطر كتبها منذ سبع سنوات عن مصر التي فى خاطرى ،
ويجب أن تكون حية حاضرة فى خواطرننا فى هذه الأيام الصعبة التى اختلط
فيها الحابل بالنابل ، وبدا أن قيم الانتماء ليست حاضرة بالقدر الكافى فى
صفحات وجداننا لنفى بحق مصر فى أعناقنا . نعم . ما أحوجنا هذه الأيام
لأن نعيد تعميق عشقنا وانتمائنا لمصر .. لست أزعم أن حب الوطن قد توارى ،
فذلك فى تقديرى محال ، ولكنى أعتقد أن شحنة إحساسنا العام بالانتماء
قد تضاءلت وخفت إن لم تكن قد خبت - أو تكاد .. لا أذكر عشق مصر ،
والانعطاف إليها وإلى قضايها ، دون أن يرد إلى خاطرى وفوراً عاشق مصر
الكبير أستاذنا الأديب المفكر الفنان العملاق يحيى حقى ..

عشق يحيى حقى أدبه وفنه ، مثلما عشق مصر عشقاً هائلاً تطالع أصداءه
فى كل ماكتب . كتابات يحيى حقى تفيض كلها بفكر ونبض وأحاسيس
ومشاعر واختلاجات ومعاناة وآلام وأفراح وأتراح فنان متيم حتى النخاع
فى عشق مصر .. مصر القديمة بعبقها وأريجها .. رائحة ترابها وحقوقها ..
شوارعها وحواريها وأزقتها .. أسوارها ومكتباتها .. مآذنها ومساجدها
وكنائسها .. قيسارياتها وبيمارستاناتها .. مقاهيها ومتاجرها .. آثارها
الفرعونية ، والرومانية ، والقبطية ، والعربية .. هذا العشق الجارف لمصر
القديمة ، مقرون لدى يحيى حقى بغوص واع متفتح ومبصر ومتفطن لسر

عبقريّة مصر المكان ومصر الشعب .. لا يمضي في عشقه دون أن يستخلص من عبق الماضي وصفحاته رؤية عميقة مصفاة ، يطل منها وبها على «مصر الحديثة» التي يتمناها ويشر لها .. لا تتوارى عنده الأصالة وهو يليق ويلاحق المعاصرة .. نموذج فريد لعاشق محب .. وفنان مدقق يرصف الكلمات والأفكار رصف الجواهر .. تتوالد أفكاره في ولادات قيصرية ، ولكنها بدر التمام حين تخرج مجسدة إلى الوجود في عبارات مرصوفة بعناية كحبات العقد . محال أن تحل حبة محل أخرى .

مصر في كتابات يحيى حقي ، ليست محض رصد ولا بيان ، وإنما أنت تحس من خلالها بعبق التاريخ ورائحة الحاضر .. مع يحيى حقي تمضي مبهوراً ما بين السيدة زينب ، والحسين ، وزين العابدين ، والسيدة نفيسة ، وبين الصورين ، والسيدة عائشة ، والفواله ، والأزهر ، وصحون الجوامع ، وأقبية المساجد والحصون ، وأبراج الكنائس .. لن تملك وأنت تجرى خلفه إلا أن تنطبع صفحة وعيك بهذا العشق وبهذه النظرات الفاهمة الواعية المتفطنة الباحثة في سليات الحاضر ، الساعية إلى كشفها وتشخيص أسبابها وذق الأجراس للالتفات إليها !

انظر معي إلى «كاميرا» يحيى حقي في مقالاته المجموعة في كتابه: «حقيقية في يد مسافر ورحلات أخرى .. «هذا رجل جاب ويحب العالم ، لا لمجرد ترقية الفراغ والتسلية ، وإنما لرؤية ما هناك رؤية متفطنة ، والتأمل أيضًا في إيجابياته ومساكنه ومحركاته ، يقول لنفسه ويقول لنا إن كان في قلب المسافر ذرة من حب الوطن والأنفة له والأرق له ، فلن يستطيع أن يكبح جماح تساؤلاته .. أي شيء هي هذه الحضارة هناك ؟ وعلى أي شيء

تأسست وعلا بناؤها ؟ ولماذا هى محتكرة لأبنائها أو تكاد ؟ ماسر تفوق هؤلاء وتراجعنا ؟ .. أين يكمن الفضل فيهم ، وأين يكمن فينا العيب ؟ .. هل نستطيع أن نلاحق هذه الحضارة .. ثم نهاشيها ، وكيف !؟

كان همه ، وقد فعل ، أن يرى الناس .. أن يرصد ويراقب ويفهم الآدمى .. أن لا تأخذه - بعيداً عن الناس - معالم الحضارة الغربية المتمثلة فى علمائها العاكفين على أبحاثهم ، أو أساتذة الجامعات المتعبدین فى محارب العلم ، ولا صورة المعامل والمصانع الشاهقة المتعالية ، ولا المتاحف والمعارض والمكتبات وطوفان ما تقذف به المطابع من مصنفات غطت كل جوانب المعرفة حتى أذیال فروع الفروع - لا يأخذه ذلك ولا تأخذه - بعيداً عن الناس - العماثر المتطاولة فى الفن والبنیان ، ولا الصواريخ العملاقة ، ولا الطائرات التى تجاوز أضعاف سرعة الصوت ... إلخ .. ما يعنى يحى حقى هو كيف كانت هذه الحضارة بالناس ؟ .. وكيف تنعكس آثارها على الناس .. عامة الناس ، وعلى مسلكهم فى الحياة .. على تصرفاتهم فى البيت والمكتب والطريق .

عين هذا العاشق لمصر لا تغادر هنا وهى تراقب وترصد وتحلل هناك .. وقفت معه ، مثلما وقفت مع نفسى ، إزاء ظواهر هنا وهناك لا ينبغى أن نمر عليها مرور الكرام .. لا تفارقنى بتاتاً مشاهداتى لعجائز جنيف ولوزان فى سويسرا ، نساء ورجالاً ، وهم يحرصون رغم السن والبرد ، على أن ييمموا فى موسم الزمهرير والثلوج ، شطر البحيرة الشهيرة ، ليقذفوا إلى البط والبجع والطيور التى تملأ صفحة الماء ، ما جمعه من قطع الخبز وغيرها . لم يكلفهم أحد ، ولم يستحثهم أحد ، وإنما أخرجهم إحساسهم بالانتهاء إلى بلدهم ..

حرصهم على جماله ، ورونقه ، وعلى حياة الأحياء الذين تتجمل وتزدهى
بهم البيئة . يدركون أنهم إن لم يلاحقوا هذه الطيور في هذا الموسم القاحل
الذى أجذبت وسقطت أغصان ووريقات أشجاره ، بما تقتات الطيور به ،
فإنها سوف تموت ، وأن موت الطيور هو موت لجانب مشرق وجميل للبيئة
والحياة في «الوطن» الذى يملأ صفحة وعيهم ووجدانهم ومشاعرهم .

من تراب الطريق

مصر التي في خاطري (*)

(٤٦١)

(٢)

من يتذكر - من جيلنا - كيف كانت الأفران في مصر بين يدي البلقاني
- يوناني أو يوغوسلافي - الذي نرح إلى مصر وأحبها وعاش واندمج بين
الناس فيها . كنا نرى صاحب المخبز ، فيما التقطته أيضا عدسة يحمي حقي ،
في معطف أبيض كأنه طبيب مقبل على جراحة .. أدواتها كلها معقمة ..
الصباح المرصوص عليه بانتظام أرغفة العيش المغطاة بشاش شفاف أبيض
كالفل ، والكعك داخل عيون صناديق من وراء ألواح زجاج لامع لا غبار
فيه أو عليه .. لا تشتري شيئا إلا ويلفه لك الخباز في ورق أبيض رقيق
(لا في مخلفات الجرائد الناصحة بالأخبار) ، لا تسمع في المكان ضجة ولا
لغطا ولا راديو مفتوحا على الآخر . من يتذكر هذا سوف يهوله كيف تبدلت
حال هذه الأفران ، مثلما تبدلت أحوال محلات ومطاعم عديدة في القاهرة
والإسكندرية ومدن - بل وقرى مصر - حين انتقلت إلى أيدينا ، فانقلبت
الأحوال .. وسبحان الله ، مع أن البلد بلدنا ، والخير خيرنا ، فإذا بالمعطف
الأبيض يتحول إلى جلباب قذر ، وبالأرغفة تلقى هنا وهناك بغير انتظام تحط
عليها أسراب الذباب ، والصناديق المخصصة للكعك والحلويات مكسرة
الزجاج مغبرة بالتراب . من لا يصدقني عليه أن ينتقل إلى أي محل يختار من
محلاتنا الكبرى في وسط المدينة بالقاهرة أو بالإسكندرية ، ليرى كيف أن
الجمال قد تحول بين أيدينا إلى قبح ودمامة !!؟

(*) المال ٢٢/٦/٢٠١٠ .

لماذا فقدنا إحساسنا بالدومين أو الملك العام ؟ لماذا سودنا صفحة النيل ، واستخدمناه مزبلة للصرف وتلقى جيف الحيوانات النافقة ، ومرتعاً لقضاء الحاجة ؟!.. لماذا انتهك حرمة الشوارع والطرق بالإشغالات وخرق أى نظام ؟!. لماذا يستخدم الفرد منا أى مرفق أو خدمة عامة وكأنه آخر من يستعملها ؟!

لماذا تحول الدخول إلى المراحض العامة إلى رحلة مخيفة من المعاناة يستحيل على الداخل فيها أن يخرج سليماً مما يتعرّض فيه من سوء استخدام وتبلد وقلة عناية من سبقوه ؟!.. لماذا يتحين كل منا أى فرصة تواتيه لاغتتيال الرقعة الزراعية واصطناع الحيل لإخفاء الجرم دون أن ندرك أن هذا الاغتيال «الشخصي» يتحول بالتراكم إلى اغتيال عام وتدمير وانتقاص لأسباب الحياة .. حياتنا ؟! ودون أن نلتفت إلى أن حالنا صار كحال القطعة التى تأكل بنيتها .. لماذا لم يعد يعنى الناس فى بلادنا أن الانفتاح العمرانى إلى خارج وادى النهر إلى الصحراء هو الأمان الحقيقى لى ولك ولنا جميعاً حتى لا نمسى فنجد الرقعة الزراعية قد تآكلت ولم يعد فى مكتبة مصر المحروسة أن تمد بنيتها - من باطن أرضها - بما يقتاتون به ؟!

لماذا نبدد ونلتف ممتلكاتنا العامة فى الحداثق والطرق ووسائل المواصلات دون أن ندرك أنها ملك كل واحد منا ؟! وأن الخسارة فيها خسارة لكل واحد منا ؟! ..

لماذا ابتسلمنا لللقبح ، ولم نعد نلتفت إليه ، بل صرنا نفرزه ونتذوقه ؟! .. لماذا لم نعد نحس بأن ما هو خارج باب سكننا هو أيضاً لنا ؟! لماذا صارت حدود المسكن هى آخر حدود الوطن لأحد الناس ؟! ..

لماذا لانحس بأن نظافة طرقاتنا ومرافقنا مردودة إلينا منعكسة على عيوننا وأحاسيسنا وأذواقنا؟! .. لماذا صارت عادة من عاداتنا أن نلقى بمخلفاتنا فى أى مكان يصادفنا ، حتى يثست الدولة نفسها وعادات فى بعض الأماكن- بل بوسط العاصمة- إلى رفع ما كانت قد وضعت أو بنته من أوعية ثابتة لتلقى المخلفات؟!

لماذا فارقنا الالتزام بالنظام ، وتتحين الفرص لمخالفته ، ولا نبالى .. لا نلتزم إلا بالخوف ، وخشية الجزاء؟! لماذا لا ندرك أن إشارات وعلامات المرور هى تنظيم ضرورى ينعكس على عموم الناس بها يجب معه أن يحترمه أفراد الناس دون حاجة إلى شرطى يخيفهم بالمخالفات؟! لماذا صار سلوك الأدمى هو أزممتنا الحقيقية فى كل عمل وكل صرح وكل مشروع؟!

لماذا أكوام «الزباله» تملأ نواصى شوارعنا وطرقاتنا وتترايد ، لا نحن نقلع عن مدها بالمزيد ، ولا الكناس أو جامع القمامة يعنى بإزالتها ، فإن فعل كل حين رفع بعضها على مضض وترك الباقي دون أى إحساس بهذا القبح؟! لماذا لانحس بأن الجيف- وغيرها!- التى نلقيها فى نيلنا مردودة إلى أجوافنا؟! لماذا لا تفلح- بل نتلف- أى خدمة عامة تخصص للناس؟! .. لماذا لانحس بأن عوادم السحابة السوداء مردودة فى النهاية إلينا ؟ .. إلى رئاتنا؟!

لماذا انغلق المصرى على نفسه وتمحور فى ذاته وأعطى ظهره للآخرين ولكل ما هو عام؟! .. لماذا فقدنا الإحساس بالانتماء الذى جعل منظورنا ضيقاً ضامراً بل ضريراً ، لا يرى أن مصر هى وطننا وأمننا وأرضنا ومعاشنا وحاضرنا ومستقبلنا؟!

إن التعديات على أى رقعة فيها هى تعديات على كل واحد منا ...
يبدو لى أن انسلاخ المصرى وانسلاته من الإحساس بالانتفاء ، قد صار
داءً مزمنًا يفسر لنا كثيرا من الأمراض والأسقام التى باتت تشوه صفحة
حياتنا .. أخطر ما بتنا نعانى منه لفقدان الانتفاء ، أن العنصر الآدمى والخامة
البشرية صارا المشكلة الحقيقية التى تهدد كل ما نبنيه أو نسعى لبنائه .. العنصر
البشرى بات هو العبء الحقيقى فى أى عمل أو مشروع بعد أن كان عنصر
العطاء والإبداع !!؟



من تراب الطريق

مصر التي في خاطري^(١)
(٣)

(٤٦٢)

ضمور الإحساس بالانتماء، هو السبب الجذري في كثير من أمراضنا.. وهو السبب في خفوت وخبو الخامة البشرية وما يعترها أحيانا من اللا مسئولية أو اللا عناية أو الاستهتار والبلادة والتكاسل وانعدام أو نقص الضمير . الإحساس بالانتماء للوطن هو الأكسير والمحرك والقوة الدافقة للولاء للوطن ولناسه ، وللإحساس بهمومه ، وقضاياه العامة ، والالتحام فيه بحيث تغدو آمال الوطن وطموحاته وأهدافه وغاياته ، هي هي آمال الفرد وطموحاته وأهدافه وغاياته .

لو كان هذا هو إحساس الموظف أو المستخدم العام أو المكلف بخدمة عامة ، لأدرك أنه وضع بمكانه ليكون في خدمة الناس لافوق الناس؟! .. لعرف أنه حماقة وضعف داخلي أن يفهم الخدمة على أنها محض سلطة تتبلور عنده لتكون «شوكة» لا يحس لذاته قيمة إلا بوطء الناس بشوكة هذه السلطة التي لا يتصور لنفسه قيمة بدونها ، وقد تمضى بصاحب الموقع سنوات ربما طالت قبل أن ينضج ويحصل من أسباب المكانة الموضوعية ما يجعله ينتبه إلى أن قيمته فيه .. في علمه وثقافته وخلقه ونباهته وفطنته وتقديره ، ولاستغنى بهذه المعاني وبهذا الفهم عن الاهتمام المريض بأوهام السلطة واستعراض الشوكة ، ولأدرك أن انتماءه العميق الواعي للوطن ، هو بوصلته الحقيقية التي تضمن له سلامة وصفاء وسداد الرؤية ، وثراء وإيجابية العطاء .

(*) المال ٢٣/٦/٢٠١٠ .

إلام يرجع هذا الضمور في الإحساس بالانتماء العام ؟؟ .. هل الخفوت
الالتفات إلى حب الوطن ؟! .. حب الوطن لا يخفت ، ولكن قد يخفت
الشعور به أو الالتفات إليه ؟! .. ذلك لا يحدث فى لحظة من زمان ،
ولا ينحصر ومحال أن ينحصر فى سبب واحد .. هذا الخفوت هو حصاد
تراكمات متنوعة وعلى مدار زمن !!.

كنا نغزو إلى الاحتلال الإنجليزي ، ومن قبله الفرنسي ، الموقف النفسى
المعادى الذى قد يفرز فى اللا وعى خفوت الإحساس بالانتماء ، ويخلط
لدى العامة الملك الوطنى العام بأداة وجهة ووجه الحكم والاحتلال
الأجنبى البغيض . قد يكون للبسطاء والعامة العذر فى هذا الخلط اللا
واعى ، بل لقد قادت هذه المشاعر المختلطة إلى نسف وتدمير الممتلكات
المصرية من محطات ومرافق وسكك حديدية ... إلخ فى ثورة ١٩١٩ ..
وجدت أعمال هذا التدمير مبررها فى أنها بصورة أو بأخرى إعاقة للمستعمر
المحتل ، تُطلب لذاتها حتى وإن دفعت الثمن من أموالنا ودومينا العام الذى
ندمره أو نتلفه ، ولكن ما بالناس وقد تزامن رحيل المستعمر الأجنبى مع تمصير
الاقتصاد الوطنى منذ منتصف القرن الماضى ، لا تزال نقع فى هذا الخلط ،
ونبقى فى وهدة هذا الإحساس الضامر الضريع بوهن الانتماء .. بل لماذا
استسلم المصرى لهذا الضمور ولم يقاومه !!؟

قد يفلسف اللا وعى ، الضمور الحالى للإحساس بالانتماء بأسباب
ومبررات وتعلات ، وقد يكون بعضها أو معظمها صحيحًا ، بيد أن هذه
الأسباب أيا كان مقدار نصيبها من الصحة لا تجيز أن ينحل الضيق بها أو
منها إلى تفكيك وخفوت شعلة الانتماء للوطن فى الوجدان المصرى ... بل

لعل الأقرب إلى تداعيات النفس أن يكون ذلك شاحداً إلى تعميق الانتماء لتجاوز السلبات التي منها نعانى .

ليس هذا كلاماً في السياسة ، فلم تشغلنى السياسة ومآربها قط ، وإنما هو انشغال بالوطن وبمصر التي في خاطرى وفي خاطرك ، وغوص إلى الأعماق في التعرف على همومها ومتاعبها .. أيامنا كنا ندرس التربية الوطنية لا الحزبية ولا السياسية ولا الطائفية ولا الفتوية .. التربية المعنية بالوطن وحب الوطن وقضايا الوطن لا سواء .. لم نكن ندخل إلى الفصول الدراسية إلا بعد أن نصطف في طابور الصباح ونحى العلم في جلال واحترام ونهتف من القلب «تحيا مصر» .. لقد دهمتنا أشياء وملمت واختناقات كثيرة لفتتنا عن هذا الجانب «المعنوى» الضروري الهام في تربية وبناء الشخصية .. عن إنبات وغلغلة وتعميق حب الوطن وصدق وفاعلية الانتماء له في صفحة وعينا !!

انسلات المصرى وتمحوره وانكفاؤه على ذاته ، وتنامى ظاهرة الأغلبية الصامتة ، مرض حقيقى يحتاج إلى تشخيص جاد وإلى دواء أكثر جدية وصدقا والتزاما .. لا عذر لنا في ضمور انتباهنا ، ولا عذر لنا في القعود أو التكاسل أو الالتفات عن استقصاء أسباب الخلل ، ولا في القعود أو التكاسل عن تجميل حياتنا .. هذا لا يحتاج إلى إنفاق ولا أموال ولا ميزات ، وإنما يحتاج إلى الجد الذى كان ، ويحتاج إلى عزم ونظام ، وإلى انتماء عميق يشعر به المصرى .. كل مصرى ، أنه بضعة من مصر ، همه أن يذوب ولاءها .. أن يكون الواحد للكل .. وأن يتحول إلى قوة فاعلة معطاءة لصناعة العمار والحياة والجمال في ربوعها !

من تراب الطريق

(٤٦٣)

الفراسة (٥) علم أم فن أم خرافة؟!

تجرى كلمة الفراسة بفتح الفاء ، وصحتها بكسر الفاء ، على كثير من الألسنة ، فيوصف الأريب الذكى بأنه صاحب فراسة ، وفي المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية أن «الفراسة» بكسر الفاء ، هى إدراك باطن الأمر بالظن الصائب . ويقال إن فلان «فارس» بالأمر . أى صار ذا رأى وعلم بالأمر . فهو فارس بالأمر : أى عالم بصير .

وتفَرَسَ يقال بمعنى التظاهر بالفروسية ، أى الادعاء بها وهو ليس بفارس . وبالنسبة للشئ : نَظَرَ وتَثَبَّتَ ويقال : تَقَرَّسَ فيه الخير : أى رأى فيه مخايل الخير . ويقال : «الأفرس» أى : أفرس بالأمر : أى : أَبْصَرَ وعَرَفَ . ويطلق لفظ الفارس أيضًا على «الحاذق» فى ممارسة الأشياء . و«الفراسة» بكسر الفاء : المهارة فى تعرف بواطن الأمور من ظواهرها . وفى الحديث : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» . والرأى المبني على التَّفَرُّس ، يقال : فَرَّاسَتِي فى فلان الصلاح .

والفراسة عند العرب القدماء ، علم من العلوم الطبيعية تُعرف به أخلاق الناس الباطنة من النظر إلى أحوالهم الظاهرة كالألوان والأشكال والأعضاء ، او هى الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن .. وفى قاموس المورد أن كلمة « Physiognomy » تعنى بالإنجليزية : «علم الفراسة» .. وتشير إلى ملامح الوجه أو أساريه باعتبارها دليلا على المزاج والخلق ، بمعنى أن

(*) المال ٢٨/٦/٢٠١٠ .

للمظهر الخارجى صفة باطنية متجلية خارجيا وتكشف عن هذا الباطن . وفى قاموس أكسفورد أن الكلمة تشير فى الإنجليزية إلى قسّمات الوجه أو ملامحه كدليل على الشخصية . ونفهم من المعاجم العربية والإنجليزية أن «الفراسة» قديمة ومتداولة فى الشرق والغرب ، ويقال إن هوميروس كتب شيئا منها فى علم الكف ، ولكنها لم تدون وتعتبر علما مستقلا لدى الإغريق قبل ما كتبه أرسطو عنها فى القرن الرابع قبل الميلاد ، فذكر فى الإنسان علامات الملامح والألوان وأشكال الشعر والأعضاء والقامة والصوت ، استدل منها على صفاته من ذكاء أو غباوة أو حذق أو بلادة .

وألّف الراحل جورجى زيدان ، مؤسس دار الهلال ، وصاحب المؤلفات الكثيرة المتنوعة فى العربية - ألّف كتابا عن الفراسة ، ذكر فيه أن العرب كانوا فى الجاهلية يعتقدون أشياء تعد من قبيل الفراسة «كالقيافة» التى تستدل ببشّرات الناس وجلودهم وهيئات أعضائهم وأقدامهم - على أنسابهم ، و«الريافة» وهى معرفة حال الماء فى باطن الأرض بشم رائحة ترابها ، و«العيافة» وهى تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر والاستدلال منها على شكل ووزن وحال صاحبها وما قد يحمله ، و«الاختلاج» وهو الاستدلال على ما سيقع للإنسان من اختلاج أعضائه .

وتعددت الكتابات فى الفراسة بعد الإسلام ، سواء ضمن كتب الطب والحكمة كالرازى وابن سينا وابن رشد وابن العربى ، أم فى كتب مستقلة كالسياسة فى علم الفراسة لشمس الدين محمد بن أبى طالب الأنصارى المتوفى ٧٣٧ هـ ، وطبع فى مصر سنة ١٨٨٢ م ، أو مخطوطة «البهجة الأنسية فى الفراسة الإنسانية» لزين العابدين محمد العمرى المرصفى ، و«مختصر علم

الفراسة لأجل السياسة» ، ورسالة «في الفراسة والرمل» ، وأخرى في «علم
الفراسة لأجل السياسة» . فضلا عن إشارات في العقد الفريد لابن عبد ربه
وحياة الحيوان للجاحظ وكشف الظنون لحاجي خليفة .

وانتشرت الفراسة في العصور المظلمة ، ودخلت فيها خطوط الكف
والجبن للاستدلال على المستقبل ، واختلطت بالنجامة والسحر ، فصارت
من الخرافات . ثم عادت الفراسة فلبست ثوبا جديداً مع فجر التمدن
الحديث ، وظهر في عام ١٧٧٨ كتاب للعالم الباحث الألماني الشهير جون
كسبار لافاتر ، وبني بحوثه على الفيسيولوجيا والتشريح ونواميس الأخلاق ،
ولم يكذب يظهر حتى ترجم إلى كثير من لغات العالم ، ومع ذلك فإنه لا يخلو من
كثير من المغالطات والأوهام ، استدركها بعده باحثون منهم صموئيل ولس
في كتابه المنشور بنيويورك سنة ١٨٨٦ في نحو ٨٠٠ صفحة وألف رسم .

وقد قرأت كتاب جورجى زيدان الذى قسمه إلى سبعة فصول ، ليبحت
بعد المقدمات : هل الفراسة علم صحيح ، وهل تصدق دائما ، أم أنها قريحة
خاصة ، وما حكم ووزن فراسة الأعضاء بأنواعها ، وفراسة الأيدي والأقدام ،
وفراسة الخطوط والأخلاق ، ثم فراسة المشى والإشارات والأزياء ، وهل
توجد فراسة للأمم تصنف الشعوب طبقا لاستدلالات مقبولة ، وما هى
خلاصة أهم علوم الفراسة ، وهو علم الفرينولوجيا ، أى : فراسة الرأس ، وهل
صحيح أنه توجد فى أشكال الرؤوس وصفاتها ما يدل على أخلاق الناس
وقواهم ؟ وما هى فراسة المهن والصناعات ، وما يمكن الاستدلال به فى
أحوال رجال السياسة والمصورين والشعراء والموسيقين والفلاسفة ورجال
الدين والمخترعين والمكتشفين والمصارعين والجراحين والخطباء والمحامين .

وعلى عراضة الجهود التى بذلت فى دراسة الفراسة والتعريف بها ، فى كتب القدماء والمحدثين ، ومنهم كتاب جورجى زيدان : «علم الفراسة الحديث» ، وكتاب الدكتور إحسان حقى : «علم الفراسة» (أسرار الخلقة وإبداعها) إلا أن النظريات الحديثة جعلت تدلّ بكثير من التحفظات على ما شاع بشأن الفراسة وترى أن السمة المحددة للشخصية ، لا تنحصر فى منطقة واحدة بعينها فى الدماغ مثلا . فالأجزاء المختلفة من الدماغ لها وظائف مختلفة ، لكن الأجزاء تتفاعل بطريقة أكثر تعقيدًا مما أدركه ممارسو فراسة الدماغ . ومع ذلك فإن هذه الاعتراضات تقر بأن فراسة الدماغ هى التى مهدت الطريق للدراسة العلمية للشخصية ، وبالتالى إلى علم النفس الحديث .

ظنى أن الذى لا يقع عليه خلاف ، أن الفراسة قريحة خاصة ، أو هى ملكة طبيعية يمتاز بها أناس دون آخرين ، وهناك من شهدت لهم الممارسة بفراسة غير منكورة ، مع أنهم ليسوا أصحاب علم ، وهناك أصحاب علم لا ملكة ولا فراسة لديهم ، لأن الفراسة فى النهاية ملكة وفن ، وهى حصاد ملاحظة وذكاء وخاطر وبديهة ، وهى ملكات تتفاوت من شخص لآخر ، وشاع أن محمد على باشا وعلى بك الكبير والأمير بشير - كانوا أصحاب فراسة بلا علم ، وهناك من أنفقوا حياتهم فى دراسة علم الفراسة ، وأمعنوا فى فروعها ما بين فراسة الرأس وفراسة الوجه وفراسة الكف وفراسة المشى وفراسة الخط وغيرها من فروع الفراسة ، ومع ذلك لم يُعرف عنهم أو يُشهد لهم بأنهم كانوا أصحاب فراسة فى التعرف على صفات الناس والاستدلال من ظواهرهم على بواطنهم .

نعم . لا تصدق الفراسة دائما ، ولكن الذى لا مرء فيه أن هناك أصحاب فراسة مشهودة وغير منكورة . ولعل الأصوب أن الفراسة علم لا تتأتى مزاويلته إلا بملكة الفن ، وهو براعة الاستدلال من واقع الملاحظة المتأملّة التى لا تقف عند مظهر أو دليل واحد ، وإنما توفق بين الأمارات المتعددة لتستخلص الاستنتاج الصحيح الصائب . وفى القرآن المجيد : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّعِينَ ﴾ [الحجر] .. والمتوسم هو من يستطيع التوسم والتخيل والتفرس ، وورد فى القرآن فى التعريف بالمؤمنين : ﴿ سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وفى الحديث : « اتقوا فراسة المؤمن » .. وكان الإمام على بن أبى طالب يقول : « ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه » .. ومن الحكم الماثورة : « عين المرء عنوان قلبه » .

من تراب الطريق

فقدان الصدق والميل المرضى^(*)

(٤٦٤)

إلى الاشتغال بالأغراض الضخمة

بداهة لا اعتراض لى - ولا يمكن أن يكون لى اعتراض - على الاشتغال بالأغراض الضخمة والإصلاحات الكلية ، فذلك هدف كبير وغاية محمودة إذا ما صدرت من القادرين عليها المنصرفين بصدق وعزم وإخلاص إلى القيام بمهامها وموجباتها ولوازمها وعناصرها ومكوناتها وأركانها ، المستعدين للسعى إلى تحقيقها فى بذل وعطاء وجد واجتهاد ومضاء !

ولكنى أتحدث على هامش ما أثاره أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد فى كتابه الذى لا يُشبع منه : «معالم التقريب» . فحين يخرج الاشتغال بالأغراض الضخمة والإصلاحات الكلية عن هذه الأغراض والغايات والعزوم والمقاصد والقدرات ، يكون محض ظاهرة مرضية استعراضية تعكس فقدان الصدق والرجاء وضمور الإرادة والهرب من ملاقة الواقع ومعاناته .

أليس غريبا أن يخفق العجزة وأشباه العجزة ، عن أداء المهام الصغيرة والقيام بأعبائها الجزئية أو البسيطة ، ثم تراهم يتمنطقون ويتقدمون الصفوف ويتسابقون إلى صفحات الإعلام المرئى والمسموع والمقروء ليبشروا الناس بأنهم قد نذروا أنفسهم وحيواتهم وجهودهم لأغراض ضخمة وإصلاحات كلية كبرى لا يكادون يفقهون فيها شيئا . وهذه الميول المرضية المظهرية تدفع إلى الذهن أسباب إعراض أمثال هؤلاء عن الممكن المقدور عليه المتناسب مع قدراتهم المحدودة ، والإقبال - شكلا لا مخبرا - على التماس الضخم الشامل

(*) المال ٢٠١٠/٦/٣٠ .

الكلى !! من المحال أن يجرى ذلك إلا إذا كان أصحاب هذا التظاهر قد فقدوا الرجاء والثقة في استطاعتهم أن ينجزوا شيئاً ذا قيمة ، فصاروا يتظاهرون ويستعرضون اللياذ بالأمانى الكبرى التى لا يستطيع النهوض بها إلا ذور العزائم الماضية والقدرات المتميزة والإمكانات الحقيقية المشهود لها وبها .

من المؤسف أن هذه الآفة تفسدت وانتشرت ، وصرنا نرى العاجزين عن القيام بمسئولياتهم ومهام عملهم الشخصية ، ينبرون لتقدم الصفوف تحت شعار أن كلا منهم «طبيب الملايين» .. بيده مبضع سحرى يستطيع أن يزيل به كل أمراض وأسقام وآلام البشر !

ومن المؤسف أيضاً أن تفتقر هذه الآفة المرضية التى تعكس أمراض المظهرية والفراغ والتفاهة والادعاء الكاذب ، بظاهرة مرضية أخرى هى التعلق - بلا فهم ! بالماضى والماضين ، والقفود عن دراسة واقع الحاضر واستشراف احتمالات المستقبل . نعم للماضى قيمة تتمثل فى دراسته والإحاطة بعبيره واتخاذ قوة ، ولكن لتقدير خطوات الحاضر نحو مستقبل أكثر إشراقاً .

ومن التصورات التى شاعت من قديم ، أن أمس كان أفضل حالاً من اليوم ، وأنه طبقاً لهذه الوتيرة سيكون غداً أسوأ من اليوم ، وأنه كلما مضى بنا الزمن ابتعدنا عن حظوظنا من الهداية والاستنارة والاستقامة ، يبعدنا عن الإشرقة العظيمة التى أتى بها القرآن المجيد ، وأنه لذلك فإن كل جيل يأتى يكون أقل خيراً من الجيل السابق عليه ، وأنه مع دوران الزمن وتعاقب الأجيال وتراكم التدهور ، يفقد الحاضر ما كان طيباً فى الماضى لدى السلف الصالح .

وهذا التصور المتشائم ليس رأى الإسلام ذاته ، وإنما أتاناً ذلك من تقديسنا لكل ماهو ماضي ، ومن اعتزازنا وفخرنا بالأباء والأسلاف .. وحين يطول العهد بهذا الإعزاز ويمارجه الشعور بهزيمة الخير والمحبة والحق ، واليأس من إمكان مقاومة الشر والأشرار ، يزداد النزوع بالقلوب وبالخيال إلى الماضي لتلمس العزاء فيه عما بالحاضر من بعد عن الخير والصلاح والفضيلة والحق .. ويقبض الناس على هذا الماضي بعنادٍ وتعصب وإصرار، حين لا ينجح الحاضر في اكتساب ثقتهم ، أو حين ينفرهم هذا الحاضر ويزعجهم .

على أن إكبار عصر النبوة وأجداد الإسلام وأئمة وأعلامه، وهو طبيعي ومعقول بل ومطلوب ، لا يقتضى هذه النظرة المتشائمة المورغلة في التشاؤم واليأس من الحاضر، فالتطور والترقى من حال إلى حال سُنّة من سنن الحياة ، وليس في هذا التطور جحود ولا نكران للماضى وأجداده ، والإسلام نفسه يرى في المسلم ذريته ، ويرقب في حاضره مستقبله ومستقبلهم في ظل ممدود من الرجاء والثقة في الله .

ونحن بداهة لا نستطيع تجاهل الحكم على عصرنا وعالمنا ما دما نعيش فيهما ، على أن الخطأ والصواب في التقدير مردهما بداهة إلى الصدق والاعتدال ، ومن الأسف أن عالمنا لم يعد يحب الصدق ويحس بقيمته ، وراج الاستغناء عنه وشاع إمكان العيش بدونه ، ساعد على ذلك أن بالعالم قوى هائلة تعمل ضد الصدق عن قصد وعمد ، وتحاربه حرباً مستورة بمهارة وكفاية ، وتزهّد فيه الناس بكل حيلة ، وصار هناك من يسخرون من الصدق ، ويجرّثون الناس على ازدرائه وامتهانه ، لأن هذه القوى لا تريد حدوداً ، تصادر على أغراضها أو أطماعها ، ذلك أن شيوع التعلق بالصدق يؤدي

إلى الإخلاص للحق ، وهذا الإخلاص يؤدي بدوره إلى الشجاعة واحترام النفس ، وهذه المثاليات تغلق مسالك لا يجب سالكوها أن تغلق أو أن تضيق منافذها عليهم !

ولا تنى هذه القوى الهائلة التى يلقها الصدق ، تبحث عن بدائل يستعوض بها الناس عن الصدق والتعلق به ، وهذه الصناعة للبدائل لا تفتقر ، لأن البدائل قصيرة العمر سريعة التحلل ، ويبدو أن الآدمى الذى تخلو حياته - مددا طويلة - من الصدق ، يصيبه نوع من ضمور الوجدان والعقل والشخصية ، وخواء يشبه الكساح النفسى .

والإنسان يفقد التعلق بالصدق حين يكف عن اعتباره قيمة مطلقة تعلو على نفسه وعلى مصالحه ومنافعه ، فحين نرهن الصدق بالنفع أو المصلحة ، نكون قد أفقدناه قيمته وألغيناه . ونحن نفقد الصدق حين ننسى أنه لا يعيش إلا إذا كان سقفا واحداً للمشيمة البشر ، تقف عنده أهواؤهم وأغراضهم وأطماعهم ، بحسبان أنه أداة القياس النهائية التى تقاس بها وترتد إليها كل القيم !



لا يوجد إنسان إلا ولديه خريطة أو حصر أو قائمة بواجباته العامة والخاصة أو الشخصية ، وربما بجدول داخلي لأولوية هذه الواجبات وأفضلياتها وأكثرها لزوماً أو أرخاها ترتيباً ، وما يتعين التعجيل به منها وما يقبل الإرجاء لأمد قصير أو طويل . ولكن هل هذه التضاريس كلها اختيارات وتحديدات آدمية مصدرها فقط ما يقدره الشخص ويريده ويحدده ، أم أن تضاريس هذه الواجبات ليست عملاً بشرياً صرفاً ، وأن منها ما ينبع عن مصادر علوية أو دينية ، أو عن اعتبارات ودواع اجتماعية .. فالذى لا خلاف عليه أن قدرة البشر على تغيير خريطة الحقوق ومن ثم الواجبات ليست مطلقة ، بل لها حد إلهي يجب أن تقف عنده ، يصدق هذا على الجماعات مثلما يصدق على الأفراد .. بيد أن هذا ليس موضع اتفاق بين جميع الناس أو في كل الأماكن أو الأزمان والعصور .. ولكن الذى لا خلاف عليه أيضاً أن اجتهد أهل كل زمان أو عصر ، أو فئة أو مكان ، واختلافهم المفترض والحاصل في التفاصيل ، لا ينفى أن هذا الحد بمعناه العام قائم وموجود بصورة أو بأخرى في كل زمان ومكان وظرف - كحقيقة كلية مستمرة بها تبقى حياة البشر - بصورة عامة موضوعية - داخل إطار من العدل والخير والحق في تيار الزمن الذى هو في حركة وصيرورة دائمة .

وهذا المبدأ لم يعد له قبول بل رفضته أوروبا فكرياً في تحولها التدريجي من منتصف القرن التاسع عشر إلى العلمانية أو اللا دينية والإنكار المتطرف للدين . على أن الملاحظ أن خفوت سنطات الدين في أوروبا بعد أن ساد فيها في العصر الوسيط بغير منازع ، قد تزامن مع ازدياد الثراء الذي أدت إليه قفزات التجارة الخارجية بعد الحرب الصليبية الأولى ، واتساع نفوذ المدن البحرية الإيطالية ، ونشاط أساطيلها وانتشار مراكز المال والأعمال التي أطلقت مع هذه التغيرات أشواق الناس للمكاسب والأموال ، والترف والكماليات ، وطفق ذلك يزداد مع الكشف الجغرافية والانتشار إلى ثروات العالم الجديد .

تزامن مع هذه المتغيرات ، شيوخ الترف ، والاندفاع في الإقبال على الاقتناء ، والاستمتاع بالملذات ، وعشق المغامرات ، والجرأة على كل شيء حتى انطبع في ذهن ذوى اليسار - أى: الثروة - أنهم يمتلكون كل شيء ، ويستغنون بما يمتلكونه عن كل شيء ، وفشا الإعجاب بالذات ، وبات السؤال المطروح بشدة : هل هناك تلازم بين الغنى والثروة وبين ضعف التدين .

بعبارة أخرى ، هل تتداخل الثروة في تضاريس خريطة الحقوق والواجبات . لا جدال أن نوعية وجداول أولويات الحقوق والواجبات تتأثر بالضرورة بأوضاع الغنى واليسار ، والفقر والحاجة .. فما يتطلع إليه الغنى ويرتاح إليه ويطلبه ويسعى إليه ، يختلف بالضرورة نوعاً وكيفاً وكماً عما يتمناه الفقير والمحتاج ويرجوه .. فارق كبير بين الحاجة وبين الاستغناء ، والحاجة والاستغناء كلاهما نسبي ، في الكم والنوع والكيف . وربما هذا هو الذى

أثار ويشير شبهة أثر الاستغناء الناجم عن الغنى في صفحة وجدان أصحاب الثروات ، يكرس هذه الشبهة ما قد يجلبه الشراء من ثقة قد تصل إلى حد الغرور في قدرة الإمكانيات على تجاوز كل شيء ، وعلى تحقيق كل ما يصبو إليه صاحب الثروة .

قد يكون هذا وارداً في الماديات التي يكون الحصول عليها رهيناً بها في قبضة الأغنياء من أموال ، وقد تتسع صورة هذه الماديات ونواها حتى تكاد تستغرق معظم صفحة الصورة ، ومع ذلك يعرف الأغنياء قبل الفقراء أن هناك من المطالب والأمانى والحاجات ما يستعصى الحصول عليه بالأموال مهما كثرت .

المواهب والمليكات ليست ولا يمكن أن تكون حصاد ثروة ، وكذلك الصحة والأمان النفسى ، وعقلاء الأغنياء يدركون هذه الحقيقة حتى وهم يسعون للخروج من ربقتها ، ولذلك لا يمكن التسليم بقالة مطلقة إن الثروة والتدين نقيضان لا يجتمعان . فهناك أغنياء لم يلفتهم ثراؤهم عن الإيمان بالله وتصاريه ما يقدره ، ولا عن خريطة واجباتهم التي يسخرّون فيها ثرواتهم لإعطاء الجانب الإنسانى حقه من الرعاية والكفالة .

وأمثال هؤلاء احتفظوا لذلك بالتوازن في تضاريس خريطة حقوقهم وواجباتهم . بينما هناك فقر قد يورث الكفر أحياناً ، حتى قيل في بعض الأمثال الدارجة إن الجوع كافر ؛ لأنه مع الحاجة الشديدة ووقعه المر الموجه الممض - يذهب بأمان النفس أشتاتاً ، ويورثها شططاً قد يؤدي بها إلى الكفر أو ما يشبه الكفر ، ويؤثر بالضرورة على تضاريس خريطة الحقوق والواجبات .

ربما يبدو من ذلك حقيقة أن تضاريس هذه الخريطة ليست في كل الأحوال صناعة بشرية . نعم تتدخل فيها إرادة وسلوك وأفعال وأعمال وخطط ومساعي البشر ، ولكن لها حدودًا لا يملكها البشر ومن المحال أن يمتلكوها . وهذه الحدود اللا بشرية هي التي تظامن من غلواء ملاك الثروة والممسكين بمقاليد السلطة والقوة ، وتدعو العقلاء إلى التخفيف من غرور ما يمتلكونه أو يقدررون أو يتصورون أنهم يقدررون عليه ، وتكفل لدى المجتمعات السوية جسورًا واجبة تخفف من ويلات الفقر وتوازن الحياة لتستقيم بلا فتن تعصف بالأخضر واليابس .

ليس من اليسير ، مع سطوة وارتفاع شأن المال ، تجاهل تأثيره على جدول القيم ، فالمال صار على رأس القيم فعلًا وواقعًا ، وأخذ المال يحتل معظم تفكير وأنشطة الناس ، ولوحظ تأثيره على هبوط الخامة البشرية ، وهذه الخامة الإنسانية هي قبلة الأديان ، لذلك لم يتوقف الصراع قط بين الأديان وبين المال على نفوس الناس وأرواحهم ، وأطل تساؤل يقول : هل يمكن أن تصبح الأشياء المادية أغلى وأثمن من الأدمى ذاته في مجتمعات الثروة . إن اتصال الأديان بالمال اتصال انتفاع واستخدام - أمر حتمى تفرضه ضرورات كثيرة ، رأينا هذا ونراه في مظاهر الفخامة التي تسللت إلى دور العبادة ذاتها ، وحتى صار بذل المال من أجل القربات الدينية عادة تلازم التعبير عن التدين ، بينما لم يعد متاحًا رد أهل الأديان إلى بساطة الحياة الأولى التي كان عليها الأوائل . وها هنا أكبر التحديات التي تواجه هذا العصر الذى صار نهبًا لانقسام لا يلتفت إلى أن واحة الرب تبارك وتعالى لا تفرق بين غنى وفقير ، أو بين قصر وكوخ ، وأن الجميع آتية يوم القيامة فردًا !

من
تراب
الطريق

(٤٦٦)

أبو حيان التوحيدى^(*)
والصدقة والصديق

عانى أبو حيان التوحيدى : أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء .. عانى كثيراً من جفوة الناس وجحود الأصدقاء ، حتى قال واصفاً حاله : «لقد أسميت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، متحملاً للأذى ، ينس من جميع من أرى ، متوقعاً لما لا بد من حلوله ، فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول ، وظل التلبث إلى ذهاب !!!» .

وصف الدنيا فقال إنها : «الدار التى امتلأت بالذئاب» ! ووصف ما خرج به من صحبة الناس فقال : «لقد صحبت الناس أربعين سنة ، فما رأيتهم غفروا لى ذنباً ، ولا ستروا لى عيباً ، ولا حفظوا لى غيباً ، ولا أقالوا لى عشرة ، ولا رحموا لى عبثاً ، ولا قبلوا لى معذرة ، ولا فكّونى من أسر ، ولا جبروا لى من كسر ، ولا بذلوا لى من نصر» .

لذلك كان لافتاً شدى وأثار فضولى ، أن يكتب التوحيدى كتاباً عن الصدقة والصديق ، فماذا عساه يكتب فيه وهو لم يذق من الأصدقاء إلا كل مرارة : لقد اشتهر من أقواله فى الناس أنهم «سباع ضارية ، وكلاب عاوية . وعقارب لساعة ، وأفاع (جمع أفعى) نهاشة» .. وقوله عن الصدقة : «إنها للأسف مشوبة من الأزل بالحسد ، مكدره بالحقد مهددة دائماً بالخيانة» .

(*) المال ٧/٧ / ٢٠١٠ .

نزول الدهشة مما كتبه التوحيدى عن الصداقة والصدق ، حين نلم بالجانب الإنسانى فى فلسفته ، وتقديمه مشكلة الإنسان على كل ما عداها ، فقال فى كتابه : «الإشارات الإلهية» : «زعمت الحكماء على ما أوجبه آراؤها ودياناتها أن من الوحي القديم النازل من الله قوله للإنسان : اعرف نفسك ، فإن عرفت ما عرفت الأشياء كلها . وهذا قول لا شىء أقصر منه لفظاً ، ولا أطول منه فائدة ومعنى . وأول ما يلوح منه : الزاوية على من جهل نفسه ولم يعرفها . وأخلق به إذا جهلها أن يكون لما سواها أجهل ، وعن المعرفة به أبعد» .. وهذا النص يدل بوضوح كما قال الأستاذ الدكتور الراحل زكريا إبراهيم فى كتابه عن التوحيدى (أعلام العرب ٣٥) - يدل على أن أبا حيان قد وجد فى «معرفة النفس» أسماً ضرب من ضروب المعرفة ، ثم هو قد أتبع ذلك بسلسلة متلاحقة متواصلة من التساؤلات : «ما النفس ؟ وما كمالها ؟ وما الذى استفادت فى هذا المكان ؟ وبأى شىء باينت الروح ؟ وما الروح ؟ وما صفتها ، وما منفعتها ؟ .. وما الإنسان ؟ وما حده ؟ وهل الحد هو الحقيقة ، أم بينهما بون ؟ .. وما العقل ؟ وما أنحاؤه ، وما صنيعه ؟ .. وما الفرق بين الأنفس» .. ثم هو لم يقتصر على هذه التساؤلات ، وإنما اهتم بالجانب النفسانى والأخلاقى للإشكال البشرى .

ونعرف قيمة ما كتبه التوحيدى عن الصداقة والصدق ، وبرغم رؤيته التساؤمية ، حين نلم بأنه على مدى أكثر من قرن من الزمان (١٤٠٣/١٤١٤ هـ) ، احتك وعاشر طوائف مختلفة من الناس ، وطرق العديد من المجتمعات المتباينة ، واكتسب على مدار عمره الذى امتد مائة وأربعة أعوام - اكتسب خبرة واسعة بأمور ونفوس الناس ، فامتلات كتبه ورسالاته بملاحظات

سيكولوجية دقيقة ، ونظرات أخلاقية عميقة ، وجاءت كتاباته دليلا على عمق فهمه للطبيعة البشرية ومقدرته على النفاذ إلى أعماق النفس الإنسانية ؟ أما عن نظرتة التشاؤمية ، فواقع لا بد لقارئ التوحيدى من وضعه فى اعتباره ، وكانت هذه النظرة حصاد ما مر به من أزمات ، وعاناه من صعاب وشظف وجفوة وجحود وهجران حتى أحرق كتبه سنة ٤٠٠ م ، وكان يمكن أن تضع نهائيا لولا المخطوطات المتفرقة التى كانت عند هواة الاقتناء فحفظت هذا التراث الهائل النفيس الذى يعبر عن قيمة التوحيدى ومنزلته الرفيعة فى الأدب والفكر العربى . آية منزلته ، أن مجلة «فصول» أرفع ما قدمته وتقدمه وزارة الثقافة من دراسات نقدية متميزة ، قد أفردت ثلاثة أعداد كاملة (العددان ٣ ، ٤ من المجلد ١٤ ، والعدد ١ من المجلد ١٥) لدراسة وتناول حياة وإنتاج أبى حيان التوحيدى ، وجرى ذلك على خلاف سُنَّة المجلة ، مع أن التوحيدى قد غادر الدنيا من ألف عام دون أن يترك بطانة أو شيعة تروج له .

أعود إلى رسالة التوحيدى : «الصدقة والصديق» .. وفيها جمع معظم ما كتب عن الصدقة والصديق شعراً ونثراً ، ولم يقتصر على العرب فى الجاهلية والإسلام فحسب ، بل امتد استقصاؤه إلى اليونان والفرس وغيرهم ، ويورد الأستاذ الدكتور زكريا إبراهيم فى كتابه الضافى الذى كان رسالة حب وتقدير للتوحيدى ، أنه كتب هذا المؤلف فى مرحلة متأخرة من حياته ، ولذلك غزرت مادته وتشعبت ، وكثرت فيه النظرات العميقة النافذة ، ولا تنحصر قيمته فى ذلك فحسب ولا فقط فيما احتواه من حكم عربية وأجنبية فى الصدقة والعشرة والمواخاة والوفاق ، وفى الخلاف والغدر والخيانة ، وإنما

طويت أيضا على تفرقات لفظية بالغة الدقة بين بعض التعبيرات المتشابهة التي شاع استعمالها كمرادفات، فضلا عما جاء بالكتاب من إنكار لمفهوم «الصدقة» بالمعنى الأرسطاطالى لهذه الكلمة .

تنعكس نظرة التوحيدى الشاؤمية حين تراه يبدأ رسالته بقوله : «وقبل كل شيء ينبغى أن تثق بأنه لا صديق ولا من يشبه الصديق» ..

أما مادة الرسالة فهي غزيرة عريضة متنوعة ، على القارئ أن يستقصيها بنفسه فى كل سطر من سطور الكتاب الذى كتب على سنن ذلك الزمان فى كثرة التنقل والمزج بين الطرائف والحكم والنوادر والروايات ، وسرعة الانتقال من الجد الصارم إلى النوادر والأشعار لتبسيط الصعب أو كسر الملل ، ولذلك فنفاثس الرسالة موزعة متفرقة غير مبوبة أو مفهرسة ، شفيعها أن القارئ لها لا يعترية ملل ولا يفقد أشواقه لمزيد من الإطلال على ما حوته .

ويبدو أن أبا حيان التوحيدى لم يكن يريد لرسالته حين شرع فى كتابتها أن تطول إلى هذا الحد الذى استغرقت طباعتها قرابة (٥٠٠) صفحة من القطع الكبير ، لذلك نراه يعتذر فى خاتمها عن كثرة الإسهاب ، وهو إسهاب ظنى أنه رد فعل لحيية أمل التوحيدى فى الناس بعامه ، وفيمن ظن أنهم أصدقاء بخاصة ، ومما عاناه من عدم التجانس مع أهل عصره ، حتى أحرق كتبه وكفر بالصدقة والأصدقاء !

يروى التوحيدى فى رسالته عن الصدقة والصديق ، أن فيلسوفا سئل ذات يوم : «من أطول الناس سفرا ؟ !» فأجاب : «من سافر فى طلب الصديق» !!

ومع ذلك لا يحرم التوحيدى قارئه من إعلاء شأن الصداقة ، فهى ليست مجرد صلة نفعية تقوم على الأخذ والعطاء ، وإنما هى رابطة شخصية تقوم على التبادل النفسى والتجاوب الروحى . إن «الصداقة» تتميز عن «العلاقة» بأنها أعمق فى مسالك العقل ، وأدخل فى باب المروءة ، وأنزه عن آثار الطبيعة . ولكن .

أين ولّت الصداقة - وطار الأصدقاء - هذه الأيام ؟!!!

من تراب الطريق

(٤٦٧) مرآة الزمن (*)

بين متعلقاتي الشخصية ، متروكات قديمة لم أعد أستعملها ، ولكنى حريص على استمرار حفظها ، بعضها ريبا من باب الوفاء وإن كان لشيء من الجمادات التى لا تحس ولا تستقبل المشاعر ، وبعضها ريبا انصياع لغريزة التعلق بالقديم وما صاحبه من ذكريات تهوى النفوس النزوع إليها من حين لآخر ، ومن هذه المتروكات « دامبلز » Dumbbells لم أعد أستخدمة ، وفى صالة الجيمينيزيوم التى أرتادها بالنادى ما يغنى بالبداهة عنها ، ومنها « باتيناج » أو « سكيتنج » (skate) ظلت حتى سن العشرين وفيها لممارسة رياضة الانزلاق به ، ومع أننى مع حبي الشديد لها توقفت تماما عن ممارستها منذ نحو نصف قرن ، إلا أننى لم أقبل قط التفریط فى هذا القبقاب الحديدى ذى العجلات الأربع ، ويبدو أننى لم أفقد الأمل قط فى أن أعود لارتدائه والجرى به ، فقد كنت ماهرًا حاذقًا فى ممارسة رياضته أيام الصبا والشباب . لا جدال أنه ليس للاحتفاظ به حتى الآن معنى يستسيغه العقل ، واستمرار الأمل فى العودة إلى ارتدائه وممارسة رياضته أكثر خداعًا من السراب ، ومع ذلك تشبثت به تشبث الطفل بأمه ، لا أطبق التخلّص منه ، وأحرص من وقت لآخر على استعراضه والنظر إليه ولكن دون أن أتورط فى محاولة ارتدائه والمشى - ناهيك عن الجرى - به ، حتى كان يوم من نحو عشر سنوات ، وكنت قد تجاوزت الستين ، ولا أدرى ما هى الدوافع التى حدث

(*) المال ١٢/٧/٢٠١٠ .

بى لأخذه معى ضمن أدوات الرياضة إلى الفيلا التى أقتنيها منذ عام ١٩٩٠
بالساحل الشمالى .. وظل «الباتيناج» أو القبقاب الحديدى بعجلاته الأربع فى
مريضه دون أن أقترّب منه - إلاّ بالنظر إليه عن بعد من وقت لآخر والتملى
فيه واسترجاع الذكريات التى كانت ، حتى كان يوم أجلس فيه بالحديقة
المطلّة على شارع القرية الساحلية ، ولا أدرى أى شيطان أخذنى أخذا إلى
«القبقاب» الحديدى وهياً لى أن أسفلت الشارع الناعم ، وخلوه من حركة
السيارات ، فرصة ذهبية لتحقيق ما يبدو أننى كنت أرغب فيه رغبة مكتومة ..
وعبثا حاولت زوجتى وأولادى إثنائى عن إحضاره والشروع فى ارتدائه ..
ولكنى تشبّث بذلك تشبّث من طال جوعه فجعل يتعلّق بعظمة . بهمة
ونشاط وضعت قدمى بداخل «القبقاب» ، وكلّى ثقة أننى سأجرى به كما
كنت أجرى فى الزمن الأول ، ولكن ما إن نهضت ووقفت لأبدأ ما تخيلت
أننى قادر عليه ، حتى تخلّخت الركبتان واهتز الساقان وأوشك أن يحدث
ما لا تُحمد عقباه ، لولا أن سارعت بالعودة إلى الجلوس على المقعد الذى كان
لحسن الحظ لا يزال خلفى !

يبدو أن الإحساس بمرور الزمن وأثره - نسبى ، ومعظمنا لا يشعر بزحفه
عليه إلاّ من خلال انعكاساته على الآخرين ، سيما إذا انقطع عن رؤيتهم فترة ،
فيفجأه ما آل إليه حالهم حين يراهم ، فيستحضر ذلك أثر الزمن عليه ، هذا
الأثر الذى تفوت مطالعة «المرأة» اليومية ملاحظة تطوراته التدريجية ، فيراها
دفقة واحدة فى الصديق أو القريب أو الزميل الذى يراه بعد زمن .

ويبدو أن «شباب القلب» حين لا يشيخ ، يفوت ملاحظة زحف الزمن
على الجسد ، فلا يلاحظ إلاّ من خلال أمارات جسدية حين تصطدم الرغبة

بالقدرة التي تتحلل وتراجع وتخفت بمرور الزمن ، ومنا من يشاهد المباريات الرياضية ويتصور أو يظن أن بمستطاعه أن يجري ويلعب ويفعل ما يفعله اللاعبون ، ولا يفيق من هذا الوهم إلا حين يحاول محاكاتهم فيصدمه واقع الجسد الذي وهن وغادرته القوة والمرونة وسرعة التلبية العضلية وخبو اللياقة البدنية !

التناسب العكسي الوحيد الذي يناقض شيخوخة البدن ، هو نمو واتساع وجللاء العقل واطراد قدراته بعكس خفوت باقى الوظائف العضوية ، بيد أن هذا التعويض لا يدركه ويقدّره إلا من يقدرّون ويعلمون العقل ، ويرون فيه القيمة الحقيقية للعتاء الإنسانى . على أن هذا التعويض - العقلى - لا يخلو بدوره من منغصات معارضة معاكسة حين تصيبه بدوره الشيخوخة والخرف ، وقد ينجو منها البعض حتى آخر العمر ، وقد يُرزأ بها آخرون قبل ميقاتها المقدور ، فيعانون خفوت وربما ذهاب العقل ، وقد صور القرآن المجيد هذه الحالة أبلغ تصوير ، فقال الحكيم الخبير : ﴿ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لَكِنَّهُ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل] .

وفى سورة الحج : ﴿ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَقَّعُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لَكِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج ٥] .

كان أبى الروحى الأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد ، شديد الالتفات إلى هذه الآية .. أذكر أننى طالبتة يوما أن يترفق بنفسه فيما يبذله من جهود مضية فى البحث والكتابة وكأنه ابن العشرين ، فأجابنى فى رفق : « أخشى يا رجائى أن تنظفى الكهارب فجأة قبل أن أنجز ما فى ذمتى إنجازة » .. وقبل أن أسأله أى كهارب يعنى ، بادرنى يقول : « نور العقل » .

العاقل من يدرك أن الحياة تمضى على سنن التعويض ، فلا يتواري شيء
بغير بديل يحل محله ، وقد يعوضه بشكل ما ، فلا تكاد أوراق الشجر تسقط
إلا وتنمو بدائلها ، لذلك كان الرضا والتسليم هما غاية العاقل ، فيهما تصب
كل الرجوات في حياة الإنسان التي لا تبقى على حال ولن تبقى على حال !

من تراب الطريق

(٤٦٨) حول الصداقة والصديق (٥)

في بغداد ، مدينة السلام ، أيام أن كان ذلك اسماً على مسمى ، خط أبو حيان التوحيدى - أو شُيع منه - أحاديث في الصداقة والعشرة والمؤاخاة والألفة وما يلحق بها - فيما قال - من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة والجود والتكرم ، مما قد ارتفع ذكره ، ولكن اتحى أثره بين الناس !

وفئات الناس ليسوا بالنسبة للصداقة على شاكلة واحدة ، فأنت ترى الملوك جلّوا وترفعوا عن الصداقة ، ولذلك لم تصح لهم أحكامها ولا توفى حياتهم بعهودها . وإنما أمورهم جارية على توابع السلطان من القدرة والغلبة والهوى والمحِب والمبغض والاستحلاء والاستخفاف .. أما بطانتهم من الخدم والأولياء فعلى غاية الشبه بهم ، لانتسابهم إليهم وتعلقهم ولوعهم بهم . أما أصحاب الضياع والإقطاعات فليس لهم في الصداقة غير ولا نفير ، وكذلك غلاة التجار المشغولون بالتربح الذى يسد بينهم وبين المروءة ويحجزهم عن السخاء والكرم . وربما خلصت الصداقة لأصحاب الدين والورع - على قلتهم .. أما الكتاب وأهل العلم فلا تصفو لهم صداقة إلا إذا خلوا من التنافس والتحاسد والتمازى والخصومات .. عند ذلك ربما تصح لهم الصداقة ويظهر منهم الوفاء . وذلك بدوره قليل . أما أصحاب الجنوح وغواة الغش والتطفيف فى معاملاتهم فإنهم فى اضطراب شديد بين الناس ،

(*) المال ١٤ / ٧ / ٢٠١٠ .

لا محاسن لهم تذكّر ، ولا مساعٍ حميدة تروى ، ولذلك قيل عنهم إنهم همج ورعاع وأوباش وأندال وغوغاء ، وما يجرى هذا المجرى من النعوت التى تعبر عن خسة النفس ولؤم الطبع !

من تجاربه المرة ، يسارع التوحيدى فيقول إنه ينبغى قبل كل شيء أن نثق بأنه لا صديق ولا من يشبه الصديق ، حتى رأى البعض أن الانشغال بهم تضييع للحياة ، وأحيانا ما يورث اليأس ويمجّرع الغيظ والأسى ، حتى قال بعضهم : لا خير فى مخالطة الناس ، ومن الوهم الثقة بهم والاعتماد عليهم .. وكثرت فى ذلك النوادر والأشعار .

وقيل : إن الوحدة خيرٌ من جليس السوء ، وأن العقل والحكمة سلعة نادرة ، حتى قيل : عدو عاقل خيرٌ من صديق جاهل .. وفى هذا المعنى قال الشاعر :

عدوك ذو العقل أبقى عليك من صاحب الجاهل الأخرق

وقيل لأحد الأعراب : من أكرم الناس عشرة ؟

فقال : مَنْ إِنْ قَرَّبَ مَنَحَ ، وَإِنْ بَعُدَ مَدَحَ ، وَإِنْ ظَلَمَ صَفَحَ ، وَإِنْ ضُوقَ سَمَحَ ، فَمَنْ ظَفَرَهُ أَفْلَحَ وَنَجَحَ .

وكتب رجل إلى صديق له يقول : «أما بعد ، فإن كان إخوان الثقة كثيرين فأنت أولهم ، وإن كانوا قليلين فأنت أوثقهم ، وإن كانوا واحداً فأنت هو » .

لن تصفو صداقة إلا إذا صاحبها الإسماح ، والإغضاء عن مساوئ وهنات الأصدقاء ، والعاقل يغضى عن هذه المساوئ بدلاً من أن يعيش بلا صديق ! يقول الشاعر :

وأغمض للصديق عن المساوى مخافة أن تعيش بلا صديق !

الحياة بغير صديق ، خاوية مقفرة مجدبة .

روى التوحيدى ما قاله العتابى لصاحب له : « ما أحوجك إلى أخ كريم
الأخوة ، كامل المروءة ، إذا غبت خلفك ، وإذا حضرت أعانك ، وإذا بكرت
عرفك ، وإذا جفوت لاطفك ، وإذا سبقت كافأك ، وإذا لقي صديقك
استزاده لك ، وإن لقي عدوك كف عنك شره ، وإذا رأيته ابتهجت ، وإذا
ناجيته استرحت » .

قيل للخليل بن أحمد : استفساد الصديق أهون من استصلاح العدو . قال :
نعم ، كما أن تحريق الثوب أهون من نسجه !

من الناس من يستأسد على صديقه ؛ لأنه يأخذه بمنطق الضمان ويثق في
دوام مودته ، على حين يلين لعدوه لأنه يخشى بأسه ، قال الشاعر عبدالله بن
قيس الرقيات .

يستأسدون على الصديق ، وللعُدو ثعالب !

وقال فيلسوف : من عاشر الإخوان بالمكر ، كافأوه بالغدر .

سئل أبو الدرداء عما يفعل لمن أساء إليه ، فقال للسائل : « عظ أخاك
وكن له ، ولا تشمت فيه حاسدا ولا عدوا فتكون مثله . غدا يأتي الموت .
فيكفيك فقدته ، فكيف تبكيه بعد الموت وفي الحياة ما أدبت حقه ؟ ! » قال
السائل لأبى الدرداء : أفلا تكرهه وقد أساء إليك ؟ ! قال : « إنها أكره عمله ،
فإذا تركه فهو أخى » .

يُروى أن الأصمعى عرَّضَ برجل كان حاضرا فأنشد :

صديقك لا يثنى عليك بطائل فماذا ترى فيك العدو يقول ؟
فقال الرجل :

وحسبك من لؤم وخُبث سجية بآنك عن عيب الصديق سؤول ؟

وقال شاعر .

يصافيني الكريم إذا التقينا ويُبغضني اللئيم إذا رآني

يريد أن يقول : إن الكريم يخلص الود في اللقاء وفي الغيبة ، واللئيم لا يصبر على إخفاء ما بنفسه من بغضاء وكراهية ومقت .

وكان أبو جعفر المنصور يقول : «من أعطى إخوانه النِّصْفَةَ ، وعاشرهم بجميل العشرة ، قوى بهم عضده ، وزاد بهم جَلْدُهُ ، وبذلوا دونه المهج ، وخاضوا من أجله اللجج !» .

وقال أبو بكر الصديق : «قارب إخوانك في خلائقهم تسلم من بوائقهم ، وترتع في حدائقهم» ..

وقال بعض السلف : إياك وكره الإخوان ، فإنه لا يؤذك إلا من تعرف !» .

وقال آخر : «إخوان الصدق خير مكاسب الدنيا ، هم زينة في الرخاء وعُدَّة في البلاء» .

من تراب الطريق

(٤٦٩) الدين والحرية^(*)

في كتابه الضافي : معالم التقريب ، أورد أستاذنا المفكر الجليل محمد عبدالله محمد ، أنه لا شك أن البلدان الإسلامية بعامة ، قد نقلت في أحكام دساتيرها وقوانينها الوضعية - عن الدساتير والقوانين الأوروبية ، لأغراض عملية روعى فيها ظروف كل بلد وحاجته إلى الأخذ بأسباب الحضارة والمشاركة في المجرى الرئيسى النافع للحضارة ، ولكن الذى لا مرء فيه أيضا أنها لم تنتقل فيما أخذته .. عن التيارات الإلحادية التى طفت إلى الفكر الأوروبى ، ولم تستأنس بها استأنست به من أحكام لكى تستغنى بها عن الدين . بل ترى فى القانون المدنى المصرى الذى قام فيه الفقيه السنهورى بالدور الأكبر - ترى الشريعة الإسلامية مصدرا من المصادر التى تكمل ما عساه لا تغطيه النصوص ، فلا وجود لفكرة مفارقة الدين فى الاستعانة بالصيغ الغربية لا فى التشريعات ولا فى بعض أساليب الحياة . ولا ضير على المسلم ، أو المسيحى ، فى أن يأخذ من أسباب الحضارة بما يشاء مادام لا يتعارض مع قيم ومبادئ دينه ، ولقد طبقت القوانين الوضعية واستخدمناها وألفنا استخدامها لعشرات السنين مشرعين ومنفذين وقضاة ومحامين ومتقاضين ومتعاملين ، دون أن تأخذ شيئا من الدين .

إن الله تعالى هو وخذة الموحدين الحقيقية ، وهو وجودهم الحى .. هو وخذة سبحانه وتعالى الذى شد ويشد إليه مئات الملايين من الضعفاء

(*) المال ٢٠١٠/٧/١٩ .

والفقراء ، فلم ولن تبتلعهم قوى هذا العصر الخطرة الشريرة . وهذا الشعور العميق الغائر في نفس المؤمن ، هو الحبل الذى يقيه ويتأسك به ، وقتل هذا الشعور هو الذى يقتل ويحافى الدين .

والحريات المدنية والسياسية والاقتصادية ، وما يتبعها من حرية الرأى والفكر والاعتقاد ، لا يلغى ولا يصادر الدين ، ولا يخل بالتدين . فالمفهوم السياسى للحريات أنها ضمانات من صنع الناس ، شرعوها وفرضوها بمجتمعاتهم لحماية أنفسهم من أى تجاوز أو تسلط أو عسف من الحكام أو غيرهم . وهذه الحريات الوضعية كلها خارجية تتغيا إبعاد أنواع من العوائق والعوارض والقيود الخارجية ، ولا شأن لها بداخل الإنسان ، ثم إن هذه الحريات محكومة بفكرة النظام العام لا تتعدها ، والنظام العام هو محصلة القيم التى تعارف عليها المجتمع وفي مقدمتها قيم الأديان .. فليست الحريات حرباً على الدين ولا انتقاصاً منه أو مصادرة له أو للتدين .

بل إن الذى يتغلغل إلى تصور الإسلام للمعنى الكلى الذى تشير إليه كلمة الحرية في العصر الحديث ، يجد أنه أكثر فهماً وعمقا واعتناقاً لقيمة هذا المعنى ومكانته .. ذلك أن مشكلة الحرية ليست عند التأمل مشكلة سياسية أو اقتصادية بقدر ما هى مشكلة عاطفية عقلية ، فهى لا توجد إذا كنا جميعاً - حاكمين ومحكومين - متفقين على الصواب والخطأ ، وفي الرغبات وفهمها وضرورة الاختيار بينها وتنظيم كيفية إشباعها ، ووفقاً لمعيار عادل ثابت للكرامة الشخصية لا يتأثر بقوة الفرد وضعفه ، أو بقدر أهميته أو مصلحته . ففكرة الكرامة متداخلة تداخلاً عميقاً في ميدان المشاعر والعواطف أكثر منها في ميدان المعقولات والمصالح ، فالحرية جذورها في منطقة الشعور ، وفي مجال

القيم التي يزن بها الإنسان نفسه في عينه وفي عيون الآخرين متشبهاً بفكرة المساواة . . والواقع أن المستوى الكريم للحياة تصور متتبع من عناصر مادية يحمل معنى التميز . فالحياة الكريمة بغض النظر عن الشعارات والنظريات - هي في عصرنا حياة مادية مادام المال هو القيمة الاجتماعية الرئيسية التي يتركز عليها اهتمام الناس ، ومادام وضع الإنسان الاقتصادي في المجتمع هو الذي يربط بين نصيبه الفعلي من احترام نفسه واحترام المجتمع له . وإشكالية أخرى ، أن صار صعباً على الإنسان العادي في زماننا أن يشعر بالأهمية أو الإنصاف وهو منفرد وبعيد عن التكتل ، في حزب أو نقابة أو ما شابه .

إذن فالحرية التي يحتاجها العصر ، ويفلتها من يده باستمرار ، هي التحرير من استبداد واستعباد رغباتنا ومطامعنا التي تدعو القوى لإهمال الضعيف ، والحاكم للاستقواء بسلطته على المحكوم ، والطامعين للتغول بمطامعهم أو استبدادهم على البسطاء . وما من ظالم إلا وأداته إنسان تستعبده هو الآخر مطامعه وشهوته ، ولا يمكن لأى استبداد أو طغيان اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أن يوجد .. إلا إذا كان الناس قد فقدوا حريتهم الداخلية !

والشعور بالحرية الداخلية ، هذا الشعور المليء بالوقار والطمأنينة ، منبعه وواحه الدين . ونرى بهذا المعنى الكلى كيف أن منظومة دين كالإسلام ، توفر عناصر وضوابط وروح ومعنى الحرية . فالمسلم الصادق يكون حراً وهو مستعجون ، وحراً وهو رقيق ، وحراً وهو فقير .. وهكذا رأينا بلال وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وغيرهم ، قلوبهم الملائنة بالحرية هي التي تجاوزوا بها الفقر وتحرروا من نير العبودية وآمنوا بقلوب معمورة بحرية أعمق وأشد من حرية الكثيرين من الطلقاء والسادة والأغنياء وذوى الجاه والزعماء .

هذه الحرية الداخلية التي يطلقها الإسلام في قلب المسلم الصادق ،
ليست السلبية أو البلادة أو عدم المبالاة ، وليست في الرعونة ولا الحماقة
والتجبر على الناس أو العصف بحيواتهم وبالعمران ، وهي بالبداهة ليست
حرية ترك الدين أو الانقلاب عليه ، وإنما هي أخوة في الله ، أبدية في الدنيا
والآخرة ، تجمع المؤمنين بقلوب عامرة بالهداية والإيمان الذي يربط عليها
بجبل متين تستقيم به الحياة بين جميع الأحياء .



من تراب الطريق

(٤٧٠) المال ومعالم التقريب^(*)

(١)

في كتابه الضافي : «معالم التقريب» ، وقف أستاذنا العالم الفقيه المفكر الجليل محمد عبد الله محمد عند المال وأثره على الدعوات بعامة ، وفيما يتعلق بمعالم التقريب بين المذاهب بخاصة .. ويبدأ بإيضاح ينادر ببيانه ، هو أن «التقريب» لا يعادى المال ولا يواليه . ولكن المال يلفت إليه دعوة التقريب من جهة آثاره على الأرواح ، باعتباره قيمة قد تنافس الدين ، وباعتباره عنصراً في الواقع ، ووسيلة من الوسائل في خدمة الحاجات المادية اللازمة للدعوة الدينية ، وباعتباره أداة للتعبير عن العواطف بها فيها عاطفة التدين .

فالمال قوة في المجتمع ليس لها في نظر الناس حدود ، وهو قوة مركزة تستخدم في تحقيق آلاف بل ملايين الرغبات والأغراض ؛ لذلك فقد صار الصراع على المال صراعاً من أجل القوة في أصفى وأيسر صورها ، فهو في مقدمة قائمة القيم فعلاً وواقعاً في كل الجماعات حتى الماركسية منها .

وأدى إلى سيادة «الطابع المادي» الذي هو أكثر ظهوراً عند السوق والمحتاجين وأهل الفقر والكتل بعامة ، نتيجة الشعور بالاحتياج والضييق وشدة التطلع إلى التخلص أو الراحة منهما ، من أجل هذا تتعاطم غالباً قيمة المال - حتى القليل منه - في عين الفقير ، ولذلك لم تستطع الأديان حتى في عنفوانها أن تحطم مكانة المال في قلوب الكتل الفقيرة .

(*) المال ٢١/٧/٢٠١٠ .

يبد أن هذه الكتل الفقيرة ليست هى التى تعطى المجتمعات طابعها عبر التاريخ ، وإنما يستمد المجتمع طابعه دائما من الطبقات التى تعلو القاعدة ، كما هى الحال فى الأبنية عموما ، وهذه الطبقات هى التى يمكنها أن تقف من المال موقفا فيه شىء من الهدوء يسمح بالتأمل ، وهى التى يمكن أن تظفن إلى أضرار المال وأخطاره وقدرته الشيطانية على التسرب إلى الروح وإتلاف الضمير . وفى هذه الطبقات - التى تعلو القاعدة - يمكن أن يتقابل الدين كقيمة مع المال مقابلة فيها صراع ، فإذا فاز الدين انخفضت مكانة الغنى بالنسبة للفقير ، وتراجع شأن المال ، وقل أو اعتدل تهافت الناس على الثراء ، وسهل من ثم بذل المال والتقرب به فى الصدقات وأنواع البر سرا وعلانية ، ولم يعد الفقر من المال نقصا يغض من قدر آدمى فى عين نفسه أو فى عيون الناس ، ولم تعد ملكية المال تزكى - فى ذاتها - قدر صاحبها ، وخف بهذا جانب مهم من جوانب الصراع على الدنيا ، وتسربت روح ذلك وأنداؤه إلى الكتل الفقيرة ، فيلطف من حدة ما تعانيه .

وعملية رفع الدين إلى رأس قائمة القيم ، هى فى الدرجة الأولى عملية خفض لمكانة المال وسلطانه وأثره على النفوس ، على أنه ليس من السهل - مادام الناس على ما هم عليه - أن يبقى الدين مدة طويلة على رأس جدول القيم فعلا وواقعا . ويبدو أن تصدر الدين قائمة القيم فى نفوس الناس لا يجىء إلا كرد فعل فى أعقاب النكبات والانتكاسات ، أو فى أعقاب نوبات التكالب والسعار على الدنيا التى تحتاج المجتمعات عندما يبلغ فيها الشغف بالمادة ومتاع الدنيا حد الاقتتال ، وفى أعقاب هذه وتلك تكون الظروف مهيأة للدين لأداء دوره الطيب والملطف لما يصيب المجتمعات من الأضرار !

ويجب أن يلتفت أهل التقريب وغيرهم من أهل الدعوات - في تأثير المال - إلى دور الخامة البشرية ، أى مجموعة الاستعدادات والقدرات والخصال التى لدى الإنسان ، وهى قدرات تختلف باختلاف المكان والزمان والظروف ، وترك ويترك آثاره الحتمية فى تاريخ الأديان وكيفية نموها ، وعلى آثار صراعها مع المال والقوى المادية ، وهو يحدد مع غيره من العوامل مستقبل أى دعوة دينية قديمة أو جديدة .

وهبوط الخامة البشرية شئء حدث ويحدث فى كثير من الجماعات ، ويترجم عن وجوده فى صورة خلل مزمن فى عمل الأنظمة ، وفى ذهول وإعراض الناس عن الاهتمام بالنجاح للأنظمة أو الغيرة على الخير العام . ولا سبيل إلى علاج هذا الهبوط حين يستشرى فى الخامة البشرية ، إلا بمحاولة تغيير النفوس ودفعها إلى العودة الضرورية اللازمة لنجاح المجتمعات والأفراد .

ويبدو أنه فى هذا الصراع بين الدين والمال على نفوس الناس وأرواحهم ، لم يدرس المسلمون الكسل وأثره دراسة كافية ، ولم ينتبهوا إلى دوره الخطير فى تاريخهم ، ولا إلى الصلة الوثيقة بينه وبين المغالاة والتطرف والجمود !!

والكسل فيما يبدو أمر نفسى وعقلى ، وهو خوف وإعراض عن تصور موقف جديد يدفعنا إلى الهرب من تغيير ما هو موجود ، فهو - أى الكسل - ليس مجرد كراهة وإعراض عن بذل المجهود فى ذاته .. ذلك أن الآدمى لا يكف حتى فى نومه عن بذل المجهود بصورة أو بأخرى ، وحياته العضوية والنفسية سلسلة متصلة من الجهود التى لا تتوقف إلا إذا توقفت الحياة ذاتها . فالكسل فيه أمر زائد على مجرد رفض المجهود ، هذا الأمر الزائد هو رفض الجديد المقصود به إحداث تغيير فى تصوراتنا أو مواقفنا ، ونحن حين نتخذ موقفا جديدا ندخل فيما يشبه المغامرة ، وهى قد تكون منهكة تدعونا إلى الكف والعودة لالتزام ما ألفناه ، والتوقف عن بذل الجهود النفسية والعقلية التى يقتضيها التغيير .

نرى شيئا من ذلك لو تأملنا حال «الموجة المادية» التى بدأت تظهر بين المسلمين مع الفتوح فى أواخر عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهذه الموجة المادية التى علت وامتدت بعد ذلك ، كانت فى جوهرها موجة كسل عام بالمعنى المتقدم ، تسربت إلى نفوس كثيرة لم تر الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم تشهد المشاهد معه لتغيير حياتهم التغيير الشامل الجاد الذى يتطلبه تطبيق الإسلام تطبيقا صحيحا كاملا . فلما أطل الرخاء وزاد ، ضاقوا بجسامة التغيير الواسع العميق المطلوب الذى يدعو إليه الإسلام ، وتميؤوا بتطبيق الإسلام الكامل (المجهد) ، وغلب على أمرهم الاسترخاء النفسى والعقلى والروحى ، واكتفوا بتطبيق الإسلام تطبيقا فيه

مصالحة ومواءمة تتوقف عند حدود وأجزاء معينة ، وتأبى التغيير الكلى الذى هو هدف الإسلام الأساسى ، ولا يزال هدفه إلى قيام الساعة .

مثل هذا حدث ويحدث فى كل حركة دينية أو اجتماعية تنغيا لإحداث مثل هذا التغيير الكلى فى حياة الناس ، لأنها تصطدم بعد وقت قصير أو طويل - بمقاومة الكسل البشرى .. هذا الكسل الذى يفسر قصر عمر العصور المثالية فى تاريخ الإنسانية !

ومن الملاحظ أن حائط الكسل يزداد كثافة كلما ازداد نفوذ الكتل والعامه ، ونفوذها فى العصر الحالى جسيم ، وهولا يرجع إلى الفكر والنظر الفكرى ، لأن الفكر مهما تساهل لا يسلم للعوام فى قيادة البشرية إلاّ بدور ثانوى . ويبدو أن مكانة الكتل فى زماننا إنما ترجع أساسا إلى دورهم فى الصناعة والتجارة الحديثتين ، فهما تحتاجان على النطاق الواسع - إلى الكتل والعامه ، كعمال أو عملاء على حد سواء . فالصناعة والتجارة هما القوتان الخفيتان اللتان تسوقان الكتل إلى مساواة الخاصة فى الرغبات والشهوات والمطالب والحقوق . ولذلك فليس عجيبا ما نشاهده من شدة الروح المادية لدى الكتل ، وظهور الأثانية والغرور ، وضعف الشعور بالواجب ، وقلة ضبط النفس والاتزان !

ولكن ، هل يمكن أن تصبح الأشياء المادية أغلى وأثمن من الآدميين فى مجتمع متحضر ؟ أجل ، وللأسف - يحدث ذلك حينما نغفل أمر الآخرين ونسقطهم من تفكيرنا ، وحين نبعدهم عن دائرة اهتمامنا ، وحين لا نرى إلاّ أنفسنا وأغراضنا وما نخططه ونديره لتنفيذها أو تحقيقها .. فعندئذ يصبح الآدميون فى نظرنا مجرد عوامل مساعدة نستخدمها فى تحقيق أغراضنا !

لا بد أن يحدث هذا حينما نتصور أن الإنسان سيد مصيره بلا حدود ولا سقف ، وحين نسقط من رؤيتنا وحساباتنا - أنه توجد جهة عليا سامية لا بد أن تخضع لها مشيئتنا ، ولا نرى أن هذه الجهة العليا تفرض قداسة وقيمة لكل آدمى كآدمى .

لا شك أننا جميعاً نريد خيراً كثيراً لديننا وإخواننا ، ولكننا نتردد ونحجم عن دفع ثمن هذا الخير الكثير الذى نريده لأننا لا نحب شيئاً قدر حبنا لأنفسنا وأموالنا ومصالحنا ، ولأننا رغم الأقوال والابتهالات لسنا واثقين تماماً من وجهتنا ، ويخلو معظمنا من استراية قليلة أو كثيرة فى وعد الحق . يستوى مسار الإنسان ، ويتحقق التقريب ، حين يسأل كل منا نفسه : هل يثق فعلاً فيما عند الله تبارك وتعالى - ثقته فى البنك الذى فيه ودائعه ، أو الخزينة التى يكتز فيها أمواله ، أو فى شركة التأمين التى أمّن لديها على حياته وماله ، أو ثقته فى وعد الحاكم ورضاه ؟!

يبدو أن العقود والعهود التى نعقدها أمام الله عز وجل معظمها كلام وأحلام ، لأننا نفر فى الواقع من تحمل المشاق والصعاب والتضحيات التى يقتضيها الصدق مع الله ، والوفاء للإنسانية ، واحترام الإنسان من حيث هو إنسان ، مع أن ما نترك هذا من أجله ما هو إلا الوهم والباطل وقبض الريح !

من تراب الطريق

(٤٧٢) أين حواء من قضاياها؟ (١٠)

تحت عنوان : فلسفة الطائشة ، من كتابه : وحى القلم ، شن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي حملة ضارية على الأستاذ قاسم أمين صاحب «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» .. فجعل يأخذ عليه أنه تلميذ أوروبا ، وأن أستاذه تلك هى أبلغ رد على فساد رأيه فى تحرير المرأة .. وأنه لو استقرأ أطوار المدنية ، لقدّر أن هذا الزمن المتمدن سيتقدم فى رذائله - بحكم الطبيعة - أسرع وأقوى مما يتقدم فى فضائله .. وكأنه كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازل ولا تحت الحياة مثلها .. مَرَّق البرقع بقالة : «إنه مما يزيد فى الفتنة ، وإن المرأة لو كانت مكشوفة الوجه لكان فى مجموع خَلْقها - على الغالب - ما يرد البصر عنها» .. وزعم أن «النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة ؛ لأنها (النقاب والبرقع) يخفيان شخصيتها ، فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد ، فتأتى كل ما تشتهيه تحت حماية البرقع والنقاب !» .. وها قد زال البرقع والنقاب .. هكذا يقول الرافعي : فهل قدّر قاسم أمين أن المرأة ستلجأ إلى حماية أخرى ، فتجعل ثيابها تعبر تعبيراً دقيقاً عن أعضائها ؟! وقد أراد قاسم أن يعلم الناس الحب ليربطوا الزواج به ، فلم يزد على أن جرّأهم على الحب الذى قرّبه الزوج ، ونسى أن المرأة التى تحالط الرجل ليعجبها وتعجبه فيصير زوجين - إنها تحالط فى هذا الرجل غرائره

(*) المال ٢٧/٧/٢٠١٠ .

قبل إنسانيته .. هو رجل وهى امرأة وبينهما مصارعة الدم ، وكثيراً ما تكون المسكينة هى المذبوحة !

أخطأ قاسم أمين فى إغفال عامل الزمن من حسابه ، وهاجم الدين بالعرف ، وكان من أفحش غلظه أنه ظن أن العرف مقصور على زمنه ، وكأنه لم يدرك أن الفرق بين الدين والعرف ، هو أن العرف دائم التغير والاضطراب فلا يصلح أبداً قاعدة للفضيلة . وها نحن قد انتهينا - بالعرف - إلى زمن العرى ! ونسى قاسم - غفر الله له والعبارة للرافعى - أن للشباب أخلاقاً تتغير بتغيرها ، وأن من تغيرها تغير معها فهمها للفضائل ، فتتغير بذلك فضائلها وتتحول من آيات دينية إلى آيات شعرية . بينما روح المسجد غير روح الحانة ، وهذه هى غير روح المرقص ، وهذه غير روح المخدع ، ولكل حالة لباسها ، فأين أخلاق المرأة العصرية من الأخلاق التى كانت لها من الحجاب ؟ لقد تبدلت مشاعر الطاعة والصبر والاستقرار والعناية بالنسل والتفرغ لإسعاد أهلها وأديها - وحلت محلها مشاعر أخرى أولها كراهية الدار والطاعة والنسل !

يرى الرافعى أن قاسم أمين كان كالمخدوع المغتر بآرائه ، وكان مصلحاً فيه روح القاضى ، والقاضى بحكم عمله مقلد متبع يسند رأى دائماً إلى نص لم يكن له فيه عمل ، ومن ثم كثرت أغلاط الرجل حتى جعل الفرق بين فساد الجاهلة وفساد المتعلمة ، أن الجاهلة «لا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدم إليه أفضل ما لديها ، وهو نفسها» .. وأن المتعلمة على خلاف ذلك لا يجرى قدرها بمن يحل لها إلا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام بأحواله وشأنه وصفاته ، فتختاره من بين مئات وألوف

من تراهم في كل وقت (!!!!) وهى تحاذر أن تضع ثقتها في شخص لا يكون أهلا لها ، ولا تسلم نفسها - إلاَّ بعد منازلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟؟؟؟) ، وهى بكل حال تستر بظاهر التعفف (؟؟؟؟) .

يعقب الرافعى بأن هذا كلام قاضي من المتفلسفين على مذهب «لامبروزو» يقول لإحدى الفاجرتين - وهذه عبارة الرافعى - أيتها الجاهلة الحمقاء ، كيف لم تتحاشى ولم تسترئى فلا يكون عليك سبيل ؟

وهذا نظر قاصر ، فمتى كان في الحب اختيار ، ومتى كان الاختيار يقع «فيما يجرى به القدر» ، ومتى كان نظر العاشقة كنظر المعلمة إلى صبيانها تدرس به الصفات والشئال في مئات الألوف من تراهم في كل وقت لتصطفى منهم واحداً تختاره .

وأنت تلاحظ في حملة الأستاذ الرافعى الضارية على الأستاذ قاسم أمين ، أنه لا يلاحظ مبالغاته هو اللامزة حين يفترض افتراضاً أن المتعلمة تختار من بين مئات وألوف من تراهم في كل وقت ، وأنها تدرس الصفات والشئال في مئات الألوف من تراهم في كل وقت لتصطفى وتختار منهم واحداً .

والرافعى يفترض هذا الافتراض المبالغ اللامز لتستقيم له أسباب حملته ، فيأخذ فيها على قاسم أمين أنه أغفل في هذا أيضاً حساب الزمن ، فكثير من المنكرات والآثام فد انحلَّ فيها المعنى الدينى ، وثبت في مكانه معنى اجتماعي مقرر ، فأصبحت المتعلمة لا تتخوف من ذلك على نفسها شيئاً ، بل هى تقارفه وتستأثر به دون الجاهلة ، وتلبس له (السواريه) وتقدم فيه للرجال المهذبين مرة ذراعها ومرةً خصرها !

ويتنقل الرافعى من مهاجمة قاسم أمين وآرائه ، إلى مهاجمة مصطفى كمال (أتاتورك) في تحرير المرأة وتمزيق الحجاب ، فيأخذ عليه أن حققه على الدين وأهل الدين هو الدليل على أنه ناثر لا مصلح ، احتذى حذو الناس في أوروبا ، وجعل رذائلهم من فضائلهم ، وكأنه يعتنف الآراء ويأخذها أخذًا عسكريًا !!

تساءلت وأنا أتابع ما يُدار حول المرأة وحقوقها ما لها وما ليس لها ، أين هى من هذا كله .. ولماذا تسكت حواء ولا تبدى رأيها - أمس واليوم - فى منظور يجعل منها لعبة ودمية .. ولا يخرج بها عن كونها مفاتن جسدية تقدم - إن قدمت - نفسها ، فلا عقل ولا شخصية ولا مزية لها سوى هذه المفاتن التى يدور حولها طلب الرجال ، وكيف تستر ويُستر معها وجهها خلف برقع أو نقاب لأنه هو الآخر عورة واجبة الحجب عن عيون الرجال !

أليس فى انفراد الرجال بالحديث فى أخص ما يخص المرأة ، أن الذكورية طاغية طغيانا حجب النساء اللاتى استسلمن لهذا المنطق الذى لا يزال يصنفهن فى باب الدمى .. بلا حول ولا قوة ولا رأى إلا ما يراه ويستحسنه أو يستقبحه الرجال ؟!!

من تراب الطريق

(٤٧٣) انحراف الرؤية! (*)

إلى هذا الحد الغريب المدهش العجيب ، يمكن أن تنبهم الرؤية وأن تصاب بالحوّل الشديد - تبعاً للهوى والمصلحة ، والأكثر غرابةً وعجباً وإدهاشاً - ألا تظنن إلى ما فيها - أى الرؤية - من انبهاً وحوّل يغلفهما العماء !! خرجت بهذا الانطباع ، وهو غير جديد على أحوال الناس ، حين طالعت مؤخراً مذكرات أنتوني إيدن رئيس الوزراء البريطانى الأسبق عن سقطته الكبرى فى أزمة السويس سنة ١٩٥٦ .. بين مكتبتي العدد / ١٤٤ من كتب سياسية التى كانت تصدرها وزارة الإرشاد القومى بقروش زهيدة .. العدد يرجع إلى مارس ١٩٦٠ ، مترجم عن مذكرات إيدن بمقدمة للأستاذ محمد حسنين هيكل ، والثن (١٠) قروش .. لم أفكر فى قراءته على مدى خمسين عاماً ، دعانى لذلك أننى عشت أحداث هذه الأزمة ساعةً بساعة ، وقرأت إبانها وبعدها مئات بل آلاف الصفحات التى تناولتها من شتى جوانبها وتوجهات أصحابها على اختلاف أغراضهم وأهوائهم ومشاربهم ، أو تحليلاتهم وآرائهم ونظرياتهم ، فوجدت من إضاعة الوقت أن أفرد يوماً أو يومين لمطالعة مذكرات يريد صاحبها - أن يبرر فعلته أو سقطته أو خيئته وسقوطه .. فمنطق التبرير لا بد أن يكون دافع وغرض أمثال هذه المذكرات . ويبدو أن استرخاء الصيف وعدم اعتيادى على الإجازات ، قد أخرجانى من عزوفى عن تناول هذه المذكرات ، ولست أريد هنا أن أعرضها لك أو أن

(*) المال ٣/١٠/٢٠١٠ .

أتناولها بالتعقيب .. بقدر ما أريد أن أنقل إليك الانطباع الذى خرجت به عن حَوَل وانحراف الرؤية وعجائبها حين تحكمها الأغراض والأهواء ، وكيف أن هذا الداء يكاد لا ينجو منه أحد ، حتى كبار الساسة والزعماء والرؤساء وربما الحكماء !

لا أقصد الدوافع التى اختلفت وتختلف من دولة إلى أخرى ، فطبيعى أو مفهوم أن تجرى كل دولة وراء مصالحها ، فترى بريطانيا ما يهدر مصالحها الاستعمارية فى البلدان التى تحتلها أو لها بها قواعد فى المنطقة العربية وفى أفريقيا وآسيا ، وأن تخشى فرنسا من امتداد أثر قرار الرئيس عبد الناصر إذا نجح فيه ، إلى ما تواجهه بالجزائر وفى الموقف الفرنسى بأكمله فى شمال أفريقيا ، وأن ترى الدولتان أن الجانب «الدولى» للقناة هو المدخل الصحيح لإدارة الأزمة والترتيب أو التبرير لاستخدام القوة وشن الحملة التى شاركتها فيها إسرائيل ، بينما تحفظ الولايات المتحدة على المنظور الدولى للقناة ، لا لعلّة سوى أن لها وضعًا خاصًا فى قناة بنما .. فهى مسألة خاصة بين حكومتى أمريكا وبنما بمعاهدة معقودة بينهما وحدهما .. ومن ثم فإن أمريكا تحب وتحرص على تكريس معنى أن هذا الممر المائى أمريكى وليس دوليًا .. وتفصح من أجل ذلك لحلفائها عن رغبتها فى التفرقة - بوضوح وصراحة - بين موقفها الممتاز المتميز فى قناة بنما وبين التعقيدات الدولية المتعلقة بقناة السويس .

هذا مفهوم ، وهو ليس مرادى هنا ، ولا يتسع له هذا الحيز .. ولكن لفتنى وأنا أقرأ المذكرات منطلق أحول وعبارات ضريرة وردت بالمذكرات على لسان إيدن أو دالاس أو بينو الذى تبنى أن حكومته الفرنسية مجمعة على اتخاذ عمل سريع وحاسم لأن الفرنسيين هم الذين بنوا القناة .. ولم ير

السيد بينو - في منطقته هذا الأحول - أن قناة السويس في أرض مصرية ، وأن حفرها - لا بناءها - كان بسواعد آلاف المصريين الذين مات منهم من مات في عمليات الحفر اليدوى المضنية .. وزاد بينو على ذلك أن ما أجراه الرئيس ناصر إجراء انتقامى لرفض تمويل سد أسوان ، وأن أمريكا هى المسئولة عن هذا القرار ، ومن ثم يجب ألا تخلى نفسها عن الاهتمام بعواقبه ، بينما يرى جون فوستر دالاس ومعه ميرفى - أن إجراء عبد الناصر لم يكن انتقاميا وأنه كان يفكر فيه من زمن طويل .

مرة ثانية ، ليس مرادى هنا مناقشة أمثال هذه الرؤى ، وإنما أردت أن أتوقف عند بعض العبارات التى وردت بالمذكرات .. يورد إيدن بإحدى برقيات المبركة : «إن رجلا له سجل ناصر يجب ألا يُسمح له بأن يطبق يده على رقبتهنا!» ويورد فى برقيته إلى أيزنهاور فى ٢٧ يوليو «يجب أن نكون على استعداد لاستخدام القوة لإعادة ناصر إلى رشده» .. وكان القرارات الوطنية فقدان رشد ! بينما يقول جون فوستر دالاس فى اجتماعه الأول بوزراء الخارجية فى أول أغسطس : «يجب أن نجد وسيلة نحمل بها الرئيس ناصر على أن يلفظ ما يحاول ابتلاعه» .. توقفت طويلا عند وصف العمل الوطنى الذى اتخذته الزعيم جمال عبد الناصر بتأميم القناة ، بأنه قسمة لا يجوز تركه لا ابتلاعها ، وأنه يتعين الوصول إلى إجباره على أن يلفظ ما يحاول ابتلاعه . ولفتنى أكثر كيف راقّت هذه العبارة للسير أنتونى إيدن ، فظلت - كما يروى - تدوى فى أذنيه شهورا ، مع استعماله تعبير «التقيؤ» بدل «الابتلاع» ، فيقول إيدن إن الرئيس عبد الناصر «لا بد أن يحمل على أن يطرش قناة السويس ولا يبتلعها!» .

وتفهم طريقة تفكير هؤلاء ، حينما تطالع خوالج نفس أنتونى إيدن التى وصفها بقوله تعقيبا على الموقف الأول لدالاس وحكومته :

«وأحسست براحة كبيرة فى ذلك المساء ، برغم اختلاف نظرتنا عن نظرة الأمريكيين واختلاف تقديرنا لعامل السرعة والعجلة عن تقديرهم ، ولكن إذا كان لابد أن «يطرش» الرئيس ناصر فى النهاية ما يحاول ابتلاعه ، فإن النتيجة الواضحة فى هذه الحالة أنه لن يتمتع السارق بما سرق» .

وهكذا ، فى المنطق الغربى ، صارت القناة المصرية المحفورة بسواعد مصرية فى الأرض المصرية - صارت ملكا لفرنسا لأنها التى بنتها (؟!) ، وصار قرار التأميم «قضمة» يحاول عبد الناصر ابتلاعها ويجب أن يُحمل على أن يلفظها ، وفى عبارة السير أنتونى إيدن أنه يجب أن «يطرشها» ولا يتلعتها ، وصارت القناة «نهيبة» وعبد الناصر «سارقاً» لا يجوز أن يتمتع بما سرق!!! إلى هذا الحد صار الغرض مرضاً ، يحول بين المريض وبين أن يرى أن قناة السويس مصرية محفورة بسواعد مصرية على أرض مصرية ، وأن قرار تأميمها قرار وطنى مشروع وليس غنيمة مسروقة ولا نهيبة منهوبة ، وأن لغة الابتلاع و«الطرش» لغة سوقية فضلا عما فيها من عماء ضرير كان هو سبب فساد وإخفاق مؤامرة العدوان الثلاثى الذى ارتد مهزوما يجر أذيال خيسته وقواته تجلى - مجبرة - عن الأراضي المصرية !!

من

تراب

الطريق

(٤٧٤) وداع على ميقات! (*)

كنت بالإسكندرية حين بدأت خدمتى التمهيدية بالقضاء العسكرى الذى التحقت به آخر سنة ١٩٦٠ لفترة بعد بدايتى فى المحاماة أغسطس ١٩٥٩ ، لأعود منه إليها فى آخر ١٩٧٦ .

كان النظام يقضى آنذاك بسنة أولى فى خدمة التشكيلات العسكرية الميدانية قبل مباشرة العمل القضائى .. بدأتها فى الكتيبة الثانية للمشاة بالعامرية ، قائدًا لفصيلة فى السرية الثانية التى يقودها آنذاك النقيب السورى خالد أرسلان ، وانقطعت أخباره عنى منذ الانفصال الذى أنهى حلم الوحدة الجميل ، وتوليت من بعده قيادة السرية .

وكنا قد حددنا يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦١ للاحتفال بيوم الكتيبة ، وكنت أضطلع فيه بواجبات كثيرة ، لذلك وقعت فى حيرة شديدة حين عدت إلى سكنى مساء يوم ٢٢ ديسمبر فوجدت أسفل باب الشقة خطابًا من المرحوم الأستاذ عبد المجيد الشرقاوى المحامى ، يخطرئى فيه بأن أبى - وهما زميلان - أصيب بأزمة قلبية ويرغب فى أن أعوده بشيين الكوم .

لم يكن لدى تليفون منزلى ، ولا كان المحمول قد اخترع ، وأشفق أبى من إرسال برقية قدّر أنها يمكن أن تقلقنى ، فاغتنم زيارة الأستاذ عبد المجيد الشرقاوى الذى علم منه أنه بطريقه إلى الإسكندرية ، فأعطاه عنوانى وطلب إليه أن يمرّ على لإبلاغى برغبته ، فلما تصادف أن لم يجد

(*) المال ٢٠١٠/٨/٥ .

الأستاذ عبد المجيد أحدًا بالسكن ، اضطر لكتابة الخطاب على عجل وتركه لي من تحت باب الشقة !

تولتني حيرة شديدة امتزجت بقلقي الأشد على أبي ، ولم يكن أمامي إلا أن أذهب إلى الكتبية في الصباح لأخطر قائدها آنذاك المقدم عمر خالد - يرحمه الله - بالظروف الطارئة ، ووجدتني متحمسًا معه لأعبائي بالاحتفال على وعدي بأن أغادر قبل نهايته للسفر إلى شبين الكوم .. في نحو الرابعة والنصف عصرًا صرفني قائد الكتبية مودعًا إياي بتمنياته الطيبة للوالد الذي انطلقت طائرًا إليه .. أسابق الزمن وحاستي السادسة تنبئني بنذير .. كانت المشكلة أنني في العامرية على بعد أكثر من ٣٠ كم من الإسكندرية ، ولم تتيسر عربة لنقلي إليها ، فجعلت أنتقل بين المركبات العسكرية التي طفقت أوقف ما يصادفني منها طوال الطريق الذي رسمته للوصول إلى محطة سيدى جابر لأستقل القطار منها إلى طنطا ومنها بقطار آخر إلى شبين الكوم .. لازلت أذكر خفقات القلب وأمل الوصول طوال هذا الطريق الذي كنت أسابق فيه الزمن كأنني كنت على ميعاد مقدور !

أخيرًا بلغت حجرة نومه - يرحمه الله ، وهو على فراشه لم تفارقه سياحته ولا إيمانه ، ولا تهلهله وبشاشته وارتياحه لمقدمي .. كان آخر ما تلقيته كتابة منه ، رسالة أبلغني فيها بأنه أبلغ أشقائي وشقيقاتي بتحياتي وسلامي لهم ، ولكن ختمها بوصية لم تفارقني قط .. أوصاني فيها بأن أنهض بنفسى في المستقبل بالسؤال عليهم ، قائلا : «وكن لهم مكان الوالد يا رجائي» .

لم أدر إلا وهذه العبارة تراودني وأنا أجلس إليه أمام فراشه ، مع أنه بدا في الظاهر بحالة طيبة .. ثم أعقبها كَرَشَة نفس ، فاستدعى الدكتور رياض

سر كيس لمناظرته ، ولكنه ما إن غادر ، حتى تسارعت أنفاسه وبدأت الأمور على غير ما يرام .. فهمت أُمى ما لم أفهمه .. أخذت رأسه على كتفها وجعلت تقول له مطمئنًا وقد عرفت أنها سكرات الموت : إنك مؤمن .. وهو يوصيها بأخته التى كانت تقيم معنا قبل أن يتشهد ويسند رأسه الإسنادة الأخيرة على كتفها وعلامات الرضا والطمأنينة مرتسمة على أساريره .. لم أصدق أنه يموت ولا استوعبت أنه مات .. فانطلقت أعدو كالمجنون فى محاولة للحاق بالدكتور الذى كان قد فارقنا من دقائق .. ولكنى أدركت بعد أن أفقت من هول الصدمة أن أحدًا لا يملك إرجاء لحظة الفراق ، مثلما أدركت أن الموت والحياة ليسا خصيمين ، وإنما هما وجهها وجود الوجود !

ومع ذلك فمشهد الموت صعب ، وكان قدرى أن أبى ﷺ ، أعز وأحب الناس إلى طرًا ، هو أول من شاهدت احتضاره من الأحياء .. كان المشهد مشحونًا بالعواطف ، ممزوجًا بالمشاعر المتباينة بين الخوف والرجاء ، والإشفاق والأمل ، والاعتراض والتسليم .. اجتمع فيه مشهد الاحتضار مع فراق أعز الأحباب .. فكان أثره مزلزلاً لم يفارقنى قط رغم مرّ السنين ، وإن بقيت الذكرى حية معطرة لأبٍ زرع ورعى كل ما استطعت به مواجهة الحياة بحلوها ومرّها وأعاصيرها .. تحضرنى عنايته وهو يفارق الحياة بأن يوصى زوجته برعاية أخته .. أما نحن ، فقد كان يدرك ببصيرته أن الأم لا تحتاج إلى وصية لرعاية أولادها ..

تأملت كثيراً فى هذا المشهد الأخير الذى سبقته وصية مكتوبة ظنى أنها كانت على ميقات بترتيب المقادير ، أن يكون الأخ الأسن فى مكان الوالد لإخوته ، ووصية أخرى أخيرة إلى زوجته أن تبقى على رعايتها الرءوم لأخته ..

وقد فعلت يرحمهم الله جميعا .. أما ميقات الوداع ، فهو الرحلة الطائرة التى
قطعتها فى أربع ساعات من العامرية فى جنوب الإسكندرية إلى شبين الكوم
فى وسط الدلتا ، ليقدر لى أن أصل فى اللحظة الأخيرة لأكون فى رحابه لحظة
الوداع الذى كنت وإياه على ميقات مقدور .

من تراب الطريق

(٤٧٥) المرايا المعوكسة (*)

لم يستطع أحد ، مهما كان متحيزاً ضد النادى الأهلى أو كارهاً له ، أن يمارى فى شناعة ما ارتكبه حارس مرماه الذى هرب بليل من أكثر من عامين ، وفاجأ الجميع بمغادرة البلاد إلى حيث ألفت ، بينما كان يتدرب فى اليوم السابق مع فريقه ، وفى عز الموسم . لم يمار أحد فى شناعة هذا التصرف غير المسبوق فى دنيا الرياضة لا فى مصر ولا فى غيرها من بلدان العالم ، وألحق بفعلته الشنعاء أضراراً بالغة بالنادى الأهلى المصرى الذى هرب منه بليل ، إلى نادٍ أجنبى مغمور فى سويسرا .. ومع اتفاق الجميع على إدانة هذا التصرف المعيب ، فإن أحداً لم يصف حارس المرمى الهارب بأنه لص أو محتال ، بل لم يعدم من يلتمسون له الأعذار تبعاً للون الذى يشجعونه ، وشرعت أقلام وأبواق تعارض الإيقاف الذى قضت به المحكمة الرياضية الدولية جزاء الفعلة النكراء ، محتجة بمصلحة المنتخب القومى ألا يحرم من مساهمة اللاعبين فى صفوفه ، فلما انتهت التعلّة ، اختلقت أعذار جديدة لتبرير ما لا يمكن تبريره ، ولم يجد النادى الإسماعيلى ثم نادى الزمالك ، لم يجداً بأساً من الإغضاء عمّا فعل وعن الإيقاف ، والتعاقد معه على التوالى ، وليبذل كل منهما ما بوسعه للتخلص من الإيقاف أو إرجائه بأى وسيلة .. وطوال مدة تقرب الآن من ثلاثة أعوام لم تُنفذ الغرامة المالية أو الإيقاف المحكوم بهما حكماً نهائياً ، ولم يحصل النادى الأهلى المصرى - لاحظ المصرى ! - على حقه المفتأت عليه ،

(*) المال ١٠/٨/٢٠١٠ .

ومع ذلك لم تنفعل الأعلام الملونة ، ولم تعلق على تراخى تنفيذ العقوبة طوال هذه السنوات ، ولا وصفت فعلة اللاعب بأنها لصوصية أو نعتته بأنه لص ! تذكرت ذلك وأنا أطلع صفحة إحدى صحفنا الخاصة وقد امتلأت عن آخرها بهانشيات تصف اللاعب المصرى عماد متعب ابن النادى الأهلى المصرى بأنه لص ومحتال ، وتبنى وجهة نظر النادى البلجيكى ، وتختار هى الأخرى ما تشاء من النعوت الموغلة فى السب والقذف ، فتنعت اللاعب بأقذع الألفاظ والإهانة ، وتتجاوز اللاعب إلى النادى الأهلى المصرى - لاحظ المصرى ! فتنسب إليه بلا منطق ولا حجة ولا دليل - أنه ساعد اللاعب على تدمير مستقبله وهياً له أن يُفصل من الجامعة الخاصة التى يدرس فيها ، لا لشيء إلا ليحل طلبه للتجنيد فيجد مسوغاً لإنهاء تعاوقه مع النادى البلجيكى بطريقة ودية من المفترض أن يرد خلالها ما تقاضاه إن كان قد تقاضى شيئاً .

توقفت طويلاً إزاء هذه المرايا المعكوسة التى لم تجد بأساً فى مفارقة لاعب مصرى لناديه الأهلى المصرى للالتحاق بناذ سويسرى أجنبى غير مصرى ، بينما تجد كل البأس على لاعب مصرى آخر بتهمة أنه يريد الرجوع - ودياً - فى اتفاقه مع النادى البلجيكى ليعود إلى ناديه الأهلى المصرى . وتوقفت متعجباً من الرغبة المحمومة فى نفس اللاعب وتدميره بنعته بأنه لص ، مع أنه لا ولم ينازع فى حق النادى البلجيكى أو فى استعدادة لرد الأوضاع إلى ما كانت عليه ، فإذا كان عذر التجنيد مفتعلاً حسب اتهام الجريدة ، فإن التجنيد سوف يحل بالضرورة بعد شهور قليلة حتى وإن لم يفصل اللاعب من الجامعة الخاصة ، ومن ثم فإن قصارى ما يمكن نسبته إلى اللاعب أنه

غلبه تعلقه بوطنه ، ولم يستطع المضى فى العيش بعيدا عنه ، فآثر أن يعود إلى أحضان بلده . فماذا فى هذا ينطوى على اللصوصية ، ولماذا كل هذا الهجوم الشرس ورغبة التدمير لمجرد أن اللاعب يريد ودّيًا فسخ تعاقد استبان له أنه غير قادر على الوفاء به ؛ لأنه ببساطة لم يستطع أن يقبى بعيدا عن وطنه ، ولماذا يصير طلب الفسخ وهو تصرف قانونى ، لماذا يصير لصوصية ويصير اللاعب لصًا ، مع أنه لا ينازع فى حقوق النادى البلجيكى ، وليس فى إمكانه بداهة أن يلزمه بالكف عن المقاضاة بطلب تعويض إن كان له مقتضى !

فلماذا إذن يُنعت اللاعب بأنه لص ، ولماذا التماهى باختلاق ذرائع وهمية لمهاجمة النادى الأهلى المصرى وجره إلى مشكلة ليس طرفا فيها ، والتجديف بلا منطق بأنه يعاون اللاعب على تدمير مستقبله بافتعال فصله من الجامعة الخاصة ؟! هل تبرر الانحيازات للأندية هذا التعاكس فى الرؤية ، فلا ترى المرايا المعكوسة هذا التضاد والانحياز البغيض الذى لم يعد يميز بين الوطنى والأجنبى ، ولا بين الهروب بليلى وبين طلب الفسخ الودى فى العلن ورد الأوضاع إلى ما كانت عليه .

فارق فى المسئولية ، بين القصد والتعمد المنطوى على هروب خفى - فى عز الموسم - مقرون بالتحلل من الالتزامات والإضرار بناى مصرى عاش فيه الحارس الهارب سنوات طوالا حقق فيها لنفسه مجداً وثروة ، وبين عجز عن تنفيذ عقد مستجد صدق طالب الفسخ مع نفسه حين اتضح له أنه لن يستطيع العيش خارج بلده ومغالبة حنينه إلى وطنه ، فأفصح عن رغبته فى علانية والتزام بحقوق النادى البلجيكى !

من حق النادى البلجيكى أن يغضب ، ومن حق الناقد المنصف أن يلوم
اللاعب على عدم تقديره الأمور من البداية تقديرًا صحيحًا ، ومن الوارد
أن يتلقى اللاعب عقوبة على تعاقدته ثم تراجعها وطلبه الفسخ ، ولكن ذلك
كله لا يبرر وصف اللاعب بالصوصية أو نعته بأنه لص ، ولا يبرر التهجم
بلا منطق ولا حجة على النادى الأهل .. هذا الصرح المصرى الذى يبدو
أنه الهدف ، وأن ألوان الانحيازات البغيضة الراقدة فى الأعماق ، هى التى
دعت إلى هذا التحامل الشديد على اللاعب ، تحاملاً ترك النقد - وهو مباح
ومقبول - إلى الشتم والسب والقذف بأقذع النعوت والأوصاف والألفاظ !!

من تراب الطريق

(٤٧٦) الدين والمال (*)

في كتابه الرابع : «معالم التقريب» يطرح أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد ،
الفقيه الشاعر الأديب ، اتصال الدين بالمال من زاوية استخدامه والانتفاع
به ، فيرى أن ذلك اتصال حتمى ليس منه مفر .. إذ الدين لا تنقطع حاجته
لاستخدام المال ، ولذلك وغيره كانت الزكاة من أركان الإسلام ، وكانت
الصدقة من أوكد وسائل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى .

والتقرب إلى الله بإنفاق المال ، يجد طريقه الرئيسى فى بر الفقراء والمحتاجين
والغارين ، ومن أجل هؤلاء قيل للقادرين - بنص الكتاب - ﴿مَنْ ذَا الَّذِي
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ؟ .. فالدين يحمل على عاتقه أعباء ومشاكل الفقر
والفقراء والضعفاء .. فهو يجبر كسرهم ، وينصر ضعفهم ، ويكفكف ويتبنى
حاجاتهم ، ويضعها فى صدارة وأولوية وجوه إنفاق المال لله ..

وحتى حين يجاوز الدين عنفوانه ، وحين يعود المال فى النفوس إلى مركز
الأهمية والتصدر ، ترى المال حاضراً بمشيئة أصحابه فى توجيه صدقاتهم
ونذورهم وما يجبسونه من أوقاف وغيرها لعمل الخير .. وكثيراً ما يتوخى
هؤلاء تخليد الذكر باستخدام المال فى إقامة ما يبقى من الآثار المادية ، وقد
يضمّنون فى ذات الوقت بإنفاق أموالهم أن تستهلكها أولاً بأول حاجة الفقراء ،
يفضلون إنفاقها فى المساجد الفخمة ، وتهيتها بالفرش الغالى والتحف
النفيسة هى وما يلحق بها من المكاتب والمدارس والسبل .. فيخالط تأثير

(*) المال ١٢/٨/٢٠١٠ .

الدين فى أذهان وخیال الناس - فخامة البناء ومثانة المعمار وروعة الفنون والصناعات الزخرفية والتشكلیة .

وقد ألفنا وألف أسلافنا ذلك من عدة قرون ، فصار بذل المال للقربى من هذا الطريق - وسیلة للتعبير عن التدين ، وأیا كان مصدر المال أو وسیلة الحصول علیه وجمعه ، وصارت هذه القرب الدينية بابا لاكتساب تقدير عامة الناس وجماعة المتدينين . ومحال على أهل التقرب وغيرها من الدعوات الإسلامية - محال علیهم تجاهل هذا الواقع القבدم عمیق الجذور .. ولكن علیهم محاولة تلطیفه وتخفیفه بمحاولة نقل جانب من اهتمام الناس من هذه القرب الموضوعية إلى المزید من الاهتمام بتضاريس الناس ، وإلى المزید من رصد الأموال والقدرات لخدمتها والتقرب إلى الله برعايتها ونصرتها .

وربما كان واضحا أنه لم يعد بالوسع رد المسلمين إلى بساطة الحياة التى كان علیها المسلمون الأوائل إبان عنفوان الدين ، فالحق الذى لا یبارى فیه إلا مکابر - أن غالبية المسلمين لم یعودوا قادرین - من قرون - قدرة آبائهم الأوائل ، على تذوق المعنویات والتنبه إليها والانفعال بها إلا فى إطار مادی حسی جذاب .. ولم يعد ذلك الأثر الذى كان للمظهر المسکین ، ولا صار فیه ما یوحى بالقداسة لمعظم الناس . لذلك انصرفوا - كما نلاحظ - إلى المبالغة فى تزین المصاحف والمساجد والمزارات والقبور وغيرها من الأماكن العزیزة علیهم أو ذات القداسة عندهم . فقد فتر شیئا فشیئا الاهتمام الشدید بالمعنویات وما كان یصاحبها فى البدايات من بساطة تامة وازدراء للمظاهر المادیة ، ثم أخذت حياة الناس تجمع بین الطابعین الروحى والحسى ، وظل هذا الجمع مقترنا بالاتزان البعید عن المبالغة ، حتى أوغل بندوق التاریخ فى

الانحراف نحو الحسيّات ، فتقلص الطابع الروحي ، وتغلب الطابع الحسي ، حتى لم يعد معظم الناس قادرين على تصور وتذوق المعنويات والروحانيات بمعزل عن هذه الإطارات الحسيّة التي دخلتها الفخامة والأبهة !

إن الدين ليس وسيلة تحمي المكانة والهيبة للعالمين في الأرض ، بل هو وكما أراد الله روضة سمحة لبر الفقراء والضعفاء والمحتاجين ، وباحة تؤوي حيرتهم وغربتهم ، وتمنع ظلمهم ، وتكفكف ضعفهم وتعينهم على بلائهم ! وعصرنا على كثرة ما استحدث فيه ، أطلت فيه بقوة مشكلة الفوارق الاجتماعية الضخمة ، وشدة وعمق الشعور بانقسام الناس انقسامًا حادًا إلى مهمّين وغير مهمّين ، وما يبنى على هذا من تقسيمات فرعية أوجدت ما يشبه الهرم الذي يتسئم قمته أفراد قلائل ، منهم تتدرج الأهمية نازلة درجة درجة حتى تبلغ أرض المجتمع حيث تنعدم أهمية الأفراد كأفراد ، ويشيع الإحساس بالرخص أمام قوة ومكانة المال !!

ولم تغلح النظريات والنظم الحديثة ، ولم توفق إلى وسيلة تساعد الإنسان الفرد العادي على تقبل هذا الشعور المرير بالرخص وعدم الأهمية ، إزاء أناس آخرين يراهم ويعرفهم ، يتمتعون بالأهمية ، وحياتهم ثمينة جدًا بعكس حياته المسترخصة !!

والإذعان للأمر الواقع لا يمنع الناس من النظر ولا من عقد المقارنة ، ولا من عدم الاقتناع وعدم الرضا الذي قد يبلغ في بعض النفوس مبلغًا يدعو إلى الحقد والتطلع للتدمير ! وهذه النتيجة الكثيرة تبدو حتمية ليس منها مفر حين تقاس أهمية الإنسان بمقاييس تستند إلى قيم مادية !

والله ﷻ لا يقبل هذا ولا يرضاه ، ولا يقبل الدين أن ينقسم الناس إلى مهمّين وغير مهمّين ؛ لأنهم جميعًا مهمّون في عين الرب تبارك وتعالى

.. مهمّون كأحاد وأرواح كل منها طائره في عنقه .. فكل إنسان أيّا كانت
نظرة الدنيا إليه ، وأيّا كان مكانه أو مكانته ، يستطيع أن يضع يده المسكينه
في يد الرب مالك الملك والملكوت ، فلا يتركها عنه إلا إذا سحبها صاحبها
في ساعة شقوة . إن عين الحق سبحانه وتعالى لا تبالي بالفوارق بين القصر
والكوخ ، وإنما ترى الفوارق في قلوب ساكنيها .. ولا يوجد في القرآن المجيد
إلا مصدر واحد لأهمية الإنسان في عين نفسه وفي عيون الناس - هو التقوى
والعمل الصالح والولاء الصادق لله عنه بلا شريك .

من تراب الطريق

(٤٧٧) سنن الأسباب (٥)

لفتنى قراءة فى مقدمة فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالى - رحمه الله ،
إلى قراءة أو رؤية بالغة الأهمية لصلاة الخوف التى سنها القرآن المجيد ..
تستحضر معانى لافتة لعناية الإسلام باتخاذ الأسباب مهما كانت الصوارف
أو المصاعب أو الأخطار ..

يقول الحكيم الخبير ، تعالت حكمته ، إلى رسوله المصطفى - صلى الله
عليه وسلم : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ
مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ
طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا
أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء] ..

ومن يتأمل هذه الآية ، يرى كيف تنبه إلى وجوب الحذر والأخذ
بأسباب ، حين تقوم موجباتها ، حتى فى الصلاة والعابدين بين يدى رب
العزة .. فالآية ترتب صلاة الخوف للمصلين الذين تتهددهم أخطار ، كيف
يؤدون الصلاة آخذين بأسباب الحذر ، تأمرهم أن تقوم طائفة منهم معها
أسلحتها ليكونوا وراء الساجدين ، ولتأتى طائفة أخرى لم يصلوا فيصلوا
مع الرسول ﷺ ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم حتى لا يميل عليهم

(*) المال ١٧/٨/٢٠١٠ .

الأعداء ميلة واحدة مستغلين قيامهم بمناسك الصلاة .. فتأمل كيف يُكَلِّفُ العابدون ، وهم في صلاتهم بين يدي الله - بأشد الحذر والانتباه لما يتهددهم من خطر ؟ شئت حكمة الله تعالى وعنايته أن تستحضر وجوب الأخذ بالأسباب مهما كانت الصوارف وحتى في العبادات .. فلم تعدهم الآية بملائكة تنزل لتحمي المصلين ، وإنما أوكلت إليهم أن ينظموا أنفسهم ويتخذوا من الأسباب والاحتياطات والترتيبات في صلاتهم ما يؤمنهم من الخطر الذي يتهددهم .

ومن يتأمل النواتج النهائية في معركة أُحُد التي شنها الكفار وطواغيت قريش على المسلمين في المدينة المنورة ، وأجأوهم إلى الخروج لمواجهتهم في أُحُد حتى لا يدعوا لهم فرصة مdahمة الأسر والبيوت في المدينة .. من يتأمل مسار هذه المعركة ، وكيف دان النصر في بدايتها للمسلمين على الكفار الذين كانوا أكثر عدداً وعدة ، حين التزموا الأخذ بالأسباب ، سرى أن الدائرة لم تدر عليهم في نهايتها إلا حينما تركوا الأسباب وغادروا قمة الجبل التي كانوا يسيطرون منها على المعركة ، فلم يكن البلاء الذي حلّ بالمسلمين ، إلا إشارة جلية لأثر ترك الأخذ بالأسباب !!

ومع أن القرآن الحكيم معجزة الإسلام إلى الدنيا في كل عصر ، في بلاغته ورصفه وبيانه وجرسه ومعماره وهدايته وأحكامه ، وصلاحيته لكل مكان وزمان ، إلا أنه نوّه بالعقل وقام على إيقاظ المواهب العليا في الإنسان ، ودعوته إلى إعمال عقله ، والتدبر والتفكير ، وجعل النبوة المحمدية نبوة هداية تحاطب العقل والوجدان والضمير ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم وخوارق وأهوال ، أو دعوة لترك اتخاذ الأسباب . بل ترى أن النبي - عليه

الصلاة والسلام - جاءت سمعة المعجزة (المادية) الخارقة يوم مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس وظن الناس أنها كسفت لموته ، فأبى عليهم ذلك ، وقال لهم : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته .

وتروى الأخبار الماثورة كثيرًا من المعجزات والخوارق التي صاحبها مولد محمد - عليه الصلاة والسلام - وطفولته ، ولكنه لم يذكر قط معجزة متصلة بشخصه ، فكانت نبوته هداية للعقل والضمير ، لم تتوسل في هدايتها بالخوارق والقوارع الحسية ، بل عنيت بصرف الناس عن التعلق بها والتنبيه إلى احتمالات تعطيلها للملكة العقل في استقبال هداية الله .

فيقول عليه السلام للناس إنه ليس إلا بشرًا رسولًا ، ويتلو عليهم من قول ربه : ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ يَبْتُ مِّنْ ذُرْفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرِيقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٧] .. علم عليه الصلاة والسلام - علم الناس أن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله ، ولا تقنع المكابر المبطل إذا أصر على العناد واللجاجة في باطله .. لم تختلط هذه النبوة الهادية ، بسحر ولا بكهانة ولا بتنجيم .. بل يحرص حاملها على نفى ذلك ، ويدعو المؤمنين للأخذ بالأسباب وعدم إيكال الأمور للخوارق أو استطلاع الغيب ، فيتلو عليهم من قول ربه : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .. ويقول لهم من قول ربه سبحانه وتعالى له : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠] .

من يتأمل الكون العظيم الذي أمر القرآن الحكيم بالتأمل والتفكير في آياته ، يلفته أن إرادة الله ﷻ قد شاءت أن تقيمه على سنن الأسباب .. يراها المتأمل

حاضرة فى كل ركن من أركان هذا الكون .. فى الأرض التى تدور حول
نفسها لتهب الليل والنهار ، وفى الجاذبية المحسوبة بمقدار لتسير الأفلاك فى
مسارها بالسما لا تتعدها .. فى الشمس التى تهب النور والدفع والحياة ،
وفى دورة البخر الذى يتحول إلى غمام تهطل منه الأمطار لتجرى بها الأنهار
لتهيم سبل العيش للكائنات ..

لم يقل الرسول - صلى الله عليه وسلم ، ولا قال أحد من صحابته ، أن
السما تسعى لهم من حيث يقعدون ، أو تنشط لهم حيث يتكاسلون ، ولم
تكن خوارق العادات ونواقض الأسباب أساسًا ولا طلاءً فى بناء هذه الأمة
المحمدية ، فلم ينخرم للنبي عليه السلام وصحابته قانون من قوانين الأرض ،
ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة ، بل تعبوا وكذبوا أكثر مما تعب وكذب
آخر جوههم وتحالفوا وتمالخوا عليهم ، وحل هؤلاء السابقون الأولون - حملوا
المغارم الباهظة فى سبيل ربهم ، فمكن سبحانه وتعالى لهم بما قدموه واتخذوه
من أسباب ..

من تراب الطريق

(٤٧٨) الحكمة ضالة العقلاء (*)

ربما قرأ كليلة ودمثة كثيرون ، ولكن من تأملوها قليلون .. مع أنه ورد في تقدمتها التي سطرها «بهنود بن سحوان» المعروف بعليّ بن الشاه الفارسي ، أن يبدب الفيلسوف الهندي حين صنف هذه الرسالة لدبشليم الملك وجعلها على ألسن الحيوانات والطيور ، قد قصد بها تنزيه الحكمة التي حوتها ، بأن جعل ظاهر الكلام لهوًا للعوام والخواص ، وباطنه رياضة لعقول الخاصة .. فصار الحيوان لهوًا ، وما ينطق به حكمةً وأدبًا !

من القصص التي يمر عليها الناس مرّ الكرام ، حكاية الثور الأبيض الذي تحالف وتآمر مع الأسد ، وساعده على التهام الثور الأسود .. وهو يمتنى نفسه بأن يخلو له الجو باغتيال غريمه الأسود ، فتأتيه الزعامة هينة مقبلة ساعية إليه ما دام المجال قد خلا من منافسه ، وصار هو بلا منازع ينازعه ، أو منافس يطاوله .. جرت الأمور على ما أحبه وأراده الأسد الذي أتى على الثور الأسود والتهمة التهامًا ، ولكن أحدًا لم يدرك مغزى صرخة الثور الأبيض الذي استبان له في لحظة كشف ، أن الدور قد جاء عليه هو ليلتهمه الأسد .. أو كما قيل : « لقد أكلت حين أكل الثور الأسود » .

قليلون هم من تعلّموا الحكمة التي تعلّمها الثعلب من رأس الذئب الطائر ، وقليلون من توقفوا عند ما نقله الدكتور نصر حامد أبوزيد عن أحد المفكرين الألمان في عصر النازي .. قال المفكر الناعم بتوحده في عالمه ،

(*) المال ٢٠١٠/٨/١٩

المنكفى على ذاته ، الذى لا يعنيه شىء مادام لا يمسه : « حين بدأ القبض على «اليهود» لم أهتم .. فلست يهوديًا ، وحين بدأ القبض على «الشيوعيين» لم أهتم .. فلست شيوعيا ، وحين بدأ القبض على «المعارضين» لم أهتم .. فلم أكن معارضا ، وحين أتوا للقبض على لم يكن هناك أحد ليدافع عني » .

اغتيال الدول أو الأوطان فرادى شبيه باغتيال الأشخاص فرادى .. تفقد الدول أو الأوطان قوتها وتأثيرها ومناعتها ، حين تفرط فى تساندها مع القريبين إليها ، فتؤخذ واحداً وراء آخر ، أو تؤكل قضمة وراء قضمة .. كان هذا حال البلدان الأوروبية فى بدايات موجات الهجوم الهتلري النازى عليها واحتلالها تباعا ، ولم تفق أو تنتفض للخطر الداهم إلاّ وجيوش النازى تحتاح فرنسا بعد أن سقطت الدول الأوروبية أمامها تباعا ، وهكذا كان سقوط الأقطار أمام موجات المغول وجيوش التتار ، وها نحن نرى أن «البلقنة» صارت تطبيقا دوليا لمنطق فرق تسد .. وينسى الناس بسرعة أن الشام كانت وحدة واحدة قبل أن يجرى بلقنتها إلى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين التى أخذها الغراب وطار ! وينسون أن المنطقة العربية بأسرها قد جرت بلقنتها فى السابق ، وتجري محاولات بلقنة المتبقى منها فى الحاضر .. إن لم يكن بالتفتيت الإقليمى إلى دويلات وأقطار وإمارات ، فبالتفتيت الطائفى أو العرقى أو المذهبى لتتحول الأمة إلى كيانات مبعثرة .. فى السابق جرت بلقنة الإمبراطورية العربية العباسية ثم العثمانية ، وتفتيت ما بقى من هذه الأخيرة ، وقضوا على وحدة الدولة الكبيرة التى كانت تضم مصر والسودان والشام والحجاز .. ثم استداروا إلى شبه الجزيرة العربية وما حولها ففتتوها إلى «محميات» و«إمارات» و«دويلات» ، وقسموا اليمن إلى

جنوب وشمال ، مثلما جرت من زمن «بلقنة» المغرب العربى إلى ليبيا وتونس
والجزائر والمغرب ، وجعلت سياسة «البلقنة» تثير مشكلة الصحراء الغربية
والبوليساريو ، وتوقظ العصبية والطائفية والعرقية والإقليميات فى
كل ربوع الوطن العربى الكبير ، وتشعل ما بين السنة والشيعه ! وهاهم
العرب ينسون أو يتناسون أن وحدة وادى النيل قد انقسمت إلى مصر
والسودان ، ثم لا يتعظون فيغفلون عن الفصم بين شمال وجنوب السودان
الجارى الآن على قدم وساق ! ولا يتفطنون إلى نوايا العبث فى الوحدة
المصرية بإثارة الطائفية وصناعة الاحتقانات لخطر الأمة ودفعها إلى مصير
بائس لا تحمد عقباه !!

ظنى أن حالنا وحال العرب اليوم ، كحال المفكر الألمانى الذى ظل
يسلت نفسه وينسلخ من المسئولية ، مرة وراء مرة ، حتى أفاق وقد صار الدور
عليه ، ولم يعد يوجد من يحميه أو يعاضده أو يقف إلى جواره . ولولا خوف
إساءة الفهم أو الإغضاب ، لتمثلت بخيبة الثور الأبيض الذى لم يدرك أن
الأسد سوف يرتد إليه ليلتهمه بعد أن التهم من تصور أنه يزيحه من طريقه
لتنصرف إليه القيادة والرئاسة بلا نظير ولا معوق ولا منافس !

ترى كم من البلايا تلم بنا من جراء الغفلة وقصور الفهم وغياب التفطن ،
مع الإغراق فى طلب التصدر والوجاهة والانفراد بالصولة حتى فى التفاهات ؟!

من تراب الطريق

(٤٧٩)

القنبرة والفيل: (*) لا يأس مع العقل والحيلة!

يروى على بن الشاه الفارسي ، في مقدمته لأسباب كتابه : «كلىلة ودمنة» ، أن الإسكندر ذا القرنين ، كان قد ترك على بلاد الهند رجلا من شيعته ، فلما جعل يستهين بأمرهم ، تألبوا عليه ، وأجمعوا أن يملكوا عليهم رجلا مع أولاد ملوكهم هو دبشليم الملك . ولكنه لما استقر به الملك ، واستوثق له الأمر ، طغى وتجبر ، وجعل يغزو من حوله ، حتى هابه الملوك من حوله ، والرعية في بلده .

فلما رأى الفيلسوف بيدبا ، وكان حكيما فاضلا من البراهمة ، ما عليه الملك دبشليم من ظلم للرعية ، فكر في حيلة يصرفه بها عنهم ، فجمع لذلك تلامذته ، وجعل يستعرض معهم سبل مقاومته ويستبعدها واحداً وراء آخر ، لعل وأسباب أبداها ، ثم طفق يرشدهم بعد حديث طويل أنه لا سبيل لمقاومة هذا الظالم المتجبر ، إلا بالترويض والحيلة . ولكن كيف ؟ طفق بيدبا يروى لتلاميذه حكاية القنبرة (عصفور مخروطى المنقار) مع الفيل . فقد اتخذت لها عشا وباضت فيه ، فوطئه الفيل وهو في طريقه إلى مورد الماء ، فلما رأت القنبرة بيضها مهشما ، طارت حتى وقعت على رأس الفيل باكية ، وقالت له : أيها الملك ، لم هشمت بيضى وقتلت أفرأخي ؟ أفعلت ذلك استضعافاً لي واحتقاراً لأمرى ؟ فقال : هو الذى حملنى على ذلك . فتركته القنبرة مكسورة الخاطر ، وذهبت تشكو إلى جماعة من الطيور ما نالها من الفيل . فقلن : وما

(*) المال ٢٤/٨/٢٠١٠ .

عسى أن نبلغ منه ونحن طير ضعاف؟! فقالت القنبرة للغربان والعقائق (جمع عقق وهو طائر صَحَّاب من الفصيلة الغرايية) : أحب منكن أن تنصرفن معى إلى الفيل فتفقأن عينيه ، فإنى بعد ذلك أحتال عليه بحيلة أخرى . فأجبنها إلى ما طلبت ، ومضين إلى الفيل فلم يزلن ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما ، وقعد الفيل عاجزا عن أن يهتدى إلى طريق طعامه ومشر به إلا ما يصادفه فى موضعه . .

فلما عرفت القنبرة ما أحاط به ، طارت إلى غدير فيه ضفادع كثيرة ، فشكت إليهن ما نالها من الفيل فقلن لها : ما حيلتنا نحن أمام عظمة الفيل وأنى نبلغ منه؟! قالت لهن القنبرة : أريد أن توافين معى إلى موضع «حفرة» كبيرة بالقرب منه ، فتتقنقن وتحدثن صخباً وضجيجاً ، فإذا سمع أصواتكن ظن أنه الماء فيهوى فيها . فأجابتها الضفادع إلى ذلك ، واجتمعن فى الحفرة الكبيرة ، وجعلن ينقنقن ويصخبن فسمعهن الفيل وقد أجهد العطش ، فأقبل حتى وقع فى الحفرة وارطم فى قاعها . هنالك جاءت القنبرة ، وجعلت ترفرف على رأسه وتقول له : أيها الطاغى المغتر بقوتك المحتقر لأمرى ، كيف رأيت عظيم حيلتى فى صغر حجمى عند عظيم جثتك وصغر همتك .

روى بيدبا قصة القنبرة لتلاميذه ، وطلب إليهم أن يشيروا بما يسنح لكل منهم من رأى ، فقالوا له : أيها الفيلسوف الفاضل الحكيم العادل ، أنت المقدم فىنا المفضل علينا ، فما عسى أن يكون رأينا عند رأيك وفهمنا عند فهمك؟!

شكر بيدبا لتلاميذه أنهم قالوا فأحسنوا ، وصرفهم ليذهب هو إلى الملك دبشليم ، فلما مثل بين يديه ، وطال حديث الملك قبل أن يسأله عن حاجته

ويأذن له في الحديث ، طفق بيدبا يقول له إنه وجد الأمور التى يختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان -أربعة، وفيها جماع كل ما فى العالم، وهى الحكمة والعفة والعقل والعدل، ولكل منها عناصر، وأضدادها هى المساوى.

طال الكلام بين بيدبا الفيلسوف ودبشليم الملك ، وهو ملء بالحكم والعظات والعبر ، وقد أعود إليه يوما ، ولكن ما يعينى الآن هو حكاية القنبرة والفيل ، وكيف استطاعت القنبرة على قلة حجمها وضعف بنيانها ، أن تهزم الفيل على ضخامة جسمه ، ومثانة بنيانه .

لم تأس القنبرة أو تخلد إلى الاستسلام ، وهى حكاية من حكايات كثيرة دسها بيدبا الفيلسوف فى تضاعيف عمله الذى هو لهو وتسلية فى ظاهره ، وبحث فى دهايز الحكمة فى باطنه ، حتى قال بيدبا فى بعض حكاويه ، مفصحا عما يداريه : «وقد ينبغى للناظر فى كتابنا ألا يجعل غايته التصفح لتزاويقه ، بل ليشرف على ما تضمن من الأمثال حتى يأتى على آخره ويقف عند كل مثل وكلمة ويعمل فيها رويته .»

حكاية القنبرة والفيل ، حكاية صالحة للأفراد والمجاميع ، وللشعوب والدول ، وللحكام والمحكومين . ليس نادرا ، بل هو حال الدنيا ، أن القوة بكل صورها وأشكالها ماضية فى طريقها ، يتسلح بها الحكام وأصحاب السلطان ، وتتقوى بها الحكومات ، ويجمع أسبابها كل صاحب غرض يريد أن يأخذ من الدنيا أكثر مما يستحقه ، ويتغول من أجل ذلك على ما ليس له . وسواد الناس لا سبيل لهم لحيازة هذه القوة التى تقهرهم بها الحكومات والحكام ، وأصحاب الجاه ، والسلطان والثروات ، ولكن الحيلة بنت من يبحث عنها وينشدها ، تدين للعقل ، والعقل منحة قد لا تصادفها القوة

المغترية بنفسها ، فتفقد الفطنة وتعوزها البصيرة فيأتيها ما لا تحب من حيث
لا تدري ولا تحتسب !

حيلة القنبرة لم تعوزها الإرادة والعزيمة ، ولم تترك التدبير.. ظنى أن
حكايتها ترسم طريق الخلاص للمقهورين المغلوبين على أمرهم ، أفرادًا
وشعوبًا ، وتقدم المثل الحى على أن الإصرار لا تعوزه الحيلة ما دام يمتلك
العقل والإرادة وقوة العزيمة !

من تراب الطريق

(٤٨٠) البوم والغربان (*)

عقد بيدبا الفيلسوف ، في كتابه «كليلة ودمنة» ، وترجمه إلينا عبد الله بن المقفع الذى قتلناه !- عقد بابا للبوم والغربان ، قال دبشليم الملك لييدبا الحكيم الفيلسوف : قد ضربت لى مثلاً إخوان الصفا المتعاونين المتحايين ، فهل تضرب لى مثلاً للعدو الذى لا ينبغي الاغترار به وإن أظهر حسن الصفح والملقى فى العلانية ؟

أجابه بيدبا ، بأن من اغتر بمثل هذا العدو ، أصابه ما يصيب الغربان !
قال الملك : وكيف كان ذلك .

’طق الفيلسوف الحكيم يروى ما كان من أمر شجرة عظيمة كأعظم ما تكون الدوح ، وفيها وكر لألف غراب عليهم ملك منهم ، وفى ليلة من الليالى أغار ملك البوم بمن معه على الغربان لما بينهم من عداوة ، فقتل وجرح منهم كثيرين . فلما أصبح ملك الغربان ، دعا إليه الباقين على قيد الحياة ، فأنبههم على جراءة البوم عليهم ، وطلب إليهم أن ينظروا فى أمرهم ماذا هم فاعلون . وكان فى الغربان خمسة معترف لهم بفضيلة الرأى : قال أولهم إن العلماء سبقوا إلى هذا الرأى ، فليس للعدو الحائق الذى لا يطاق له حيلة ، إلا الحرب منه .

أما الغراب الثانى ، فلم ير أن الفرار هو الصواب ، أخذاً على سلفه ما أبداه ، وقَفَّى فقال : كيف نجلو عن بلادنا وعن أوطاننا (لا أقصد الإسقاط

(*) المال ٢٥/٨/٢٠١٠ .

هنا على فلسطين !) ونذل لعدونا عند أول نكبة أصابتنا ؟ علينا أن نجتمع أمرنا ونستعد لمجاهدة عدونا ونذكي العيون فيما بيننا وبينه (الحذر والمراقبة) ، ونحترس من عودة البوم وأخذنا على غرة ، فإذا أقبل علينا عدونا لا قيناه مستعدين ، فنقاتلهم مزاحفة ، ونحترز منهم تحرزا حصيناً ، وندفعهم بالأناة مرة وبالجهد أخرى ، حتى نصيب فرصتنا ، فإذا أعيانا ذلك كان للهرب علة وعذر ! ولكن الغراب الثالث رأى رأياً آخر ، حبذ فيه التحرز والمراقبة واستطلاع العدو لمعرفة نواياه ، هل يريد الصلح أم يقبل دية ، فإن كان من ذلك فائدة فإنه لا يكره الصلح على خراج يؤدي إليهم ، ذلك أنه إذا اشتدت شوكة العدو ، وخيف على الأنفس من الهلكة وعلى البلاد من الدمار (لم يكن الاستيلاء والاستيطان قد عرف بعد !) ، فإنه من الحكمة أن تكون الأموال «جُنة» (وقاء) للملوك والبلاد والرعية !

بيد أنه ما إن أذن الملك للغراب الرابع بالكلام ، حتى انتفض يعترض قائلاً : لا أراه رأياً ، بل أرى ترك أوطاننا والاصطبار على الغربة وشدة المعيشة (في المنفى !) ، فذلك خير من الخضوع للعدو ، وقد كان يقال ، فيما أبدى الغراب : «قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك ويضعف جنذك ويذل نفسك ! فالرأى لنا المحاربة والصبر» . التفت الملك إلى الغراب الخامس ، آملاً أن يجد لديه ما يفيد فيما شجر بين الغربان الأربعة من خلاف ، فسأله : ما ترى ؟ القتال أو الصلح أو الجلاء ؟ اشرأب الغراب الخامس يقول : أما القتال ، فلا سبيل إلى قتال عدو ليس المرء بقرين له ، والعاقل لا يستضعف عدوه ، فمن فعل ذلك اغتر ، ومن اغتر لم يسلم .. وأكيس الأقوام من لم يلتمس الأمر بالقتال إذا وجد غير

القتال سبيلا . وأضاف الغراب الخامس موصيا : إن النفقة في القتال هي عن الأنفس ، فلا يكون قتال اليوم من رأيك ، فإن من يرى القتل لا يرى كل الخير !

سأله الملك : إذا كرهت القتال - ماذا ترى ؟ قال الغراب : تؤامر وتتشاور . فالملك المشاور يصيب في مشاورته نصحا من ذوى العقول فيظفر بها لا يصيبه بضر ، والملك الحازم يزداد حزمه بالتشاور ورأى الوزراء . وأنت أيها الملك كذلك ، وقد استشرتني في أمور أجيبك في بعضها سرا وفي بعضها علانية . فأما ما لا أكره أن أعلنه ، فهو أنى كما لا أرى القتال ، فإنى لا أرى الخضوع بالخراج والرضا بذل القهر . فإنه خير للعاقل أن يموت صابرا من أن يعيش غريانا ذليلا (قديما قال شاعر : لا تسقنى ماء الحياة بذلة : بل اسقنى بالعز كأس الحنظل !

أما ما أريد أن أسره إليه .. قال الغراب : فإنه كان يقال : إنما يصيب الملوك الظفر بالحزم - والحزم بأصالة الرأى ، والرأى بتحصيل الأسرار ، ومن حصّن سره فله من تحصينه إياه أمران : إما ظفر بها يريد ، وإما يسلم من ضره وعيبه إن أخطأ . ولا بد لصاحب السر من مستشار مأمون يفضى إليه بسره ويعاونه على الرأى .

خلا الملك بالغراب الخامس ليستشيره ، فكان فيما سأل عنه - أن قال له : هل تعلم ما كان من بدء العداوة بيننا وبين البوم . قال : نعم ، كلمة تكلم بها غراب . قال الملك وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : إن سلفه قال لجماعة من الطير إنه لولا بادت وتبعثرت وتشتت الطيور ، ما ملكت البوم وهي أقبح الطير منظرا ، وأسوأهم مخبرا ،

وأقلهم عقولا .. ومن شر أمورها سفهها وسوء خلقها ، إلا أن الذى مكن لها أن جماعة الطيور استقلت برأيها ولم تعمل عقلها !

هنا توقفت عن الاسترسال مع بيدبا الفيلسوف ، وملت على صديقى الجالس بجوارى أسأله مازحا : دبرنى يا وزير . قال : التدابير لله يا ملك ! ملحوظة : ليس هذا حديثا فى السياسة .

من تراب الطريق

(٤٨١)

بالحب والوئام (*)
لا بالبغضاء والعداوة!

أعجب لحال صرح رياضي كبير ، هو أحد قطبي الأندية الرياضية في مصر ، تسلم إدارته ذقتها - أو مقاليدها - لشهوة الإغاطة التي سيطرت على شخصين يعرف القاصي والداني أنها يهيان حُبًا في النادي القطب الآخر . وأن أحدهما طلب أن يختم حياته بالملاعب فيه ، فلما رفض طلبه ومسعى من توسط له ، انقلب وقرينه في حملة محمومة ضده لم يكتشف مسئولو الصرح الرياضي الكبير أنها ليست حُبًا فيه بقدر ما هي رغبة في إغاطة النادي الآخر وإخراج اللسان له ، ولم تر إدارة الصرح الرياضي الكبير مدى المبالغة المموجة التي صَدَّرت مشهَدًا كوميديا عبثيا يوم ارتعى أحد القرينين باكيا على أكتاف رئيس الصرح الرياضي الكبير وهو يجهش بدموعه المتفطرة بأن النادي قد صار له الآن أبا وأما .. وكأن هذا الصرح الكبير كان يتيما قبل أن يلتحق القرينان به ، فلا كان له تاريخ ، ولا كان له قادة كبار ملؤوا عيون الشمس ، ولا لاعبون أفذاذ لا تزال الملاعب تتحدث بفنهم وإنجازاتهم ، وإنما كان هؤلاء جميعا - هم والنادي - أيتاما لقطاع حتى أتى الإنقاذ وثبوت النسب على يد المجهش بالبكاء !!

ما لا يلتفت إليه عشاق هذا الصرح الكبير ، أن التخبط والتراجع الذي أمض وأقلق الجميع - وأنا منهم ، سببه زرع البغضاء محل الحب .. ضاع الحب

(*) المال ٣١/٨/٢٠١٠ .

بين المتنافسين على المواقع ، مثلما ضاع بالتبعية بين اللاعبين الذين يسعى كل من المتنافسين المتقارعين لاستقطابه ناحيته واستمالته له على حساب تألف ووثام القلوب ووحدۃ الصف وروح الفريق ومصلحة النادي العريق .

هل فى مصلحة هذا الصرح الكبير أن يقحم على حارس مرماه ، وكابتن فريقه ، وصاحب أنشودة الإخلاص والمحبة والعطاء للنادى - حارسًا هرب بليلٍ من الصرح الآخر ، فى مشهد مؤسف تحدثت به الركبان ، وانتهى بجزاءات ثقيلة ، فيلهب الأمور ويزرع البغضاء وتبادل الهتافات فى المدرجات بين المتشيعين للحارسين ، حتى بلغت البغضاء حد تمنى انكشاف المرمى وإصابته بالأهداف فى حراسة هذا أو ذاك ليثبت كل فريق من الأشياء أنه على صواب وأن حارسه هو الأفضل !!

هل كانت هذه الحقائق غائبة أو يمكن أن تغيب عن إدارة النادي الكبير ، فإذا غابت عنه مع أنها تضم لاعبين سابقين خبروا الملاعب وصالوا وجالوا فيها ، فهل غاب ذلك أو كان يمكن أن يغيب عمن تبنى هذا الأمر رغم أنه صرم فى الملاعب سنين عددًا ، ويعرف تداعيات تحول وانقلاب المنافسة إلى بغضاء وعداوة ؟! وهل كان هذا القرار بضم الحارس الهارب بأمس ، وإثارة الاحتقانات بين الحارسين والجماهير ، فى مصلحة النادي الكبير ، أم أنه كان لمحض إخراج اللسان وإغاظة النادي المنافس ؟! ثم هل بلغت هذه الإغاظة - المتوهمة ! - غايتها بينما ذات هذا النادي المنافس قد أثر المبادئ ورفض ولم يستجب لدموع الحارس التى بذلها علنًا على شاشات الفضائيات ، معلنًا ندمه وتوبته على ما ارتكبه ، وأمنيته أن يعود إلى ناديه الأول الذى تركه هاربًا فى عز الموسم ؟!!!

وهل من حسن الإدارة - التجديد للاعب بمبلغ خيالى غير مسبوق فى بورصة اللاعبين بالنادى الكبير أو فى عموم الأندية المصرية ، مع أن اللاعب وقع لناد أجنبى وتقدم رسميًا بطلب لفسخ تعاقدته مع ناديه استغلالاً للمادة (٢٧) من لوائح الفيفا ، فإذا ارتأت الإدارة التجاوز عن كل ذلك ، فهل التفت التجديد بهذا المبلغ الهائل إلى أثره فى زرع الغيرة والبغضاء بين اللاعبين ، وماذا يكون شعور غيره ممن يأملون فى التجديد أو يطلبون جبر تعاقداتهم إلى حد معقول ، حينما يقارنون بين تراخى التعامل معهم أو الاستجابة إليهم ، وبين هذه الملاحقة الحثيثة اللوححة التى انتهت بتعاقد بمبلغ هائل للاعب تنكّر للنادى ووقع خلال فترة الحماية لنادٍ أجنبى دون أن يلجأ معاً إلى الطرق المشروعة ، مؤثراً أن يطعن ناديه فى ظهوره استغلالاً للمادة (٢٧) من لوائح الفيفا !!

من يتابع المشهد الجارى فى هذا الصرح الرياضى الكبير ، يلمس أن روح التحزب للذات قد غلبت على روح التوحد حتى توارت الألفة وتفشّت الفُرقة والخلاف ، وأن المشاكل تطرح على صفحات الصحف وشاشات الفضائيات ، لا للحل الذى يجب أن يجرى فى الغرف المغلقة ، وإنما لعرض وتفخيم وتقديم الذات !

ظنى أن هذا النادى الكبير لا يستحق ذلك من بنيه ، وأن الحل قريبٌ فى متناولهم لو أرادوه ، أن يحتكموا جميعاً إلى مصلحة النادى ، وأن تتوارى ذواتهم فى سبيل تحقيقها ، وأن يعيدوا الحب والوثام إلى جنبات النادى الذى طال شوقه ، وشوقنا معه ، إلى عودته إلى ما كان عليه ، وأن يحتل المكانة الرفيعة اللائقة به فى مقدمة النوادى المصرية .

**من
تراب
الطريق**

(٤٨٢)

الحمامة والثعلب ومالك الحزين (١٠)
«لا تنه عن شيء وتأتي مثله»

صادفني في كتاب «كليلة ودمنة» الذي كتبه بيدبا الفيلسوف الحكيم الهندي لدبشليم الملك ، قصة عن الحمامة والثعلب ومالك الحزين ، ظاهرها للتسلية وتزجية الفراغ ، وباطنها حكمة لمن يعقل ويفهم ..

كان دبشليم الملك قد جلس إلى الفيلسوف الحكيم يقول له إنه قد سمع ما ذكره له من أمر القضاء والقدر وغلبتهما على الأشياء ، وطلب إليه أن يخبره عمن يطلب ضرر غيره لما قد أصابه هو من الضر ، دون أن يتخذ مما نزل به واعظاً يزجره عن ارتكاب المظالم والعدوان على غيره . فطال بهما الحديث ، حتى طلب إليه الملك أن يضرب له مثلاً عمن يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه .

قال الفيلسوف : إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

فقال الملك : وما مثلهم ؟

قال الفيلسوف الحكيم : زعموا أن حمامة كانت تفرخ على قمة نخلة طويلة تكاد تبلغ عنان السماء ، وكانت تعاني تعباً ومشقة من نقل ووضع مستلزمات عشها على رأس تلك النخلة ، لطولها وارتفاعها ، فإذا فرغت من النقل وتبدير أمر «العش» باضت ثم حضنت بيضها حتى يفقس . فإذا فقس وخرجت الأفراخ ، جاءها ثعلب لثيم ، وهذا طبعه ، كان قد تعاهد على ذلك منها ، ويقدر بحسب الوقت اللازم لنهوض أفرأخها ، فإذا حل الميعاد

(*) المال ١/٩/٢٠١٠ .

الذى قدره ، وقف بأسفل النخلة يصيح بالحمامة ويتوعدها أن يرقى - أى يصعد - إليها ، فيتملكها الخوف والرعب من تهديده ، فتلقى إليه بأفراخها لتتقى شره !

وبينما هى ذات يوم قد أدرك لها فرخان ، إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة ، فلما رأى الحمامة كثية حزينة شديدة الهم ، سأها : ما لى أراك كاسفة البال سيئة الحال ؟! فقالت له الحمامة : يا مالك الحزين ، إن ثعلباً ذهبت به ، كلما كان لى فرخان ، جاءنى (الثعلب) يهددنى ويصيح فى أسفل النخلة ، فأفرق منه (أخاف وأرتعب) فألقى إليه بفرخى .. قال لها مالك الحزين ناصحاً : إذا أتاك الثعلب ليفعل ما تقولين ، فقولى له : لن ألقى إليك فرخى ، فأزق أنت إلى (أى اصعد أنت) ، وخذهما بنفسك ، فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخى - طرت عنك ونجوت بنفسى .

ألقي مالك الحزين بنصيحته الحكيمة ، وعَلَّمَ الحمامة بفطنته هذه الحيلة ، وانطلق راضياً فَحَطَّ رحاله على شاطئ أحد الأنهار ، بينما كان الثعلب المكار قد اتخذ أهبتة - كعادته ! - لالتهام أفراخ الحمامة ، وذهب إليها واثق الخطو إلى أسفل النخلة ، وجعل يناديها ويهددها كما كان يفعل فى كل مرة ، إلا أنه فوجئ برْدٍ جديد أدرك منه أن هناك من علمها هذه الحيلة ، فطفق يستدرجها بلؤمه أن تخبره بمن علمها هذا ؟ فقالت له : علمنى مالك الحزين .

انطلق الثعلب مغيطاً محنقاً يبحث عن مالك الحزين وقد اشتعل غضبه ، وظل فى بحثه حتى وجده واقفاً على شاطئ النهر ، فبادره الثعلب قائلاً : يا مالك الحزين ، ماذا أنت فاعل إذا أتتك الريح عن يمينك .. أين تجعل رأسك ؟ قال مالك : أجعله عن شمالى . قال الثعلب : فإذا أتتك عن شمالك .. أين

تجعل رأسك ؟ قال مالك : أجمعه عن يميني أو خلفي . فاستأنف الثعلب :
فإذا أتتك من كل مكان ومن كل ناحية .. أين تجعل رأسك ؟ قال مالك
أجمعه من تحت جناحي . فقال له الثعلب مستدرجا إياه في خبيث لئيم :
وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك ؟ ما أرى ذلك يتهياً لك !

كان أن التقط مالك الطعام ، فصمم على ما أبداه للثعلب وقال إنه يستطيع
ذلك ، فقال له ملك اللؤم والخبائث : إذن فأرني كيف تصنع . فلعمري يا
معشر الطير قد فضلكن الله علينا . إنكن تدرين في ساعة واحدة مثل ما ندرية
في ستة ، وتبلغن ما لا نبلغ ، وتستطعن إدخال رؤوسكن تحت أجنحتكن من
البرد والريح .. فهنيئاً لكن ، فأرني كيف تصنع ذلك ؟

اشتعل حماس مالك الحزين بعد هذا الإطراء ، فسارع بإدخال رأسه تحت
جناحيه ، ولكن قبل أن يخرججه كان الثعلب اللئيم قد وثب عليه وثبة واحدة ،
وجثم عليه يكسر عظامه ويقول له وهو يلتهمه : يا عدو نفسه ، ترى الرأي
للحماة وتعلمها الحيلة لنفسها ، وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك
عدوك !!

فكم من ناصح لغيره ، يعجز عن نصيح نفسه ، ولا يتعلم ما قاله الثعلب
للأسد حين سأله : من علمك الحكمة . قال : «رأس الذئب الطائر !!» .

من تراب الطريق

على هامش معالم التقريب^(*)
العلم والذكر، لا الكهانة

(٤٨٣)

يبدو أن الانسياق وراء الطابع الحسى السائد في هذه الدنيا ، والتأثر بالفخامة والأبهة والقوة والافتداء ، قاسم مشترك بين البشر بعامه ، ومع ذلك فإن الإسلام بمنظومة أحكامه ، وسير الصالحين بمر الزمان ، قد طبع الإعجاب بهذه النماذج في نفوسنا ، ومازلنا نسمع في أعماقنا - كما يقول محمد عبدالله محمد في معالم التقريب - أصوات آبائنا الأولين ، ومازالت نفوسنا تؤثر نماذجهم الفريدة الغالية الزاخرة بالقوة المترفعة في فقرها ، المتعالية على المال والمادة أو الزاهدة فيها وفي السلطان المستند إليهما أو المستمد منهما . قد نصفق ونعجب بالفخم كما صفق السابقون ، وننبهر بعزه وأبهته ، ولكن قلوبنا لا تزال تحفق كما خفقت قلوب آبائنا ، وما عساها تحفق قلوب أبنائنا من بعدنا - إغزاز وإجلالاً لرجل عظيم ساقى العظمة على القامة والمهابة .. لم ينجل من الفقر ، ولم يخشع حين ولى أمور الناس ، فحمل فقره معه وحوله ، سواء في حياته الخاصة أو حياته العامة ، وجابه به الدنيا بأسرها في وقار لا صلف ولا عقدة فيه ، وفي طمأنينة خالية من الادعاء ، وعفة خاشعة مجردة من الاستعراض ، ومجردة من الزهو بما كان له من هبة الصدق في العبودية لله والإخلاص والشجاعة في الولاء له سبحانه وتعالى وللمسلمين الذين وكلوا إليه أمورهم فحمل عنهم همومهم ، ولم يبحث عن استيلاء الهيبة من الفخامة أو الأبهة اللتين أغرق وأمعن فيهما كثيرون ، ولم يبيع لنفسه أن يتقاضى على

(*) المال ٧/٩/٢٠١٠ .

مهمته العظمى التى نذر لها حياته ونهاره وليله إلاّ النزر القليل ، فى الوقت الذى أعطى فيه للناس ما ميزهم به على أهل بيته .

فلم تكن حياته ولا حياة أولاده وأزواجه وذريته بأعز عنده من حيوات الناس ، بل كان يعطى هؤلاء ما لا يعطيه لأهله . سهر لتمام الرعية ، وشقى لترتاح ، وراعت صورته صاحب كسرى حين رآه مشتملا ببردة كاد العهد يلبسها ، بينما عهده بملوك الفرس أن لها سورا من الأحراس تحميها فوق الثرى ، رآه تحت ظل شجرة متدثرا بهذه البردة البالية ، فقال فيما نظمه حافظ إبراهيم شاعر النيل - قال قولة حق أصبحت مثلا ، وأصبح الجليل بعد الجليل يروبوها ، أمنت لما أقمت العدل بينهم ، فمنت نوم قرير العين هانيها .

عن الفاروق عمر بن الخطاب أحدثكم ، هذا الصحابى الجليل الذى لم تغيره إمارة المسلمين وخلافة خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، تفه فى فمه طعم السلطة وفهم أنها واجب ومسئولية ، لا صدارة ولا جاه ولا وجاهة ولا أبهة ولا ركوب على رقاب الناس . تستوقفه سيدة بسيطة وهو أمير المؤمنين ، ويطول بينها الحديث فلا يستعجلها ، ولا يضيق بها صدره ، فلما سألته رفقاؤه كيف أعطاها وأنصت لها كل هذا الوقت ، راجعهم متعجبا كيف لا يتوقف وينصت لها وهى التى سمع الله حوارها لرسوله المصطفى - صلى الله عليه وسلم ، وأنزل فى شأنها سورة المجادلة التى يقول جل وعلا فى بدايتها : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ ﴾ [المجادلة : ١] ، وأتمت السورة أحكام الظهار فيمن يظاهرون من نسائهم .

اشتراه الناس لأنفسهم يرم بايعوه بالخلافة أو بإمارة المسلمين ، وتملكوه حين ملكوه ، فعاش حياته فى خدمتهم ، ولم يميز نفسه ولا آله بشيء ، ولم

يرتكب ما يجتمى من الناس بسببه ، أو محتاط لأجله منهم ، فقتله بعض الناس وهو أفضل الناس لكى يوهب من ربه فرصة الموت من أجلهم فتم آية الله فيه .

على أن المال لم يقتصر اتصاله بالدين على بذل القُرْبَات ، أو فى استخدامه للتعبير عن التدين والعواطف الدينية ، وإنما بقى للمال - مع زهد هؤلاء الزاهدين الكرام - اتصال وثيق فى شأن توفير الخدمات الدينية . ولم يكن ذلك هو تكليف الإسلام فى أول عهده ، فلم يُحمَل الجماعة الإنسانية نفقات خدمة دينية متخصصة ، بل كان مُعرضاً عن ذلك ، ولم يعرف ولم يقر كهانة ، ورفض كل صور الوصاية على علاقة العبد بربه ، ولم يجعل الكهانة وساطة بين الإنسان وبين خالقه ، وإنما أحال الناس - فقط - إلى أهل الذكر فيما لا يعلمون . والملاحظ أن الإسلام منذ أول عهده قد حرص على جعل العلم هو فرض الكفاية على المسلم ، وندب كل مسلم حاز قدرًا كافياً من العلم بأحكام الدين للقيام بالخدمات الدينية العادية لنفسه ، ولمن يحتاجون إلى معونته من أهله وعشيرته وإخوانه ، بذلك صار كل مسلم حاز علماً من أهل الذكر وإن لم يكن من أهل الكهانة ، وصار عدد هؤلاء العلماء أضعاف عددهم فى الملل الأخرى ، فكاد عددهم يتساوى مع عدد البالغين من المسلمين الذين كانوا جميعاً مجتدين للدعوة والخدمة ، ذلك لأن دين المسلم اتصال مباشر بلا واسطة بينه وبين الله ، ولا تجوز فيه الإنابة إلا فى أحوال مستثناة للضرورة ، كالحج عن المريض العاجز . ومع ذلك فإن اتساع رقعة بلاد الإسلام وعدد المسلمين ، وتباين اللغات والعادات والظروف ، وصوارف الحياة ، أدى إلى ظهور التخصص والتفرغ فى الخدمة الدينية ، لا بدافع أو كستار للكهانة ،

وإنما للقيام بوظيفة أهل الذكر الذين يلجأ إليهم من لا يعلمون من دينهم ليتعلموا منهم ما يحبون معرفته .

وشيئاً فشيئاً نمت هذه التخصصات والفروع ، وأنشئت دور العلم والفقه ، وأوقفت الأوقاف للصرف عليها ، وأجريت الأرزاق لطلاب العلم وللقائمين عليه ، وصار للمال وظيفة ملحوظة في توفير الخدمات الدينية .

على أن الإسلام لم يسمح قط بتفوق أو تصدر أو تسلط المال والمادية بعامّة ، ولا سمح بأن يطردا المثالية من الأرض ، فهي قوة حيوية أقوى منهما سبباً ، تبقى حتى وإن ذوت - كامنة في البذور ، باعثة لآمال الناس ، ومنها تنهمر أمطار الفضل والرحمة - من لدن الرحيم الكريم الجواد ، فعادت هذه السنابل فنبتت ونمت وأينعت وأزهرت وأثمرت ، حتى ملأت الأنفس بالنماء والرجاء .

هذا السؤال عنوان لأحد فصول كتاب السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية ، لأستاذنا الجليل الراحل الشيخ عبد الوهاب خلاف ، ودرسنا عليه الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة القاهرة قبل أن يتوفاه ربه ونحن لما نزل طلابًا نطلب العلم في الكلية ، ولكن بقي على مدار الزمان أثرًا حيًا وصاحب منزلة رفيعة لدى من عرفوه أو زاملوه أو تلمذوا على يديه .

وفي هذا الكتاب المتميز ، يطرح الشيخ عبد الوهاب خلاف هذا السؤال ، ليورد أن السياسة العادلة لأية أمة هي تدبير شئونها الداخلية والخارجية بالنظم والقوانين التي تكفل الأمن لأفرادها وجماعاتها والعدل بينهم ، وتضمن تحقيق مصالحهم وتمهيد السبيل لرفيهم وتنظيم علاقتهم بغيرهم . والإسلام كفيل بذلك ، لأن أصوله تصلح أن تكون أساسا لهذه الغاية ، وبرهان ذلك أمران : أحدهما أن الأصل المصدر العام للإسلام - وهو القرآن المجيد - لم يتعرض - فيما عدا الموارث - لتفصيل الجزئيات ، بل نص على الأسس الثابتة والقواعد الكلية التي يبنى عليها تنظيم الشئون العامة . وهذه الأسس العامة تكاد تكون مشتركة بين الأمم ، قلما تختلف فيها أمة عن أمة أو زمان عن زمان ، أما التفصيلات التي يمكن أن يرد عليها الاختلاف -

(*) المال ٨/٩/٢٠١٠ .

فقد سكت عنها ليكون الاجتهاد سعة تتلمس فيه كل أمة مصالحها طبقاً لظروفها . ففى نظام الحكم لم يفصل القرآن الكريم نظاماً محدداً يشكل الحكومة ، ولا لتنظيم سلطاتها ولا لاختيار ولاية الأمر أو أولى الحل والعقد . وإنما اكتفى بالنص على الأصول والمبادئ والقواعد العامة ، أو إن شئت فقل على الدعائم الثابتة التى تقوم ويجب أن تعتمد عليها الحكومة الرشيدة العادلة ، فجعل العدل قوام الحكم بعامه ، وقيل فى القرآن المجيد : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] ، ونص على أن الشورى مبدأ عام يعين الراعى ويعطى الرعية حقها ، فوصف المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم ، وورد فى القرآن الحكيم فى وصفهم : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] ، والنبي ﷺ مأمور بالشورى ومندوب إليها ، فيقول له رب العزة : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران ١٥٩] .. وفى حديث رسول القرآن عليه السلام : «ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم» .. وفى رواية : «إلا عزم الله لهم بالرشد أو الذى ينفع» . أما كيف تكون الشورى ، وتفصيلات أدائها ، فمتروكة لظروف واجتهادات كل عصر .. لذلك كان المسلمون على الشورى ، مع اختلاف شكل البيعة فى كل مرة ، فى ولاية أبى بكر ثم ولاية عمر ثم عثمان ثم الإمام على . وكذلك فى المساواة ، فالآية تركت التفصيل إلى وضع الأساس ، فقال عز من قائل : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وهذا المنهج ملحوظ فى كل التفصيلات التى سكت عنها ليتسع للأمة وضع نظام الحكومة واختيار ولاية الأمور وكفالة الشورى وحسن الأداء بما يلائم أحوال الزمان والمكان ويتفق مع المصالح فى غير تجاوز لحدود العدل والشورى والمساواة .

وفي غير جرائم القصاص أو الحدود في شأن من يجاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض والمجتمع فسادًا ، أو يقتلون النفس التي حرم الله بغير حق ، فإن شريعة القرآن لم تحدد لسائر الجرائم الأخرى عقوبات محددة ، وتركت تقدير عقوباتها بما يراه ولاة الأمر والجماعة كفيلا بحفظ الأمن وردع المجرم وتخفيف منابع الإجرام وتحقيق الردع بمعناه العام والخاص ، حالة كون هذه التقديرات تختلف باختلاف البيئات والأمم والأماكن والأزمان ، وذلك دون إغفال مبدأ عام يتعين الالتزام به هو أن يكون العقاب على قدر الخطأ أو الجرم ، فقال عز من قائل : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل: ١٢٦] ، وقال : ﴿ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدَّوْا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤] ، وذلك دون إغفال اعتبارات الرحمة والصفح والغفران ، من مثل : ﴿ فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَلْيَبَاغْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨] ، ومثل : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠] ، ومثل : ﴿ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤] .

وفي المعاملات ، نصت شريعة الإسلام على إباحة ما يقتضيه تبادل الحاجات ودفع الضرورات ، فأحلت البيع والإجارة والرهن وغيرها من عقود المعاملات ، وأشارت إلى الأسس العامة التي يتعين الالتزام بها ، فلا ربا ولا تطفيف ولا أكل للأموال بالباطل ، ف قيل في القرآن المجيد : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُ بِحِكْمَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩] ، وعنى بالنص على منع المعاملات التي تؤدي للعداوات والبغضاء ، مثل الربا والميسر ، ثم فرض للمجتمع ضرائب

على أموال ذوى المال واليسار وعلى رؤوس بعض الأنفس ، ووجه حصيلتها
فى مصارف ثمانية تنغى سد نفقات المنافع العامة ومعونة الفقراء والمعوزين .
كنت أحب - لولا ضيق المجال - أن أحدثك عن معالم أخرى عديدة
حقق بها الإسلام كفالة العدل للمجتمع ، والضوابط بين الحاكم والحكومة
والمحكومين ، واستقامة تسير شئون المجتمع ، ولكنك تستطيع أن ترى
وتلمس فى التاريخ أن المسلمين بقوا بخير وأقبلت عليهم الخيرات ، حين
التزموا هذه الأسس والمبادئ ، وأن الشمس لم تغرب عنهم إلا حين تنكروا
لها وأعطوها ظهورهم ، وأن ترى أنه قد صار علينا فرض عين وفرض كفاية
أن نتقدم إلى الإسلام .

من

تراب (٤٨٤) إن أكرمكم عند الله أتقاكم (*)

الطريق

«بمكة .. زمن إمارة عمر بن الخطاب .. عمر مع المسلمين ، يلحق به
فزاري من فزارة .. عليه علامات الغضب»

الفزاري : (مغالبًا غضبه) السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ..
عمر : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .. (متبسطاً) من أين يا أخا
العرب ؟! .. أراك غريباً عن مكة ..

الفزاري : إنني من فزارة يا أمير المؤمنين .. (يعود إليه غضبه) وقد
اعتدّى عليّ في رحاب البيت بينما أطوف .

عمر : (مهدئاً) هدي روعك يا ولدي .. هلا جلست فرويت لي أمرك ..
الفزاري : (وهو يجلس) اليوم يا أمير المؤمنين ، وبيننا أطوف بالبيت ،
وطأت قدمي بغير قصد إزار رجل كان يمشي أمامي .. فما كان منه إلا أن
استدار إليّ ولطمني فجذع أنفي ..

عمر : هل تعرفه ؟!

الفزاري : يقولون إنه أمير من أمراء الغساسنة ..

عمر : وإن كان أميرهم قاطبة .. (سائلاً) من هو ؟

الفزاري : إنه جبلة بن الأيهم يا أمير المؤمنين .. والله ما تطاول عليّ
إلا بسلطانه ..

(*) المال ١٤/٩/٢٠١٠ .

عمر : (مقاطعًا) ليذهب من يأتيني به ، فلا أمسى عمر قبل أن يأخذ لهذا الشاب حقه .. « ينصرف أحد الحاضرين لتنفيذ ما طلبه عمر .. » .

« عمر بمجلسه .. يأتيه جبلة بن الأيهم ، فيبتدره عمر .. » .
عمر : (في حزم) أحقًا ما يقوله هذا الفزارى يا جبلة ؟!
جبلة : قد وطأ ردائي يا أمير المؤمنين بينما أطوف بالبيت الحرام ..
عمر : أترأه قصد ذلك ؟ !
جبلة : (مترددًا) لـ .. لقد ..
عمر : (في حزم) أحقًا يا جبلة أنك لطمته وأنك الذى جدعت أنفه ..
جبلة : نعم يا أمير المؤمنين ..
عمر : (في حزم) إذن فهو القصاص ، أو يعفو عنك ..
جبلة : (معترضًا) وكيف يا أمير المؤمنين ، وأنا أمير وهو سوقة ؟!!!
عمر : يا جبلة ، لقد سوى بينكما الإسلام ، فلا تفضله إلا بالتقوى
والعاقبة .. (مستأنفًا في تصميم) القصاص ، أو يعفو عنك ..

« بعد فترة .. الفزارى يدخل على عمر »
عمر : (سائلًا) هيه .. أين جبلة بن الأيهم ؟
الفزارى : لقد حاول أن يسترضيني يا أمير المؤمنين ، فلما لم أعف ،
ارتد وفر .. يقولون أنه يمم شطر الروم
عمر : يغنى الله عنه .. يغنى الله عنه ..

«جبلۃ بن الأیهم فی بعض صحبه .. ضیق الصدر نادماً عما كان منه ..
یبتدره أحد الأعراب .. » .

أعرابی : أما كان الأجدر لك یا جبلۃ أن تسمع لقول أمير المؤمنين ؟ ..
جبلۃ : آی والله یا أخى .. إنها النفس الأمارة ، وهى الآن لا تغنى عنى
فی أسفى وندمى شيئاً ..
ینشد فی حزن :

تنصرف الأشراف من عار لطم وما كان لی فیها - لو صبرت لها - ضرر
تکتفنى فیها لجاج ونخوة وبعث بها العین الصحیحة بالسعور
فیالیت أمدى لم تلدنى ولیتنى رجعت إلى القول الذی قال لی عمر

من تراب الطريق

(٤٨٦) من سن سنة (*)

أخرج الإمام مسلم في صحيحه (١٠١٧)، والنسائي (٢٥٥٤)، وابن ماجه (٢٠٣)، والترمذي (٢٦٧٥)، بإسناد صحيح، أن رسول الله ﷺ قال: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ».

ربما كان هذا الحديث الشريف، في صفحة وجدان المسلمين بعامه، والتابعين ومن بقى حيًّا من الصحابة، حين اعترضوا بشدة على مشروع معاوية بن أبي سفيان أخذ البيعة - في حياته - لابنه يزيد، فالسنة التي استنها الخلفاء الراشدون من قبله، كانت على نقض ذلك، فقد تولى أبو بكر الصديق بيعة عامة اتفق عليها في النهاية الأنصار مع المهاجرين، ولم يكن الترشيح قبل مبايعة أبي بكر لأحد من بيت النبوة، فقد كانت الأنصار تريد مبايعة واحد منهم، بينما رشح عمر بن الخطاب الصحابي الجليل أبا عبيدة بن الجراح الذي أباه وأشار بالصديق، فلما جاء الصديق وأراد ترشيح أحد الرجلين: عمر أو أبي عبيدة، أبيا عليه معًا فكانت البيعة العامة للصديق، ولما حضره الموت، لم يشر بأحد من بنيهِ، وأراد استخلاف عمر بن الخطاب، ولم يطمئن إلى سداد اختياره وترشيحه إلا بعد سماع رأى كبار الصحابة، ومع

(*) المال ٢٠١٠/٩/١٥.

ذلك فإن الفاروق لم يل الأمر إلا ببيعة عامة ، فلما طُعنَ وحضرته الوفاة ، لم يستخلف أحداً من بنيه أو عشيرته ، واختار ستة يكون الاختيار من بينهم ، هم من بقى حياً من العشرة المبشرين بالجنة الذين توفى النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ : الإمام عليّ بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، الزبير بن العوام ، طلحة بن عبيد الله ، سعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، جعل لهم الشررى والاختيار منهم ، وأضاف إليهم فى الشورى فقط - عبد الله ابن عمر - دون أن يكون له فى ولاية الأمر شىء ، فلما ارتضى المجتمعون إكمال الأمر إلى الصحابى عبد الرحمن بن عوف ، وقدم علياً فى البداية ثم عدل فى قصة طويلة إلى عثمان بن عفان ، تبع ذلك بيعة عامة من المسلمين ، فلم يتبوأ عثمان الولاية باختيار مجلس الشورى ، وإنما بهذه البيعة العامة ، وهى هى البيعة التى ولى بها الإمام عليّ بعد مقتل الخليفة عثمان فى مشهد مأساوى ظلت توابعه لمئات السنين . على أن الإمام عليّ بن أبي طالب حين طُعن ، وأحس بدبيب الموت ، وأرادت شيعة أن يعهد بالأمر إلى نجله الحسن ، أبى عليهم ذلك ، فلما ألخوا فى مرادهم ، قال لهم : لا آمركم ولا أنهاكم .

كانت هذه هى السُّنة المتبعة منذ وفاة الرسول ﷺ ، وفى تولية وولاية الخلفاء الراشدين الأربعة ، فلما أراد معاوية أخذ البيعة - فى حياته - لابنه يزيد ، اعترض الصحابة ، وأبناء الصحابة والتابعون وعامة المسلمين ، ولكن معاوية مضى بتحريض البعض لإتمام وفرض المشروع الذى أراد ، فكانت له توابعه ، ليس فقط فى منح الإمارة إلى يزيد الذى أخفق إخفاقاً ذريعاً ، وإنما صار ما استنه معاوية سُنّة متبعة لزمّت انتقال الولاية فى الدولة الأموية حتى انقضائها بعد قرابة تسعين عاماً ، ولزمت الدولة العباسية من بعدها ،

ولزمت كافة الدول أو الإمارات التي خرجت منها أو انشقت عليها ، فصار الميراث هو السُّنة المتبعة التي استنهما معاوية وتلقفها من أتوا بعده .

مخاطر هذه السنن المبتدعة ، أن تداعياتها لا تنقطع ، حتى قيل إن عمر بن عبد العزيز ، المطلق عليه الخليفة الخامس ، قد اغتيل اغتيالاً بالسم عن اعترضوا من بنى أمية على مسيرته ورغبته في أن يعيد الأمور إلى المسلمين ليبايعوا من يشاءون وفقاً للسنة التي اتبعت عند قبض المصطفى ﷺ ، وطوال تولية وولاية الخلفاء الراشدين الأربعة من بعده .

لذلك فإن الاعتراض قد لا يكون على شخص الوريث ، فقد تتفق له الصلاحية والكفاءة والإخلاص والافتدار ، وإنما يجري التحفظ على محاذير ابتداء هذه السنة التي حين ابتدعها معاوية ، مضت بقوة العادة والاعتقاد ، والتفاف ذوى الأغراض من حولها ، حتى أخذت الدولة الأموية إلى منحدرٍ انهارت وانتهت في ختامه ، وهو هو ما أصاب الدولة العباسية ومن تبعها حين تجمعت عوامل الضعف الناجمة عن مصادفات امتدادات الأعراق ، فأخذت من الدولة عوامل قوتها واستمرارها ، حتى غربت الشمس وأفلت الأنجم وآلت الأمور إلى المصير المحتوم . وهذا درس التاريخ .



كتب وإصدارات أ. رجائي عطيه

- (١) أوراق - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧ .
- (٢) من هدى النبوة وفي مدرسة الرسول - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧ .
- (٣) من هدى القرآن وذلك الكتاب لاريب فيه - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٨ .
- (٤) بشاير - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
- (٥) باسمك اللهم - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
- (٦) بسم الله - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
- (٧) نواب القروض - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١ .
- (٨) يارب - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١ .
- (٩) قضية النقابين - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١ .
- (١٠) أبو ذر الغفارى - روز اليوسف ، هيئة الكتاب - ٢٠٠٢ ، ٢٠٠٥ .
- (١١) قضية الجمارك الكبرى - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٢ .
- (١٢) مواقف ومشاهد إسلامية - دار الهلال - ط ٢٠٠٢ .
- (١٣) ماذا أقول لكم - دار الشروق - ط أولى ٢٠٠٣ .
- (١٤) عالمية الإسلام - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ط ١ ، ط ٢ - ٢٠٠٣ .
- (١٥) إبحار في هموم الوطن والحياة - دار الشروق - ط ٢٠٠٤ .

- (١٦) الإنسان العاقل وزاده الخيال - دار الشروق - ط ٢٠٠٤ .
- (١٧) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - المجلد الأول - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣ .
- (١٨) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - المجلد الثاني - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣ .
- (١٩) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - المجلد الثالث - روز اليوسف - ط ٢٠٠٤ .
- (٢٠) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - المجلد الرابع - روز اليوسف - ط ٢٠٠٥ .
- (٢١) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - المجلد الخامس - المكتب المصرى الحديث - ط ٢٠٠٦ .
- (٢٢) الإنسان والكون والحياة - كتاب الهلال - أكتوبر ٢٠٠٥ .
- (٢٣) تأملات غائرة - دار الشروق - ط ٢٠٠٦ .
- (٢٤) الأديان والزمن والناس - كتاب الهلال - سبتمبر ٢٠٠٦ .
- (٢٥) شجون وطنية - المكتب المصرى الحديث - ط ٢٠٠٦ .
- (٢٦) الهجرة إلى الوطن - كتاب الهلال - نوفمبر ٢٠٠٧ .
- (٢٧) رسالة الحمامة - دار الشروق - سبتمبر ٢٠٠٨ .
- (٢٨) في الوحدة والجماعة الوطنية - المكتب المصرى الحديث - سبتمبر ٢٠٠٨ .
- (٢٩) في رياض الفكر - كتاب الهلال ٢٠٠٨ .
- (٣٠) بين شجون الوطن وعطر الأحباب - المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨ .
- (٣١) من تراب الطريق - الكتاب الأول - المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨ .
- (٣٢) من حصاة الحمامة - المجلد الأول - المكتب المصرى الحديث .

- (٣٣) من حصاد المحاماة - المجلد الثاني - المكتب المصرى الحديث
- (٣٤) من حصاد المحاماة - المجلد الثالث - المكتب المصرى الحديث
- (٣٥) من حصاد المحاماة - المجلد الرابع - المكتب المصرى الحديث
- (٣٦) من حصاد المحاماة - المجلد الخامس - المكتب المصرى الحديث
- (٣٧) من حصاد المحاماة - المجلد السادس - المكتب المصرى الحديث
- (٣٨) من حصاد المحاماة - المجلد السابع - المكتب المصرى الحديث
- (٣٩) من حصاد المحاماة - المجلد الثامن - المكتب المصرى الحديث
- (٤٠) من حصاد المحاماة - المجلد التاسع - المكتب المصرى الحديث
- (٤١) من حصاد المحاماة - المجلد العاشر - المكتب المصرى الحديث
- (٤٢) من حصاد المحاماة - المجلد الحادى عشر - المكتب المصرى الحديث
- (٤٣) من حصاد المحاماة - المجلد الثانى عشر - المكتب المصرى الحديث -

تحت الطبع

- (٤٤) دولة الأيام ! - كتاب الهلال أول يونيو ٢٠٠٩
- (٤٥) من تراب الطريق - الكتاب الثانى - المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩
- (٤٦) من تراب الطريق - الكتاب الثالث - المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠
- (٤٧) من تراب الطريق - الكتاب الرابع - المكتب المصرى الحديث .
- (٤٨) الأمن والأمان : قراءة فى الأمن المجتمعى فى الإسلام - المكتب المصرى الحديث .

- (٤٩) قد تكون الديانة تجسيدا للعقل . ترجمة وعرض عن كتاب حياة العقل للفيلسوف جورج سانتايانا - كتاب الهلال - نوفمبر ٢٠٠٩
- (٥٠) الواقع أو الحقيقة . ترجمة عن كتاب طبيعة العالم المادى للسير آرثر ستانلى إدينجتون

- (٥١) عبقرية إنكار الذات - أبو عبيدة بن الجراح - تحت الطبع .

الفهرس

الصفحة	العنوان
٥.....	(٤٠١) إن تكونوا تلمون فإنهم يألون كما تألمون
٩.....	(٤٠٢) هل بات الفقر وحده !
١٣.....	(٤٠٣) هي دعوة للصدق ومساعدة
١٧.....	(٤٠٤) هي دعوة للصدق ومساعدة
٢١.....	(٤٠٥) الدكتور أبو المجد لماذا هذا الإقصاء الغريب !؟
٢٥.....	(٤٠٦) الزواج أو المواطنة
٢٩.....	(٤٠٧) احتفالات الساده المحافظين بلاعبي كرة القدم !
٣٣.....	(٤٠٨) بيع القاصرات للزواج وجنسية مصر !
٣٧.....	(٤٠٩) من مناجاة المتصوفة
٤١.....	(٤١٠) الفنون والإنسان (١)
٤٦.....	(٤١١) الفنون والإنسان (٢)
٥١.....	(٤١٢) مسئولية الحياة
٥٥.....	(٤١٣) ما لم يتداركنا الله بفضلله
٦٠.....	(٤١٤) ماذا أصاب الحمامة
٦٩.....	(٤١٦) المرجان (٢)
٧٣.....	(٤١٧) مقادير !
٧٧.....	(٤١٨) بودلير
٨٢.....	(٤١٩) دريني خشبة وتاريخ المسرح في ثلاثة آلاف سنة

٨٨	(٤٢٠) الوقت والهالك القومي
٩٢	(٤٢١) بين اعتناق الرأي وإخراج اللسان
٩٥	(٤٢٢) مصاب جلل (١)
٩٩	(٤٢٣) مصاب جلل (٢)
١٠٣	(٤٢٤) إسرائيل تعلن الحرب !
١٠٨	(٤٢٥) المرجان (٣)
١١٢	(٤٢٦) الروح القومية بين الأمس واليوم !
١١٦	(٤٢٧) الهوية والعنف
١٢٠	(٤٢٨) الزبالة من ثاني !
١٢٣	(٤٢٩) في محبة المسيح (١)
١٢٦	(٤٣٠) في محبة المسيح (٢)
١٢٩	(٤٣١) وفاء نادر !
١٣٤	(٤٣٢) مع الله (١)
١٣٨	(٤٣٣) مع الله (٢)
١٤٢	(٤٣٤) مع الله (٣)
١٤٧	(٤٣٥) مع الله (٤)
١٥١	(٤٣٦) مع الله (٥)
١٥٦	(٤٣٧) مع الله (٦)
١٦٠	(٤٣٨) مع الله (٧)
١٦٤	(٤٣٩) في التقليد والمحاكاة !

١٦٨	(٤٤٠) أفكار للتأمل !
١٧٢	(٤٤١) هل أنصفنا الناس في حياتهم
١٧٧	(٤٤٢) من المستول الحقيقي ؟!
١٨٢	(٤٤٣) على هامش معالم التقريب
١٨٦	(٤٤٤) في عالم الكتب!
١٩١	(٤٤٥) الشَّص (١)
١٩٤	(٤٤٦) الشَّص (٢)
١٩٧	(٤٤٧) على هامش محمد عبد الله محمد
٢٠١	(٤٤٨) الإرادة الحقيقية والمجازية عند المتصوفة
٢٠٥	(٤٤٩) نحن والوعي والفهم والحياة
٢٠٩	(٤٥٠) الإيمان والدافع الإيماني ودور العقل
٢١٣	(٤٥١) نفحات الخيال
٢١٧	(٤٥٢) ماذا الحصانة للمحامين ؟
٢٢٢	(٤٥٣) الذكاء الإنساني: الاستعداد واحد
٢٢٦	(٤٥٤) هذا هو رد فعل العالم فماذا عن رد فعلنا؟
٢٣٠	(٤٥٥) هل ولي زمن البسالة والشجاعو؟!
٢٣٤	(٤٥٦) عماد الحقيقة
٢٣٨	(٤٥٧) الدكتور عبد الغفار مكاوي وقراءته في جذور الاستبداد
٢٤٢	(٤٥٨) مع الجاحظ
٢٤٦	(٤٥٩) استشهد حديث بتحيز قديم

العنوان

الصفحة

٢٥٠	(٤٦٠) مصر التي في خاطري (١)
٢٥٤	(٤٦١) مصر التي في خاطري (٢)
٢٥٨	(٤٦٢) مصر التي في خاطري (٣)
٢٦١	(٤٦٣) الفراسة علم أم فن أم خرافة ؟!
٢٦٦	(٤٦٤) فقدان الصدق والميل المرضي على الاشتغال بالأغراض الضخمة
٢٧٠	(٤٦٥) تضاريس خريطة الحقوق والواجبات
٢٧٤	(٤٦٦) أبو حيان التوحيدي الصداقة والصديق
٢٧٩	(٤٦٧) مرآة الزمن
٢٨٣	(٤٦٨) حول الصداقة والصديق
٢٨٧	(٤٦٩) الدين والحرية
٢٩١	(٤٧٠) المال ومعالم التقريب (١)
٢٩٤	(٤٧١) المال ومعالم التقريب (٢)
٢٩٧	(٤٧٢) أين حواء من قضاياها ؟!
٣٠١	(٤٧٣) انحراف الرؤية !
٣٠٥	(٤٧٤) وداع على ميقات !
٣٠٩	(٤٧٥) المرايا المعكوسة
٣١٣	(٤٧٦) الدين والمال
٣١٧	(٤٧٧) سنن الأسباب
٣٢١	(٤٧٨) الحكمة ضالة العقلاء
٣٢٤	(٤٧٩) القنبرة والفيل : لا يأس مع العقل والحيلة !

٣٢٨.....	(٤٨٠) اليوم والغريان !
٣٣٢.....	(٤٨١) بالحب والوئام ، لا بالبغضاء والعداوة !
٣٣٥.....	(٤٨٢) الحماة والثعلب ومالك الحزين "لاته عن شيء وتأتي مثله"
٣٣٨.....	(٤٨٣) على هامش معالم التقريب العلم والذكر لا الكهانة
٣٤٢.....	(٤٨٤) هل الإسلام كفيل بالسياسة العادلة ؟
٣٤٦.....	(٤٨٤) إن أكرمكم عند الله أتقاكم
٣٤٩.....	(٤٨٦) من سن سنة
٣٥٢.....	كتب وإصدارات أ. رجائي عطيه
٣٥٥.....	الفهرس



رقم الإيداع
٢٠١٠ / ٢٠٠٢٤

IS.B.N. 977-209-201-8 لترقيم الدولي